دكتور/ فتحى جمعة
كلية دار العلوم

اللغة الباسلة

الطبعة الخامسة
٢٠٠٠

الناشر
دار النصر للتوزيع والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ
وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُبِينٌ﴾

[سورة النحل ١٠٣]

الإهداء

إلى أبى وأمى

وزوجى

الثلاثة الذاهبين الباقين

الراحلين المقيمين

لا نزكيهم على الله تعالى، بل نحسبهم إن شاء الله مع الصالحين. سابقوا فسبقوا، وآثروا ما عند ربهم عز وجل فى رحمته الواسعة وجواره الكريم.

فإلى أرواحهم أهدى هذا الكتاب . .

عرفانا دائمًا وحبًا باقيًا ووفاءً لا يموت

فتحى ،،

مقدمات

١- مقدمة الطبعة الخامسة.

٢- مقدمة الطبعة الرابعة.

٣- مقدمة الطبعة الأولى.

هذه الطبعة الخامسة:

تقديم وبيان !!

لغة بلا أمّة !!

هذا وصف، نراه اليوم جديرًا بأن يستأثر بالعربيّة، وأن تستأثر العربية به.

وإنا لنراه كذلك، بعد التأملّ الطويل فيما هو معهود مألوف من أحوال الأمم واللغات!! ذلك أن التاريخ المسجّل للحضارات، يثبت الارتباط الوثيق بين الدولة والحضارة واللغة؛ وجودًا وعدمًا، قوة وضعفًا!! فإذا ذهبت "الدولة" أو ضعفت، ذهبت الحضارة، أو تراجعت، ثم تتْبعها اللغة فتختفى، أو تذبل وتضعف!!

تلك حقيقة ممتدّة، بامتداد التاريخ البشرى فى جميع الأزمان والأوطان. ذلك ما عرفناه لدى قدماء المصريين، والسومريين، والأكّديين، والآشوريين، والبابليّين، والإغريق، والرومان، والهنود، وغيرهم من الأمم والحضارات المشهورة فى التاريخ.

كل واحدة من هذه الحضارات كانت لها دولة ولغة. فلما ضعفت الدولة، أفَلت الحضارة ثم تبعتها اللغة: زوالاً أو احتجابًا إلى حين.

لكن هذا التاريخ لم يعرف لغة تبقى - مع أفول الحضارة وضياع "الدولة" — إلا فى مثلٍ واحدٍ، هو "العربيّة"!!

منذ عدة قرون، تمزّقت "الدولة العربيّة"، وتراجعت قوتها، وضاعت هيبتها، ثم ظهرت آثار ذلك كله فى عطائها الحضارى الذى تجمّد أو توارى، على حين ظهرت حضارة أخرى فى الغرب، سرعان ما اتخذت سبيلها فى المواقع البارزة التى كانت للحضارة العربيّة الإسلامية.

ومعنى هذا: أن "الدولة" سقطت، والحضارة اختفت.

ولكن بقيت اللغة !!

غير أن العرب فى العصر الحديث، قدْ نهضوا نهضةً هائلة فى جميع ميادين الحياة الاجتماعية والعلميّة والثقافية. وقد تأثرت هذه النهضة تأثرًا كبيرًا مباشرًا بالحضارة الغربيّة. ولكنها لم تقف - كما ينبغي - وراء الحدود الثقافية أو العلمية. بل تعدّت هذه الحدود إلى أنماط الحياة ونماذج السلوك فى صورة عاتية من الانبهار الشامل بكل ما هو غربىّ فصارت أوربا وأمريكا مثلاً يحتذى، وقدوة تُتّبَع.

وكان أثر ذلك كله على اللغة حتمًا مقضيًا .. لأن قومنا – فى سَكْرة الإعجاب ونشوة الانبهار – قد حسبوا أن إدراك "الشأو" الأوربى أو الأمريكى، يعنى الانخراط فى الحياة الغربيّة، والانخلاع من الحياة العربيّة.

ثم حسبوا مرة أخرى، أن آية هذا وبُرْهانَه، إنما هو لَىّ اللسان وعُجْمَةُ البيان؛ بدأ ذلك مع بضعة أفراد مترفين ثم زحف على "جميع الأمّة" فى كل مكان!!

وهكذا أخذ "قناع العُجْمة" يغطّى وجه الحياة على الأرض العربيّة شيئًا فشيئًا، حتى ليوشك اليوم أن يخفى معالم هذا الوجه ويبدّل ملامحه!!

لقد بدأت "الثقوب" الأعجميّة تظهر فى "الثوب العربى" ثم غلبت عليه؛ فكأنّه اليوم "ثوب أعجمى" تتناثر فيه "بُقَعٌ" عربية؛مما بقى له من أطراف شعبيّة أو ريفيّة نائية، لم تتمكن العجمة من احتوائها، وإن امتدت آخر الأمر إليها وأصابتها بقدر غير يسير من دمامة الاستعجام المقبوح الذى مَسَخ الحياة العربيّة فى أكثر أرجائها.

خرجت الطلائع الأولى لهذه الظاهرة من الحواضر الكبيرة فى بيوت عدد من المترفين الذين استهوتهم الحياة الأوروبية والأمريكيّة واستحوذت على أرواحهم بكثرة سفرهم إلى أوربا أمريكا، واتصالهم بشعوب هذه البلاد.

وقد أدى ذلك إلى تصور خاطئ لمفهوم الحضارة انتهى إلى "الخلط" بين "المقذوفات الشكلية" والنفايات الضارّة للحضارة وبين "الحقيقة الحضاريّة" نفسها، متمثلة فى قدرة الأمة على "إيجاد" المقومات، وابتكار الأدوات التى تصنع حضارة أو تقيم حضارة خاصة بهذه الأمة حقيقةً أن تعرف بها وتنسب إليها!!

وفى غفلة هذا "الخلط" غلب على أمتنا اعتقاد جاهل منكور، بأن التقدم الغربى، لا يُدْرَك إلا بالمتابعة والمحاكاة التى تذوب فيها الذات، وتنماع الملامح والمعالم؛ إذ تشمل كل عناصر الحياة من الملابس والثياب إلى طريقة الطعام ثم إلى حروف الكلام!!

وليت قومنا وقفوا عند هذا!!! إذًا لقد هان الخطب ويَسَرَ الأمر؛ إذ هو حينئذٍ لا يَغْدو أن يكون موقف أفراد أو مجموعات من الأمة لا تمثل "روحها" ولا تصور "التوجُّه العام" فيها.

ولكنه كان مقدمة "انمحاق" شامل، بدأ بهذه "المسوخ" اللفظية التافهة الصغيرة، ثم أخذ يَسْرى فى "عروق" الأمة، حتى انتهى إلى "روحها"؛ فأزهقها، وأمات فيها شعور الانتماء، والاعتزاز بالذات، والحرص على الخصوصيّة الوطنية والقوميّة.

من أجل ذلك نرى "الاستعجام" يزحف زحفًا جارفًا كاسحًا من بلد إلى بلد، ومن ميدان إلى ميدان، ومن طبقة إلى طبقة: بدأ بالمترفين فى الأحياء الراقية من العاصمة والمدن الكبرى فى ألفاظٍ أعجميّة ممسوخة مقبوحة، استبدلوها بالألفاظ العربيّة الجميلة النبيلة، تعبيرًا عن بعض الصلات، أو شئون الحياة اليوميّة بين الناس .. ولكنه تعدّى حدود ذلك كله، فامتدّ إلى سائر طبقات "الأمّة" فى جميع مدنها وقراها: قاصيها بعد دانيها.

غير أن الأمر لم يقف عند حد "المخاطبات" أو ألقاب العلاقات

الاجتماعية[1]، بل تعدّاها إلى الشوارع والميادين، وأسماء الدكاكين والشركات والمؤسسات الخاصة بل "الحكومية" العامة!!

لقد تحولت البلاد كلها إلى شكل بئيس من أشكال "الانقهار" أو "الانمحاق" الحضارى والنفسيّ، الذى نبدو فيه وكأننا أمة تعمل بيدها وتسعى بإرادتها أن تنخلع من ذاتها لتذوب فى غيرها!!

على أن أخطر ما فى هذا التحوّل، هو ما يتعلّق منه بلغة العلم والثقافة لأننا فى هذا المجال، قد صرنا ـ بقصد أو بغير قصد ـ أدوات فى يد المحتل! ننفذ خططه، ونحقق جميع غاياته!!

لقد جاءنا قبل أكثر من مائة عام، فاحتل أرضنا وأكرهنا على ترك لغتنا والتحول إلى لغته فى مراحل التعليم كلها. وفى غمرة الضعف والانكسار، خضعنا وقبلنا!!

ثم زيّن لنا الإعجابُ المتعاظم بقوة هذا المحتلّ وهيئة حياته، الاندفاعَ نحو لغته والحماسة لها، وتوسيعَ رقعتها على الرغم من جهود محمودة وجهاد مجيدة فى "المدارس الأهلية" التى أنشأها المخلصون أولو الغيرة الدينية والوطنية من المصريين؛ لتقف فى وجه الزحف "الإنجليزى" على شخصية الأمة وانتمائها العربى والإسلاميّ.

لقد زال الاحتلال العسكرى، وذهب السلطان السياسيّ الإنجليزى منذ نصف قرن وبضع سنين، ولكن لغته من ورائه، قد أحكمت سيطرتها، ومدت نفوذها حتى استوطنت أعماقنا "عقيدة" ثقافية وحضاريّةً لازمة، ينبغى أن تكون "مكان لغتنا" لا إضافة إليها أو مُعاونةً لها.

---

(١) نعنى مناداة العم والخال وغيرهما وكلمات الشكر والوداع ونحو ذلك مما سوف يأتى إن شاء الله.

ويبدو أن أكثر الأمة اليوم يصدقون ذلك بل يؤمنون بضرورته؛ فهم يرغبون عن العربية زهادة أو ازدراء، على حين يقبلون على الإنجليزية راضين، ويَسْتَبِقُونَ طريقها طائعين؛ ليقدموا العَوْن السخيّ إلى "دولة الاحتلال" مرتين!

مرة بتمجيد لغته، والتمكين لها بكل ما يستطيعونه من وسائل التمجيد والتمكين!! وأخرى بتحقير شأن العربيّة، وتصعير الخدّ لها، والإعراض عنها وانتهاك حرمتها وإباحة حماها:

أ. في الشوارع والأسواق، للتجار وأتباع المال ومؤسسي الشركات (ومنها الحكومية):

يولونها أدبارهم، أو يبتذلونها ويمسخون جمالها دونما رقيب عليهم أو حسيب!!

ب. في المؤسسات التعليمية والثقافية للتلاميذ ومَن يُسمَّوْن مثقفين:

تكون ألسنتهم، أو تجرى بها أقلامهم في هذه الصورة الزريّة المخجلة من المَسْخ والانهيار!!

ذلك موقف عجيب منكور لأمة غاب وعيها وفقدت ذاكرتها ونسيت تاريخها؛ فهي اليوم تحقّر لغتها، وتوقر لغة أخرى غيرها، ثم تصطنع الوسائل وتهيّئ الأسباب من تلقاء نفسها، لتغذية الشّعورَيْن في وَقْت معًا: شعور التوقير، وشعور التحقير؟!

وحسبنا هنا أن نشير إلى ظاهرة بارزة جدًّا في حياتنا التعليميّة وهي ظاهرة "مدارس اللغات"!!

لقد مكّنّا لها في أرضنا؛ توسعنا فيها، وتهافتنا عليها، وألبسناها رداء الشرعية، وثبتنا في صدرها "شارة التميز" حين دخلت الحكومة في "مضمارها"؟!

ذلك، وما هي إلا غَرْسُ المحتل وعمل يده؛ هو الذى حدّد أصولها وأرسى دعائمها، وهو الذى أنشأها أول مرة.

إنها أداته فى تحقيق مآربه، ووسيلته إلى نشر لغته، لتكون قاعدة ثابتة لاحتلالٍ عقلىٍّ مقيم، وسيطرة فكرية نافذة أرادها وسعى لها سَعْيَها فتحقق له كثير مما أراده أو سعى إليه!!

إن هذه المدارس، تُرْبَةٌ خِصْبَة لاستنبات مشاعر الاستعلاء والتميُّز الطبقى، لدى أصحابها وطلابها والراغبين فيها، وهى مشاعر تؤدى إلى رغبة خفيّة فى "الانسلاخ" من الأمة، وإحساس مخبوء بعدم الانتماء إلى الجماعة. وما انكبابهم على "لغة المدرسة" - مع ازورارهم عن لغتهم العربية إلا مظهر من مظاهر هذا الشعور أو علامة من علاماته، أو لنقل إنه نوع من التنفيس عن الرغبة أو محاولة للتعبير عن الشعور المستور.

لقد صارت هذه المدارس (التى غرسها الاحتلال فى بلادنا) عالمًا خاصًّا متميّزًا يشعر الذين فيه أنهم غير الأمّة:

مكانتهم فوق مكانتها

ثقافتهم أميَزُ من ثقافتها

لغتهم أعلى من لغتها

ولهذا ينبغى - فى تصورهم - أن يكون الخطاب والكلام و"الوجود" للغتهم تلك وحدها أما العربيّة فليست قضيّتهم وليس شأنها مما يهمُّهم أو يشغلهم؛ فلتذهب إلى مكان آخر أو "وطن آخر"؟!

ليس هذا رجمًا بالغيب، ولا تخرُّصًا بالظن، ولا افتئاتًا على الواقع بل هو بعض ما اشتمل عليه هذا الواقع من وقائع وحكايات وأعاجيب. ولنقرأ ما يأتى!

« دعت إحدى المدارس الخاصة بالإسكندرية أولياء الأمور إلى الاجتماع، وطلبت منهم منع أطفالهم التلاميذ من الحديث باللغة العربية فى البيت ومعاقبتهم عن طريق الحرمان من المصروف إذا وقعوا فى المحظور ونطقوا بغير الإنجليزية" والغريب "أنَّ هذه المدرسة الابتدائية تتقاضى لقاء قطع اللسان العربى أربعة آلاف دولار فى الفصل الدراسى الواحد .. وأنها لكى تحقق هذا الهدف على أكمل وجه، لم تكتف بالتدريس طوال اليوم باللغة الإنجليزية، وإنما أيضًا تبث عيونًا بين التلاميذ فى فترات الراحة (الفسحة) لمراقبة التزامهم بمخاصمة الحرف العربى، والتبليغ عن كل من سولت له نفسه أن يتحدث بلغة بلده »[1].

وكان رد المديرة على من أبدى اعتراضًا: "إنَّ تعليمهم الإنجليزية هو الأهم، وإن ملاحقة التلاميذ على هذا النحو هى الوسيلة الوحيدة لتمكينهم منها فى مبتدأ حياتهم، أما اللغة العربية فالمفروض أنهم يعرفونها أصلاً"[2].

هذا كلام لا يحتاج إلى تعليق، ولكنه صورة ناطقة بحال طائفة من الناس يشعرون بأنهم فوق الأمة وليسوا منها. وهو شعور مريض يمثل شكلاً من أشكال الخلل فى البناء الاجتماعى الذى ربما كان غاية للمحتل حين زرع فى بلادنا مدارس للغته. ولكنه يفرض علينا عملاً لازمًا فى تقييد حركة هذه المدارس، ووضع الضوابط، والقيود التى تجعلها دائمًا فى داخل الإطار الوطنى والقومى الذى تدور فيه بقية المؤسسات التعليمية.

وأَعْجَبُ من ذلك كله، وأشد إيلامًا وأعظمُ نُكْرًا، ما نراه الآن فى جامعة الأزهر بعد "التطوير" الأخير[3] !!

---

(١) مقال الأستاذ فهمى هويدى "ويل لأمة مغصوبة اللسان" الأهرام ٢٤ أغسطس ١٩٩٩م.

(٢) السابق.

(٣) صدر قانون تطوير الأزهر سنة ١٩٦٠ تقريبًا.

إن الأزهر الشريف هو قلعة الدراسات العربية والإسلاميّة، وحصنها الحصين.

كذلك كان بالأمس. وكذلك ينبغي له أن يكون اليوم. ولكن الذى يحدث غيرُ الذى نتمنى، لأن الأزهر "الحديث" يسير على درب المتغربين، ويتبع سبيل المستعجمين والمؤلم بحق أن يتم ذلك بحماسة بالغة، واندفاع مشهود؛ فاستحسع الطرفين واستقصى الغايتين:

من أول الطريق؛ بإنشاء المعاهد الأزهرية للغات إلى آخره؛ فى الجامعة الجديدة باتخاذ الإنجليزية لغة للعلم والتعليم، مثل دأب الآخر.

ولقد كان حقًّا عليه ـ بمقتضى رسالته وأمانته التاريخية ـ أن ينصر "قضيّة التعريب" ويكون فى ميدانها أول المجاهدين ولكنه لم يفعل؟!

وهكذا تكون العربيّة مثلا للُغة، ليس لها من قومها ـ جميع قومها ـ ولىٌّ ولا نصير.

إنها مثل للُغة تبقى، من غير أن تحرص أمتها على بقائها بل تبقى وأمتها تندفع فى الطريق المضاد لطريقها فى أعمال كثيرة ومواقف متعددة، أجملنا الإشارة إليها هنا. ثم فصلناها فى "الصحائف" تفصيلاً وهى فى جملتها صورة أمينة تبين لنا بحق كيف كانت العربية لغة بلا أمة؛ لأن أمتها تبدو بكل طبقاتها ـ حكامًا ومحكومين رعايا ومسئولين ـ وكأنها لا تعبأ بلغتها ولا تلتفت إليها ولا تفكر فى قضيتها!!

أو تبدو وكأنها مغيَّبة أو مخدرة؛ غاب عنها أنها لن تبقى "أمة" لها كيان حضاريٌّ معلوم إلا بلغة تعتز بها وتغار عليها، وتؤثرها ـ فى العلم وسائر الميادين ـ بالمكانة السامية والمقام الكريم.

وبعد ..

فإن كاتب الصحائف لم يبرح على "قضيته" عاكفًا: يراجع الفكرة، وينظر في العبارة، ويطيل التأمل، ويستزيد من القراءة والمراجعة ويجرى الحوار بعد الحوار مع أهل العربيّة المهمومين بها والداعين إليها، أو مع طلابه الذين يحاضرهم ويستمع إليهم في القضية سنة بعد سنة منذ بدأ قبل خمس سنين حتى اليوم.

ولقد جاهد في هذه الطبقة الخامسة أن تخرج "صحائف اللغة الباسلة" بصورة أدنى إلى الاتساق والإحكام، فأعاد الترتيب وغير في التبويب وبدّل في التعبير، وزاد ونقص في المسائل وكان رجاؤه في جميع ذلك أن يسير بالكتاب "خطوة" في طريق الاكتمال وإنه ليعلم من نفسه أن سعيه في هذه المرة مثل سعيه الذى سبق، قد قَصُر دون بلوغ المأمل، وعجز عن إدراك الغاية .. غير أنه قد حاول وأنفق طاقته وجهده.

وقوله هنا هو قوله هناك « إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا با لله عليه توكلت وإليه أنيب ».

مقدمة الطبعة الرابعة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه وأكرم رسله، سيدنا محمد النبى العربى الأمى، وعلى آله وصحبه وتابعيهم بإحسان.

وبعد ..

فهذه صحائف "اللغة الباسلة" يطيب لنا أن نقدمها اليوم فى صورة جديدة بعد ثلاث سنوات أو زهائها من ظهورها أول مرة، ونرجو ـ بعون اللّه تعالى وتوفيقه وهدايته ـ أن تكون هذه الصورة أبهى وأدق !!

لقد توجهت "صحائفنا" أول ما توجهت، إلى طلاب دار العلوم خاصة لأن كاتبها ـ وهو أحد معلمى الدار العريقة ـ أراد أن يغرس فى عقول هؤلاء الطلاب وقلوبهم "عقيدة" العربية، ويحملهم أمانتها، ويعهد إليهم بقضيتها؛ ليكونوا مع جندها وحماتها ورعاتها؛ كيما تبقى لدى الآخرين كما كانت مع الأولين ـ لغة العلوم الرائدة، والمعارف الهادية، والمدنية المحتذاة، وإنها لحرية أن تكون كذلك، وأن تظل على ذلك؛ فلها من عند اللّه تعالى تشريف وتكريم؛ إذ اصطفاها على لغات العالمين لسانًا مبينًا نزل به الكتاب الحكيم .. ثم لها من تاريخها وتراثها سند يشد أزرها ويقوى عزمها، ويمنحها قدرة وصلابة فى مواجهة التحدى العنيد يأتيها من كل مكان، وما فتئ يتزايد ويتعاظم فى كل حين، والباسلة هى الباسلة: لا يفارقها الجلال، ولا يزايلها الجمال!!

طلعت الصحائف تصور ذلك، وتشير إليه، وتنبه عليه، وإذا كان خطابها الأول إلى "الطلاب" فقد كان من داعيات الغبطة عندنا ما لقيته لدى جمهورهم من صدى مجيب، وأثر حميد، احتفظوا بهما وأثنوا عليها وتقبلوها ـ والحمد لله كثيرًا ـ بقبول حسن!.

لكنّ ذلك لم يكن بسبب ميزة خاصة فى الكاتب أو فيما كتب، وإنما يرجع يقينًا إلى ما اشتملت عليه هذه الصحائف، من مسائل وقضايا حركت تفكيرهم ومسّت شغافهم فى وقت معًا؛ ولهذا شاركوا بحوارهم وأسئلتهم وتعقيباتهم مشاركة قيمة فى إثراء الفكرة، وأعانت ملاحظاتهم (بل إجابة بعضهم فى الامتحان أحيانًا) على إحكام الصياغة وتعديل التقسيم والتبويب.

وقد دعانا هذا إلى تأمل ما كتبنا: رجعنا النظر وقلبنا الفكر، ثم أجرينا القلم فزدنا ونقصنا، وغيرنا وحورنا؛ نبتغى سواء الصراط وأن ندنوَ مما نعتقد أنه حق وسداد ورشاد.

ذلك أمل أملناه، وتوجه رجاؤنا إليه! وتلك غاية أردناها وسعينا لها سعيها، وما نظن أنّا ـ بجهدنا فى الإصلاح والتحسين والتقويم ـ قد بلغنا مأملنا وأدركنا غايتنا. فما هو إلا جهد المقلّ قصارى غاية صاحبه فيه أن يقف وراء حد التسديد والمقاربة وذلك ما فعلنا فسددنا وقاربنا، وما التوفيق إلا من عند اللّه.

ومهما كان الأمر فها نحن أولاء نقدم صحائف "اللغة الباسلة" فى ثوبها الجديد إلى القراء جميعًا، راجين أن تلقى لديهم ما لقيته قبلا من قبول وتقدير، وأن يكون نقدها تبصرة وذكرى، وتوجيهًا وتسديدًا، لا مؤاخذة أو إزراء وعيبا، ولسوف نكون ـ على كل حال ـ من الشاكرين.

وعسى أن نقدر فى أيام لاحقات إن شاء اللّه تعالى على إصلاح الخطأ وتكميل النقص وتقويم العوج وعلى اللّه قصد السبيل. وما توفيقى إلا باللّه. عليه توكلت وإليه أنيب.

مقدمة الطبعة الأولى

بسم اللّه والحمد لله، الفضل بيده عز وجل، والعون منه، والهدى هداه. والصلاة والسلام على النبى العربى الأمى، خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان وبعد ..

فهذه صحائف عن اللغة الباسلة !!

واللغة الباسلة ليست "عنوانًا" دعا إليه داعى "التّفنّن" فى التعبير، أو الرغبة فى استثارة القارئ وتهييج عواطفه من أجل استمالته، أو كسب مودته !!

كلا! فليست "عبارتُنا" من هذا القبيل ولا من ذاك.

وإنما اللغة الباسلة

حقيقة عرفناها

وتجربة عشناها[1]

ويقين تيقّناه !!

مواقف ومحاورات، ولقاءات، وندوات، ومحاضرات، وزيارات دُعينا إليها وشاركنا فيها. رَأَينا، وسمعنا، وتكلمنا، وقرأنا، وتأملنا، وتدبرنا، فانتهينا دائمًا إلى حقيقة: اللغة الباسلة.

ومن عجيب ما اطمأننا به، وانتهينا إليه فى هذا الشأن: ما بين الموصوف وصفته فى هذه العبارة، بل فى تلك الحقيقة - من تلازم.

وليس هذا من دعاوى العصبية، ولا من مزاعم المباهاة الكاذبة؛ لأن الأسباب التى حاولت هذه الصحائف استعراضها - على قدر طاقة كاتبها وجهده -

---

(١) عاش التجربة أو الحدث: أسلوب حديث أقره المجمع اللغوى، ونحن هنا نتبع المجمع فيه.

تثبت أحقية اللغة التى نتكلم عنها بوصف البسالة، كما تثبت جدارة الوصف بأن تختص به هذه اللغة من دون بقية اللغات.

هذه اللغة الباسلة هى: **العربية**.

إن كاتب هذه الصحائف لم يبدأ بالوصف خلعه على لغته، ثم طفق يبحث ويؤول؛ فيشتط فى البحث، ويعتسف فى التأويل، حتى تثبت دعواه أو يصدق مزعمه.

ولكنه - وهذه حقيقة صادقة - انتهى إلى هذا الوصف بعد تجاريب متعددة مختلفة مع الأفكار والآراء والاتجاهات والمواقف، والبشر الذين يعاملون العربية وتعاملهم !! بعد سنوات من تقليب الرأى، ومراجعة الفكر، وإطالة التأمل، والنظر.

إن اللغة الباسلة خاتمة لتطواف واسع حول شأن من شئون اللغات عجيب، وصورة بينها فريدة.

لغة تظاهرت عليها الخصومات، والتقت فى مواجهتها العداوات؛ لذاتها، أو لما تمثله من قيمة، وما تعبر عنه من فكر، وما تأخذ الناس إليه من عقيدة.

لغة اتفق أهلها على إهمالها وتضييعها وإهدار حرمتها، والتحول عنها فى جميع أمرهم إلى غيرها.

لغة أصحابها غرباء عنها، وهى عنهم غريبة. بعداء منها وهى منهم بعيدة.

لغة لا يتكلمها أهلها، ويخاصمها قومها، وينأى عنها أتباع دينها، ويأتمر بها أعداؤها؛ ليزيلوها أو يمسخوا جمالها.

وهى - كما هى - شامخة سامقة، جميلة جليلة طيبة، أصلها ثابت وفرعها فى السماء.

وما هذه الصحائف إلا مسائل أو صور من "مواجهات عربية" تجمع فى

نهاية الأمر أدلة ساطعة وبراهين مبينة على صدق الحقيقة، وحق اليقين، وسلامة الشعور بأنها اللغة الباسلة.

لقد أردنا من "صحائف" اللغة الباسلة غايتين:

الأولى: تجلية الحقيقة التي ينبغي أن تعلو على ضجيج الأباطيل والأراجيف حول العربية وحقها في التعبير عن ذاتها وثقافة قومها.

الأخرى: أن يدرك طلاب دار العلوم ـ وقد جاءوا إليها وانضموا إلى قافلتها؛ ليكونوا جند العربية وحماتها ـ وثاقة الارتباط بين لغتهم ودينهم، وكل ما تمثله هذه اللغة من معتقدات وقيم ينبغي لهم الاستمساك بها والحرص عليها. وأن يدركوا ـ من قبل ومن بعد ـ أنهم في حاجة إلى حب لغتهم والاعتزاز بها والغيرة عليها، أكثر من أن تكون لغتهم محتاجة منهم إلى هذا الشعور.

فإن وُفِّقَ كاتب "الصحائف" في إدارك هذه الغاية، فحسبه هي، وأكرم بها من غاية وأنعم. وإلا فقد أخلص القصد، وصدق العزم، وقدّم الجهد.

﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوفِيقِي إِلَّا بِاللَّـهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

فتحي محمد جمعة

دار العلوم

الفصل الأول

الجبهات الثلاث

الفصل الأول

الجبهات الثلاث

تـمهيد

(أ) اللغة الباسلة

هذا وصف، يثبت استقراء واقع اللغات، وتتبع أحوال الأمم والشعوب أنه لا يصدق على لغة كما يصدق على العربية !

لأن التاريخ اللغوى لا يعرف لغة تظـاهرت عليهـا الخصومـات والعـداوات تأتيها من كل مكان: من الشرق ومن الغرب، ومن الداخـل والخـارج، كمـا عَـرَف ذلك للعربية.

فإذا كانت البسالة تعنى - من بين ما تعنـى ـ الشـجاعة والقـدرة، وصلابـة المقاومة فى مواجهة الطعنات والضربات، فإن العربيـة جديـرة بحق أن ينسـب إليهـا هذا الوصف بأقوى دلالاته وأنبل معانيه !

لقد تتابعت علـى "أمتهـا" عصـور طويلـة مـن الضعـف والركـود، والتبعية الفكرية، فأصاب كلامها العربى مسخ كريه، وصارت لغة القرآن غريبة فـى أوطـان القرآن؛ وعلى الرغم من ذلك تحتفظ العربية بقوتها الذاتية العجيبة، فتسـتعصى علـى محاولات "الإبادة"، وتمتنع من محاولات الإضعاف والتشويه؛ لكى تبقى - مع امتداد الزمان ـ لغة فتية قوية، تستمسك بكل مقومات الجمال وكل مظاهر الجلال !.

إنها الاستثناء الفرد من القانون العام للغات التى يعرفها الناس، ويعرفون أنـه لا بقاء للغة لا يحافظ أهلها عليها فيتحولـون إلى غيرهـا، ويتخـذون مـن سـواها أداة

للمعرفة، ووسيلة إلى العلم والتعليم. ومنذ أمد بعيد، سارت "أمة" العربية فى هذا الطريق ولا تزال تسير!

ولقد كان من الممكن أن يحل باللغة العربية ما حل بكل اللغات التى عاشت أممها فى ظروف مماثلة، كما نرى فى أكثر البلاد الآسيوية والإفريقية؛ إذ من المعلوم أن لكل بلد منها لغة أصليّة: قومية أو وطنية، ولكن شعوب هذه البلاد تتعامل فى كل المجالات باللغة الإنجليزية أو الفرنسية على حسب النفوذ الاستعمارى الذى يخضع له هذا الشعب أو ذاك.

أما اللغات الوطنية أو القومية لهذه الشعوب جميعًا فقد توارت بالحجاب، ثم بادت فلم يعد لها كيان ولا مكان إلا فى أحيان نادرة، حينما يؤدون بعض طقوسهم أو شعائرهم، فى مناسبات المواسم والأعياد الخاصة بهم. وبعيدًا عن ذلك، فالغالب أن تكون الإنجليزية أو الفرنسية هى لغة العلم والتعليم والسياسة والاقتصاد، وهى أيضا لغة الخطاب والمعاملات الدولية مع سائر الأمم والشعوب.

لقد كان بعض هذا أو كثير منه، متوقعًا للعربية وقد شهدت أوطانها أحداثًا وعاشت فى ظروف وأحوال شبيهة بما شهدته الأوطان والشعوب الإفريقية والآسيوية وعاشت فيه.

ولكن هذا لم يحدث، وما نظن أنه يمكن أن يحدث؛ لأن لهذه اللغة خصوصيتها الخاصة التى حارت البرية فيها؛ فثار عجب الدارسين واستولى الدهش على الباحثين ــ مستشرقين ومستغربين ــ من هذه اللغة وحالها، وشأنها الباهر العجيب!

ظهرت أمامهم ـ حين ظهرت ـ كاملة، ناضجة جميلة، فلم يقفوا لها على مرحلة طفولة، أو أوَّليَّة بدائية، ثم تتبعوا مسيرتها ورصدوا حركتها، فلم يعرفوا لها ـ مع كل ما أصاب أهلها وحل بأمتها ـ شيخوخة ولا هرمًا، وهذا ـ فيما عهدوه من

شأن اللغات وأخبار الألسنة لدى الأمم والشعوب ـ عجب من العجب، وغريب فى الغريب.

قال أرنست رينان المستشرق الفرنسى الكبير معبرًا عن هذه الحقيقة: « من أغرب المدهشات أن تنبت تلك اللغة القوية، وتصل إلى درجة الكمال وسط الصحارى، عند أمة من الرحل. تلك اللغة التى فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها وحسن نظام مبانيها.

وكانت هذه اللغة مجهولة عند الأمم، ومن يوم عُلِمَتْ، ظهرت لنا فى حلل الكمال إلى درجة أنها لم تتغير أى تغيير يذكر، وحتى إنها لم يعرف لها فى كل أطوار حياتها طفولة ولا شيخوخة، ولا نكاد نعلم من شأنها إلا فتوحاتها وانتصاراتها التى لا تبارى. ولا نعلم شبيهًا لهذه اللغة التى ظهرت للباحثين كاملة من غير تدرج، وبقيت حافظة لكيانها من كلّ شائبة ».

لقد استولى العجب من شأن العربية والإعجاب بقوتها المتجددة، وجمالها الموصول على كثير من المستشرقين حتى قال أحدهم فى وصفها إنها « مثل (فينوس) ولدت كاملة الجمال، واحتفظت بجمالها وكمالها مع تعاقب الأزمان وتطاول الخطوب، وقد مرّت بأزمان طويلة. كانت فى عصور بهائها ــ ممتلئة حيوية، وواصلت طريقها فى ضعفٍ بعض الوقت، ولكن حيويتها كانت كامنة فيها. وحين نهضت من ضعفها عادت ـ كما كانت ــ كاشفة عن فتوتها وفتنتها وسحرها، وواعدة بمستقبل مشرق ».

فبقاء اللغة العربية قوية بهية، جليلة جميلة ــ حقيقة ثابتة، فرضت نفسها واقعًا حيًّا يمتد فى الزمان، وينتشر فى المكان، يعلو على جدل الخصمين ومراء الممترين.

ومرد هذه القوة الباقية إلى أسباب، نرى أنها ترجع أكثر ما ترجع إلى

الإسلام، وارتباطِهِ به وارتباطها بها، منذ ظهر ونزل القرآن العظيم بلسانها المبين، قبل أكثر من أربعة عشر قرنًا جرى بها الزمان.

هذا الارتباط - في رأينا هو - الذى أعطى العربية قدرة المقاومة، ومناعة المواجهة لكل ما تعرضت له فى تاريخها الطويل من محاولات ضارية لمحوها أو إضعافها، أو إنزالها عن عرشها.

وحسبنا هنا حال واحدة نضربها مثلا للصراع الذى خاضته العربية عَدَدَ قرون !!

وتلك حالها فى العصر الحديث؛ إذ نراها "تصارع" فى غير جهة وتقاتل فى غير ميدان. وذلك ما نجده تفصيلا فيما يأتى من بيان.

(ب) الجبهات الثلاث

الجبهات: جمع جبهة؛ وهى كلمة ترجع معانيها فى جملتها إلى المقدم مِنْ كل شيء !!

فجبهة الوجه: أعلاه، والجزء المقدم منه.

وجبهة قومه: وجههم وإمامهم.

وجبهة الناس أو القوم: هو الشخص المقدم بينهم.

وجبهة بنى فلان: سرواتهم ...(١)

أما دلالتها على مقدمة الميدان فى الحرب وما إليها، فهى دلالة محدثة، ولكنها غير بعيدة من المعانى المعجمية السابقة.

---

(١) انظر المادة فى الأساس، وغيره من معجمات اللغة.

ويبدو أن المعجم الوسيط قد راعى هذا الاعتبار، حين أثبت المعنى الخاص بالقتال لكلمة الجبهة، ونص عليها نصًا صريحًا، وجعله من جملة المعانى التى أثبتها لهذه الكلمة؛ إذ جاء فيه: « جبهة القتال أو الصراع هى الركن المقدم فيه »[1].

لقد قصدنا إلى كلمة (الـجـبـهـة) قصدًا، لأنها بدلالاتها على مقدمة ميدان القتال أصلحُ كلمةٍ فى رأينا لتصوير ضراوة الصراع الذى كتب على العربية أن تكون طرفًا فيه منذ أمد بعيد.

وفيما يلى كلمة تعرض تصوُّرَنا لكلٍّ "جبهة" من الثلاث فى خصومتها للعربية، ونعنى بها:

أ. العرب.

ب. المسلمين.

جـ. خصوم القضية العربية والإسلامية فى كل مكان.

****

(١) انظر المعجم الوسيط ص١١١ من الجزء الأول، الطبعة الثالثة.

الجبهة الأولى

العرب

أولاً: تحليل الموقف العربى وبيان خطورته:

تلك الجبهة - فيما نعتقد - أشدّ الجبهات الثلاث بأساً، وأبعدها أثرًا فى قوة العربية، وقدرتها على متابعة مسيرتها المجيدة، محتفظة بمقامها المعلوم بين اللغات الحضارية الكبيرة المعروفة فى التاريخ.

ذلك أن القوة الذاتية فى أى لغة لا تكفى - مهما بلغت - لأن تستمر فى خطواتها القيادية، أو تتابع أداء وظيفتها الإنسانية والحضارية، ما لم تحتفظ الأمة نفسها، بقدرة فكرية رائدة فى جميع المجالات، مع رغبة عميقة متوهجة، أن تكون لغتها دائمًا على ما يجب أن تكون عليه من مكانة سامية بين لغات العالمين.

إن رقى اللغة وبقاءها ينهضان على أمرين متكامِلَيْن، مُجْتمعَيْن لا ينفصلان:

أحدهما: رقى الأمة وسعيها الدؤوب أن تكون فى طليعة الأمم علمًا وثقافة ومدنية.

والآخر: حرص هذه الأمة على لغتها، واعتزازها بها، وإدراكها لضرورتها الواجبة فى صنع الحضارة؛ ولهذا لا ترقى لغة فى أمة غير راقية ولو رغبت فى ارتقاء لغتها؛ لأن ارتقاء اللغة بارتقاء أصحابها رهين !!

وكذلك لا تنتفع لغة برقى أمة، مهما كان رقيها باهرًا، لو لم يكن لدى هذه الأمة رغبة فى هذه اللغة أو حرص عليها، كما حدث فى سويسرا التى تعد مثلا للأمة الراقية، ولكنّ لغتها الوطنية ضاعت أو ذابت فى زحمة الركام اللغوى

فوق الأرض السويسرية. وكذلك المجتمع الأمريكى المعاصر جنح إلى الإنجليزية واتخذ منها لسانًا عامًا لحياته فى مختلف ميادينها، على الرغم من أن اللغة الوطنية للأرض الأمريكية هى لغة الهنود الحمر، وهم السكان الأصليون فى هذه البلاد.

ومن الحقائق الثابتة التى لا تحتمل جدلاً، أنه بغير اللغة لا تكون حضارة، بل لا تكون "أمّة" إذ لابد لكلّ أمّة من وعاء يحفظ ثمار حضارتها وينقل رأيها وفكرها إلى غيرها، وهو اللغة التى تتمايز بها الأمم، وتنسب إليها الشعوب.

ومن أجل ذلك تحرص الأمم المتقدمة – فى كل العصور – على لغاتها، وتصطنع الوسائل بعد الوسائل؛ لتعليمها ونشرها والمحافظة على وحدتها وتماسكها؛ لأنها سبيل قاصدة إلى قوة الأمة وتآلفها.

يقول الأستاذ الشيخ الإمام محمد الخضر حسين*: « والتوافق فى اللغة مما يزيد العلائق التى تؤلف الناس فى نَظْمِ الاتحاد قوة ووثوقًا، ولهذا ترى الداعى إلى الوحدة الوطنية يسعى فى تعليم لغة الوطن وتعميم نشرها حتى تكون هى اللغة الجارية فى خطاباتهم وتحريراتهم على وجه الصحة، لا يعدلون إلى التفاهم بغيرها إلا عند الحاجة، ومتى أهملت الأمة لغتها وزهدت فى تعلمها انفصمت عرى جامعتها(١) لامحالة، وتفرقوا أيدى سبأ. فإذا قام مناد يدعو أمة إلى نبذ لغتها بأن تستبدل بها لغة أخرى، فإنما يريد انقسام وحدتها وإخراجها من صبغة جنسها.

ولن تتقدم أمة فى معارج النهضة والرقى إلا بوسيلة لغتها. وعلى قدر ما

---

* أحد أئمة الثقافة والفكر والدين فى العالم العربى والإسلامى فى أوائل هذا القرن، وهو فى الوقت نفسه أحد قادة النضال ضد الاحتلال الفرنسى فى المغرب العربى، لجأ إلى مصر واستوطنها، ثم انتخبته لجنة كبار العلماء شيخًا للجامع الأزهر. انظر كتابه: دراسات فى اللغة العربية وتاريخها ص١١٩ وما بعدها.

(١) يريد اتحادها وترابطها.

تحتفظ بلغتها ترتقي في حياتها .. فمثل اللغة مع حال الأمة كالمثاقيل التى توضع فى مقابلة الموزون[1] فبحسب ما ينقص من اللغة، ينزل ما يقابلها من حال الأمة درك الشقاء؛ إذ لا يؤثر على إحساسهم فى تذكيرهم بمجد الآباء أو يهيج بعواطفهم إلى الاتحاد والأخذ بوسائل السعادة غير لغتهم الراقية. واعْتَبِرْ فى ذلك بلادَ الأندلس؛ فإن من أسباب سقوطها ونزع أيدى المسلمين من ولايتها، ضعف اللغة العربية عندهم، ومسخ صورتها بما خالطها من الكلمات والأساليب التى لا تطابق وضعها ولا تحتملها طبيعتها »[2].

والذى نريده، ونسعى إلى تقريره من كل ما تقدم: أن اللغة ـ أى لغة ـ مهما كانت قوتها الذاتية، لا يمكن أن تثبت فى طريق الارتقاء، ولا أن تحتفظ بمكانتها الحضارية، بغير "دَفْعَةٍ" من الأمة نفسها، تتمثل في اعتزاز ضرورى بلغتها، وحرصٍ أبيٍّ عليها، وشعور يقينى بأهميتها، وبقيمتها بين اللغات، مع جهود متواصلة صادقة مستنيرة فى دراستها وتعليمها.

هذا أمر ضرورى واجب؛ لا غنى عنه لشعب، يريد أن يكون له بين الشعوب كيان، ولا غنى عنه للسان يراد أن يكون له بين الألسنة مكان !

* العربية في حياة العرب:

قلنا ـ فيما تقدم ـ إن "الجبهة العربية" فى خصومة العربية، تُعَدُّ فى رأينا أكبر الجبهات أثرًا وأعظمها خطرًا. وقد اعتمدنا فى ذلك على ما هو ثابت معلوم، من أن تمادى أمة من الأمم فى خصومة لغتها، أو إهمال أمرها والرغبة عنها إلى غيرها ـ يعنى فقدان هذه اللغة لأهم ما تعتمد عليه اللغات، فى مسيرتها المنطلقة فى

---

(١) يريد أنه كلما زاد الموزون وعظم، زاد المثقال وعظم. وكلما نقص نقص وهكذا. واللغة هى المثقال الذى تقاس الأمم به أو يوزن قدرها عليه.

(٢) انظر دراسات فى اللغة العربية وتاريخها فى الموضع السابق.

آفاق الأرض، وأحقاب الزمن، نعنى بذلك "قوة الدفع" التى تنبعث "من الأمة إلى لسانها" الذى تُعْرَفُ به بين الأمم والشعوب.

غير أن تلك "القوة الدافعة" لا يمكن أن "تنبعث" من أمة ضاع منها "معنى الأمة" فنسيت ـ أو أُنْسِيَتْ ـ أن كونها "أمة" مرتبط حتما بلغة قومية تحمل ثقافتها، وتنقل فكرها وتحفظ تراثها !!

ولا من أمة تجهل ـ أو تتجاهل ـ القيمة الحضارية للغتها؛ فتهملها وتهدر حرمتها، ثم تجاهرها بالعداوة فى كل كبير من الأمور أو صغير، وفى كل عظيم من الشئون أو حقير !!.

ولا من أمة تطارد لغتها من ركن إلى ركن ومن موطن إلى موطن حتى أجاءتها بالمطاردة إلى "معاهد التخصص"؛ تسجُنها فيها، وتغلقها عليها، وليتها انفردت بهذه المعاهد فكانت لها الكلمة العليا فيها !! كلا بل زاحمتها "لغة السيادة الأعجمية"، دخلت عليها بيتها توشك أن تنتزع منها السلطان على قومها وذويها ؟!

لقد قررت هذه المعاهد العريقة ـ وهى آخر معاقل العربية فى وطنها ـ أنْ يفرض اجتياز امتحان كبير فى اللغة الإنجليزية(١) على طالب الدراسات العليا فى إجازتيها الأولى والثانية (الماجستير والدكتوراه) !

ونبادر فنقرر أنّ العناية بالإنجليزية أو غيرها من اللغات الأعجمية، أمر طيّب ومطلب لازم، لا مُشاحَّة فيه، ولا اعتراض عليه. ولكنّ الذى يحزننا بحق أن يخلو الطرف الآخر من أحد ـ أى أحد ـ تحركه الغَيْرة فى اتجاه العربيّة: لسانًا للأمة،

---

(١) هو امتحان التويفل المشهور، وهو ما تقرر فى دار العلوم فعلا ولا نعلم ما حدث فى سائر المعاهد المتخصصة.

وعلامة على الذات، وجسْرًا للحضارة، ووعاءً للتاريخ.

وفى الوقت نفسه نرى بين "أساتذة العربية" مَنْ يدعو بحماسة بالغة إلى إتقان الإنجليزية "شرطًا لازما" للبحث العربىّ والإسلامى فى "عليا" مراحله، ولا نرى أحدًا - منهم ولا من غيرهم - فى أى مكان، على أى درجة فى أى دراسة، يشترط "اتقان العربيّة" أساسًا لاعتلاء مقعد التدريس الجامعى فى أفرع المعرفة المختلفة التى يدرسها الطلاب العرب فى بلادهم "العربيّة" كالقانون والسياسة والاقتصاد، والتجارة والإعلام وغيرها ؟!

بعبارة أخرى أكثر صراحة وجراءة !

إذا كنا نطالب الباحث العربى فى العلوم العربيّة والإسلامية بهذه الدرجة العالية من إجادة الإنجليزية، فهل يمكن أن نطالب - من الجانب الآخر - بعقد امتحان جادّ فى أداء العربية (حديثًا وقراءة وكتابة) للمدرس الجامعى فى كليات التجارة والإعلام والسياسة والاقتصاد والزراعة والعلوم، والطب، والصيدلة، والهندسة، وأن يكون ذلك "شرطًا لازمًا" لتولى وظيفة التدريس فى الجامعة؟

هل يمكن ذلك؟؟!!

وأىُّ الأمْرَيْن أحقُّ بالعَزْم ؟؟؟

أن نطالب الباحث فى علوم العربية بإجادة الإنجليزية. أو أن نطالب "الأستاذ العربى" فى الجامعات العربيّة بأن يُوَقِّرَ لغته ويتعلم ضوابطها ويلتزم بها فى محاضراته وكتبه؛ أداءً لحق المسئولية الخطيرة التى احتمل أمانتها حين تبوأ مقعده فى الجامعة.

إنها منزلة عالية ووظيفة جليلة، لا يُسْمَحُ فيها - لدى أمم الحضارة جميعًا، ومنها أمة الإنجليزية حتما - بأى درجة من درجات الضعف أو الخطأ فى أداء اللغة.

فلا يوجد فى بريطانيا أو فرنسا أو ألمانيا أو إيطاليا أو أسبانيا أو الصين أو اليابان أو روسيا، ولا فى بلاد "الواق الواق" ـ طبيب ولا مهندس ولا صيدلانى ولا سياسى ولا عسكرى ولا مثقف فى أى فرع من فروع المعرفة ـ يمكن أن يجهل لغته، أو يعجز عن أدائها على وجهها طبقًا لضوابطها وقواعدها، فكيف بالمعلم فى الجامعة ؟!

نعم ! فتلك أمم توقّر "معنى" الأمة وتدرك أن لغتها هى مَجْلَى هذا "المعنى" وبرهانُه والدليلُ عليه. أما نحن فأمْرُنا "غَيْرٌ" وشأننا مختلف.

سرنا فى الطريق العكسى لمسيرة الأمم، ضاع منا "معنى" الأمّة ففرطنا فى اللغة تفريطا أثيمًا ماله فى تاريخ الحضارة من شبيه ولا نظير.

ونعود إلى السؤال الصعب ! هل يمكن أن نمنع "كرسى" الجامعة فى بلاد العرب ممن يجهل لغة العرب، كما ضيقنا منافذ الدراسة العليا أمام الطلاب العرب حين جعلنا الإنجليزية الـمُجادَةَ الـمُتْقَنَة شرطًا لا ترخُّص فيه لمنح الدرجة التى يسعون إليها فى دراستهم للعربيّة !!

هذا سؤال عسير الجواب، بل لعل الجواب عنه فى حاضر العرب الآن، مستحيل أو ضرب من المستحيل !! ذلك أن الجواب عن سؤال كهذا، يتوقف على مدى شعورنا بأنفسنا، وإحساسنا بذاتيّتِنا، وبضرورة استعادة "معنى الأمة" إلينا، وتعميقه فى داخلنا.

وحينئذ سوف ندرك أن "ضرورة" تعلم "اللغة الأخرى"، لا يعنى طَمْسَ "اللغة الأولى" ولا إهمال أمرها ولا زحزحتها عن مكانتها ولا بخسها حقّها المقدس أن يكون لها "الصدر" من حياتنا وبرامج التعليم وشئون الثقافة لدينا.

نعم !! فلغة الأمة ـ كما قلنا مرارًا ـ هى ذاتها ومظهر خصوصيّتها وبرهان تميزها. ومن أجل ذلك نرى أمم الحضارة فى كل العصور توقر لغاتها وتعتز بها،

وتغار عليها، وتسعى بالدراسة المستبصرة الجادة، إلى حمايتها، وتمكينها من أداء رسالتها ومتابعة مسيرتها، وتجاهد فى انتشارها وتوسيع رقعتها، ليكون لها دائمًا "وجود" علميٌّ وحضاريٌّ ينتشر فى أرجاء المكان ويسرى فى آماد الزمان.

هذا ما سجله التاريخ حقيقة ممتدة بين الأمم واللغات وإن الأمة التى تدرك ذلك، فتؤدّى حقّه فى لغتها، لهى - وحدها - الجديرة أن يكون لها بين الأمم مقام كريم.

ولكن العرب فى حاضرهم ـ وقد ماتت لديهم "روح العربية" وغاب عنهم الشعور بالكرامة الوطنية ـ لم يدركوا تلك الحقيقة؛ فتقهقروا بلغتهم أمام زحف أعجمى جارف، مكّنوا له بأنفسهم فتمكن وأعانوا عليه بألسنهم وأيديهم فاستطال وسيطر.

من أجل ذلك، تساءلنا فقط - مجرد تساؤل - عن إمكان فَرْض العربيّة شرطا واجبًا لتولّى وظيفة التدريس الجامعى، كما فُرضَت الانجليزية فعلا، لا تساؤلاً أو أملا . كان فَرضُها لازمًا، على طالب الدراسات العليا فى معاهد اللغة العربيّة، المتخصصة فيها والعاملة عليها.

نتساءل هذا التساؤل على استحياء، ونحن نعلم علم اليقين أنه تساؤل غير مطروح بل غير قابل للطرح فى الأمم المتحضرة التى تأبى أن تزاحم لغة أخرى ـ مهما كانت - لغتها، على أرضها فى وطنها !!

ومع ذلك، رضينا بالدنيّة وتساءلنا؛ نرجوا قومنا وأولى الأمر فينا "مماثلة المعاملة" بين لغتنا الخالدة المجيدة، ولغات أخرى، على أرضنا العربيّة، وفى بلادنا العربيّة، وفى جامعاتنا العربية ؟!

نعم !!

رضينا بالدنيّة فقَنَعْنا بأمل، وتعللنا برجاء و لم يكن في وسعنا غير الأمل والرجاء، بعد أن هَوَت بنا الريح في مكان سحيق، فتملكتنا روح خبيثة من الانهزام المخجل بلغ بنا أن نرى عندنا فريقا من علماء العربية وسدنتها المحتملين أمانتها، تغشاهم سَكْرة الانبهار بالثقافة الغربيّة والحضارة الأوروبيّة فيفرضون "الجليزية التويفل" على الباحث في العلوم العربيّة والإسلاميّة، دون أن تحرك أحدهم، غَيرةٌ على لغته، أو إحساسٌ "بذات أمته"؛ فيطالب مدرّس الجامعة في بلده العربيّ بسلامة لغته العربية، على لسانه، وفي دروسه ومحاضراته؛ بدرجة مقبولة من درجات السلامة ولو بدرجة المدارس الابتدائية القديمة في العقود الأولى من هذا القرن، يوم كانت هذه المدارس تمنح ثقافة وتعطى علمًا، وتقوّم لسانا، وتعلم شعرًا وأدبًا.

فهلّا سمعنا مناديا ينادى بالحق وينبّه عليه ؟! وإن سمعنا، فهل يكون لصوته صَدًى مجيب ؟! ما نظن ذلك قريبا؛ فنحن الآن قوم فقدوا "معنى الأمة" فأهدروا حرمة لغتهم، وأضاعوا بأنفسهم كرامة أنفسهم ! ولهذا يذهب كل نداء بالعربية كأنه صرخة في واد؛ لا يرجع منه صدًى، ولا يأتى عنه جواب ؟!!

ولقد أردنا أن نتمثل بالواقع فيما نلفت إليه، وننبّه عليه من خطورة "شعور اللامبالاة" الذى يسيطر على أكثر العرب المعاصرين تجاه لغتهم !

لأن هذا الخطر لا يقف عند حدود هذه اللغة ولا ينحصر في دائرتها، بل يتجاوزها إلى "الأمة" نفسها: يدمر فيها أوّلاً الانتماء، ثم يدمّر بعد ذلك كلَّ معانى القوة ويطفئ في داخلها جَذْوَةَ الأملِ، والحرصِ على التفوق والرغبة في التقدم، والإصرار على الاحتفاظ بمكان القيادة، فتبقى إلى نهاية الزمان مترديه فى قاع التبعية التى تؤدى غالبًا إلى "مسخ" روح الأمة، ثم "امّحاقها" في ظل باهت للآخرين.

ولعل هذا أو بعضه، هو ما يحدث بين العرب والعربية، كما يبدو في الفقرة التالية.

ثانيًا: أمثلة الخصومة العربية للعربية:

كثيرة هى تلك الأمثلة ولكنا نجتزئ منها بأكثرها انتشارًا وأشدها تأثيرًا وهى:

١. ضعف الأداء والمفهوم المغلوط للغة والثقافة.

٢. الاستعجام.

٣. المسخ اللغوى فى الحياة الاجتماعية.

٤. التعليم باللغات الأعجمية.

٥. مناهج تعليم اللغة العربية.

(١) ضعف الأداء، والمفهوم المغلوط للغة والثقافة:

نحن أمة لا تتكلم لغتها ؟![1]

إن الحديث عن مشكلة "الأداء اللغوى" - لدى جماهير الأمة العربية ـ قد صار من معاد الكلم ومكرور القول، أبدأ كثيرون فيه وأعادوا، ولكنا نشير هنا إليه؛ لأنه يمثل ركنًا مهمًا جدًّا من أركان قضية اللغة فى بلادنا ؟!.

تدل الملاحظة العابرة على أن الغالب على أكثر أبناء العربية - حتى المثقفين منهم - ضعفٌ ظاهر مخجل، فى كل الجهات أو المجالات التى تستعمل اللغة فيها أعنى:

١. القراءة.

٢. الكتابة.

٣. الكلام أو الحديث الشفهى حين المخاطبة أو الحوار.

---

(١) هذه عبارة للدكتور ناصر الدين الأسد، استهل بها كلمته البارعة عشية استقباله عضوًا فى المجمع اللغوى بالقاهرة.

فمن النادر أن نجد الآن عربيًا مثقفًا[1]، يملك ناصية لغته، ويحوز ملكتها؛ فيقدر عليها، ويستدعى أدواتها التعبيرية حين يشاء:

أى: حين يحدث أو يحادث!

حين يقرأ!

حين يكتب معبرًا عن فكرة، أو رأى، أو شعور!

ومن العجيب أن هذا الضعف المتفرد، لم ينج منه إلا من رحم ربّى؛ فاستشرى، وتفشى؛ حتى زحف على "المتخصصين" الذين عهد باللغة إليهم، ووضعت أمانتها فى أعناقهم؛ فندر أن نجد "خريجًا" جامعيًا بعد بضعة عشر عامًا من دراسة اللغة - قد سلم لسانه، أو صح بيانه؛ يمشى فى لغته على سوائها المستقيم.

وأعجب منه أن لا يثير هذا عند أولى الأمر والنهى - عاطفة الغيرة والحَمِيّة، فيمنع الطالب من الإجازة (الشهادة) أو تؤخر عنه حتى حين.

بل يستدعى شعور الإشفاق والرأفة، فيمنح الطالب الضعيف "شهادة" من شيوخه بأنه "معلم للعربية" ؟؟!! وغالبًا ما يكون ذلك - بكل أسف - تحت شعارات عاطفية، لا مكان لها، أو ينبغى أن تنحى من ميدان التعليم وبخاصة ما يتصل منه بلغة لها ما للعربية من خصوصية الارتباط بالدين.

إن مثل هذا الطالب يدخل ميدان العربية من أجل "أكل العيش" دون أن يكون معه عدَّة معلم اللغة ومقوماته؛ فيعلم لغته بغير أهلية، وبغير حب وحينئذ تغيب عن غاياته "العيشيّة" أو الوظيفية - غاية هى فوق جميع الغايات فى تعليم اللغات، وتلك هى أن يغرس فى قلوب تلاميذه - مع تعليم اللغة - مشاعر الحب والحرص، والغيرة والاعتزاز!

---

(١) نريد بذلك جميع المثقفين إلى حقول المعرفة والعلم المختلفة، مثل: الأطباء والمهندسين ورجال الاقتصاد والساسة والعسكريين والمعلمين أيضًا بكل أسف!

ثم تتداعى النتائج، فتتوالى مظاهر الضعف، ويركم بعضها فوق بعض حتى غدت "مشكلة العربية" عند العرب مشكلة تستعصى على الحل، وتتأبّى على الزوال. فيوشك إهدار اللغة، وحطم مبادئها وتجاهل ضوابطها ـ أن يكون الآن هو الأصل وهو القاعدة.

أما الصواب أو صحة الكلام وسلامة التعبير، فهو الاستثناء الذى لا يكون إلا عند "المتقعرين" أو "المتفيهقين" !!

ومن هنا لم تقف "مشكلة الأداء" فى أمة العربية عند حد شيوع الخطأ أو تمكنه من الألسنة والأقلام، بل تجاوز ذلك إلى ما هو أعمق وأخطر؛ إذ نرى أكثر المثقفين العرب(1) ـ ومنهم متخصصون(2) ـ يَخبِطون فى لغتهم خبط عشواء، ولا يخضعون فيها لقاعدة أو نظام، وهم لا يشعرون، أو يشعرون ولكنهم لا يجدون حرجًا ولا يحسون خجلا، ولا يعدون مسلكهم جهلا، بل يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

وهذا يقتضينا أن نبحث القضية التالية:

---

(1) وبينهم وزراء وكبراء يتبوأون مقاعد عالية جدًا فى سلم المسئولية.

(2) أحاجتنى الضرورة يومًا إلى تقديم طلب ما إلى إحدى إدارات التعليم بالقاهرة، فكتب الموجه الأول للغة العربية، التوقيع التالى: "إذا كانت اللوائح والقوانين تسمحان بذلك" وتثنية الضمير خطأ لا يجوز إلا بتأويل مُعْتَسَف أو تقدير متكلّف؛ لأن مرجعه جمع. لغير العاقل، فحقه الإفراد والتأنيث، وإذا خفى الأمر على الموجه الأول، فماذا يفعل المدرس الناشئ والمدرسة الناشئة؟

كما استمعت ذات ليلة إلى كلمة لأستاذ جامعى كبير ألقاها فى مجمع القاهرة اللغوى أمام حشد من أساتذة العربية وعلمائها؛ فراعنى وحزننى كثيرًا ما اشتملت عليه هذه الكلمة من أخطاء فاحشة لا تخفى على طالب متوسط النباهة؛ ألا فلله الأمر !!

اللغة والثقافة:

يتفرد العرب المعاصرون، بتجريد المفهوم العام للثقافة من اللغة؛ إذ لا يُنْكَر على من يعد مثقفًا، أن تغيب لغته العربية عن ثقافته أو تخرج من دائرتها؛ فهو لا يعبأ بها ولا يهمه أمرها، ولا يقيم وزنًا لقواعدها ولا لمؤاخذات أهلها !!

ومن المؤلم حقًّا أن تشيع هذه الظاهرة فى الأقطار العربية على نحو لا يُعرف له عند غير العرب شبيه ولا نظير؛ لأن الأمم الحضارية توقر لغاتها، وتعتز بها، ترى فيها صورة ذاتها، ولسان حضارتها، وقاعدة ثقافتها، وتدرك أنه بغير اللغة، لا يكتمل "معنى الأمة" ولا يتهيأ للثقافة أن تكون.

وما ينبغى لمثقف عند هؤلاء أن يجهل لغته، أو لا يحسن أداءها، وما ينبغى لمسئول فى أى موقع أن يعجز عن لغته بما تقتضيه ضوابطها أو نظامها العام.

ذلك ـ فيما نعلم ـ أمر مقرر عندهم؛ لا يتخاذلون عنه، ولا يترخصون فيه أما العرب فشأنهم مختلف هذا الزمان؛ إذ انفصلت القضيتان لديهم، وانفكّت الجهتان معهم؛ فالثقافة شيء ولغتهم العربية شيء آخر.

ومن أجل ذلك يشيع فى المجتمعات العربية قاطبة أن يوصف شخص ما بأنه مثقف بل واسع الثقافة "شمولى" المعرفة، على الرغم من أنه فى العربية عَيِيٌّ أعجمى لا يكاد يبين، فما ندرى كيف تكتمل الثقافة ـ فضلا عن أن تتسع ـ لدى من لا يحسن لغة قومه ولسان تاريخه وتراثه.

ولكن العرب فى العصر الأخير، يتفردون بإذاعة هذا المفهوم عن الثقافة وهو خطأ يؤدى إلى "تغييب" اللغة، أو عدم الالتفات إليها وتقدير مكانتها فى الحكم على درجة المعرفة عند فرد أو مجموعة من الأفراد.

إن الذى يجهل لغته، غير جدير أن ينسب إلى ثقافتها، أو أن يعدّ فى جماعتها بين المثقفين.

وللدكتور طه حسين كلمة قويّة فى هذا المعنى إذ قال: « إن الذى لا يقدر على لغته العربية ليس ناقص الثقافة فحسب ولكنه ناقص المروءة أو ناقص الرجولة ».

غير أن هذه الحقيقة الواضحة الراسخة، غائمة غائبة (أو مغيبة) لدى العرب جميعًا، ولهذا لا يُنْكَر أن يتكلم كبير من كبراء الثقافة على درجة كبيرة جدًّا فى سلم المسئولية، فلا يقيم لسانه ولا يضبط بيانه على بضع جمل قصيرة فى اللغة الفصحى.

ومن العجيب أن "المناخ الثقافى" فى أكثر المجتمعات العربية، يمد هؤلاء بما يجعلهم يتمادَوْن فى موقفهم المخجل من لغتهم، بل كثيرًا ما تُدَقُّ الطبول وتُحْرَقُ البخور بين أيديهم؛ طربًا وإعجابًا وبهرًا "بمنجزاتهم" الثقافية والفنية، ولو أن واحدًا من داقّى الطبول أو محرقى البخور، لفت أحد هؤلاء إلى النقص الكبير المعيب فى ثقافته بسبب الضعف الظاهر فى لغته، لتبدل الأمر غير الأمر، وكانت الصورة أقرب إلى الجمال والوقار .. ولكن ذلك لم يكن؛ بل تعالَتْ أصوات "المدّاحين" لما يسمّونه "ثقافة" عند المستعجمين؛ فبدت الصورة قاتمة شائهة دميمة !!!

تلك صورة "الحاضر الثقافى" فى أقطار العربية، وهى - فى رأينا ـ صورة زرية مخجلة، مضحكة مبكية؛ تضطرب فيها الحقائق، وتُغَلّط المفاهيم إلى حد أن تهون أنفسنا علينا؛ فنذيب "ذاتيتنا" ونمحق هويتنا، ونضيع معنى الأمة فينا؛ لأنَّ هذا المعنى الجليل لا يكون بغير لغة: نستمسك بها، ونحرص عليها باعتزاز وحب وغَيْرَة، كما فعل الأولون والآخرون !!

إذًا لقد حقَّ علينا: أن نراجع ضوابط الثقافة ودعائمها وأركانها فى بلادنا؛ فندفع باللغة العربيّة لتكون فى مقدمة هذه الدعائم والأركان ـ وأن نحبس "لقب" الثقافة أو نمنع "شرفها" من كُلِّ عاجز فى عربيّته، أو جاهل بأصولها ومبادئها؛ فلا

يقوم بها لسانه، ولا يصحُّ عليها بيانه .. وحينئذ سوف يجدّ هذا وأضْرابه فى "طلب" العربية: علمًا ودراية، ثم ملكةً ومهارة؛ إذ قد أيقنوا أن معرفتها وإتقانها والقدرة عليها، هى طريق أحدهم إلى اعتراف "الأمة" بثقافته وجدارته أن يُسْلَكَ فى سبيل المثقفين !!

نعم؛ فهذه سبيلنا إلى تصحيح مفهوم الثقافة من جهة، وإلى استرداد لغة الضاد لمكانها ومكانتها فى بنائنا الثقافىّ والحضارىّ من جهة خرى. ثم إلى تنقية الوجه العربىّ من "بثور" المَسْخ، و"غَسْله" من غبار التغرُّب والاستعجام من جهة ثالثة !!!

ولئن لم نفعل، لقد فقدنا "أهليَّة" أن نكون أمة حقيقةً بمعنى الأمة؛ لها بين الأمم مقام معلوم، ومكان كريم، ذلك أن سماحنا بإهدار اللغة يعنى أننا بأنفسنا وأيدينا وبكامل إرادتنا لا نريد أن نخطو خطوة فى إقامة بناء حضارى خاص لنا يعرف بنا ونعرف به، ينسب إلينا وننسب إليه.

لأن الحضارة ـ فيما هو مقرر معروف ـ لا تقوم إلا بلغة ولا تظهر إلا فى لغة.

تلك حقيقة مطردة ثابتة، تضرب جذورُها فى أعماق التاريخ منذ تكونت الأمم قبل مئات القرون وألوف السنين لم يشذ عن قاعدتها مثل واحد فى كل ما عرفناه من حضارات:

المصريين القدماء! .. السومريين! .. الأكديين! .. البابليين! .. الآشوريين! .. الهنود! .. الصينيين! .. اليونان! .. الرومان! .. العرب والمسلمين فى العصر الزاهى المجيد للحضارة العربية الإسلامية؟!

كل أمة من هذه الأمم، كان لها حضارة معلومة فى وقت معلوم، وكل حضارة من هاتيكم الحضارات، اتخذت من لسان أصحابها لسانًا؛ ينطق بها ويعبر

عنها، ويحفظ للتاريخ ما أخرجته من ثمرات العلوم والمعارف والفنون !!!

وهكذا يكون الإصرار على إضاعة اللغة، أو إهدار حقها فى العناية والحرص والتوقير - إصرارًا على "إضاعة" حق الأمة نفسها فى أن تكون لها حضارة خاصة بها، منسوبة إليها؛ تبقى فى ذاكرة التاريخ أثرًا لهذه الأمة وعلامة عليها فى متعاقب الأزمان ومتباعد الأوطان.

وإذا كانت "الثقافة" عنصرًا جوهريًّا فى بناء الحضارة، إن لم تكن هى الحضارة نفسها أو هى "الوجه الآخر للعملة"، فما ينبغى أن تكون ثقافة الأمة بعيدة من لغتها أو فى إطار غير إطارها، كما يبدو الآن فى الصورة القبيحة الغالبة على أكثر الأرجاء فى الأرض العربية.

****

(٢) الاستعجام:

"إقحام الكلام الأعجمى بغير ضرورة"

مظهر من مظاهر الانهزام النفسيّ، والشعور بالدونية الحضاريّة الذى يغلب اليوم على أكثر العَرَب تُجاه الغَرْب!! ونعنى به ما نراه من رغبة طاغية لدى كثير منهم أن يُقْحِموا فى كلامهم، أو كتاباتهم كلماتٍ أو عباراتٍ، أو مصطلحاتٍ أعجميّةً لا تتطلبها مناسبة ولا تقتضيها ضرورة، ولا يستدعيها مقام، وإنما هو شعور الضعف الذى سَرَى فينا واستحوذ علينا كما أشرنا إليه آنفا.

إنها ظاهرة قبيحة كريهة، اقتصرت فى أول أمرها على مجتمعات المترفين حين يتحدثون أو يتحاورون فى محافلهم وأنديتهم ومهاتفاتهم. ثم جاوزتهم إلى طوائف كثيرة فى كل مكان من أرض العرب. وأكثرهم يفرحون بهذه "المُقْحَمات أو المحشورات" الأعجميّة، ويجعلونها حِلْيةً فى الكلام، أو يحسبونها زينةً تسرّ الناظرين.

ولذلك، لا نعجب أن نرى كثيرًا من قومنا، وبعض أهل الثقافة فينا، قد سقطوا فى الفتنة، فاستَهْوَتْهُم العُجْمة، وصار "الحَشْوُ الأعجمىّ" ـ فى تقديرهم وعلى مذهبهم ـ سمةً من سمات التميّز، وعنصرًا من عناصر التفاخر والمباهاة.

على أن أقبح صور هذه الظاهرة، وأشدَّها إيلامًا، ما نراه لدى طغمة نفر من العاملين فى ميدان العربيّة، يتبوّءون مقاعد كبيرة فى مؤسسات تعليميّة أو جامعيّة، قامت ـ منذ كانت ـ على الدرس العربىّ والبحث الإسلامى. ومع ذلك وجدنا بعضهم يسيرون فى طريق المنهزمين ويتبعون سبيل المستعجمين.

كتب أحدهم[1] بحثًا في واحدة من كبريات القضايا في اللغة العربيّة. وقد أكثر من إيراد المصطلحات الأعجمية مع إمكان الاكتفاء بالعربي والاستغناء بالأعجمي في أكثر ما أورده. لكن الذى لا يمكن تفسيره ولا قبوله من مسلكه هو ما ظهر من غَلبة "نزعة الاستعجام" عليه في موضعين:

أحدهما: كتابة اللفظ العربى، بمعناه ثم تفسيره دون ضرورة بالمقابل الأعجمى، مثل: الصلاة بمعنى العبادة وبمعنى الدعاء، والدعاء بمعنى النداء ومعنى التضرّع، والفتنة بمعنى الابتلاء ومعنى الغواية. ثم يورد بعد كلّ منها مقابله الأعجمى.

فما ضرورة هذا وما الداعى إليه؟!

أما الموضع الآخر: فهو أشنع، إذ عمد إلى الكلمات العربية الأصلية فى عربيّتها لفظًا ومعنى، فكتبها بحروف الكتابة الأعجميّة، مثل: إمام Imam، مؤذّن Muezzin، ونسأل هنا بما سألنا هناك: ما ضرورة هذا وما الداعى إليه؟! أفلم يعلم أن كتابة اللغة العربية بالأحرف اللاتينية دعوة دعا بها فى أواسط هذا القرن قوم فرُدّت دعوتهم عليهم، وأنكرت منهم لخطرها وفداحة أثرها على كل ما يعتز به العرب لسانًا وقرآنًا ودينًا.

فهل نستحييها نحن الآن، فنشارك فى قافلة الزحف على العربية؟!

*** استعجام أمة:**

لقد تحول "الاستعجام" إلى ظاهرة شاملة يحرص الأفراد عليه وتسعى الأمة إليه.

---

(١) لم نذكر اسم الباحث، ولا اسم جامعته أو الهيئة التى قدم بحثه إليها؛ لأن الأسماء لا تعنينا وإنما نتحدث عن موقف عام هذا مثل واحد من أمثلة عديدة له.

أمّا الأفراد فقد سبق بيان موقفهم وتصوير حالهم.

وأمّا الأمة فإنها تمهد طريقه وتفتح أبوابه وتثبت أقدامه بوسيلتين:

إحداهما: التمكين للغات الأعجمية وزيادة "منافذها" وترسيخ قواعدها، والدعوة إليها، والحث عليها، والترغيب فيها.

الأخرى: إهمال العربية، وإهدار كرامتها، وانتهاك حرمتها بمشاركة المؤسسات الحكومية في غزوة الاستعجام حينًا، وفي إنزال اللغة العربية عن الدرجة العليا التي ينبغي أن تكون لها في بلادنا حينًا آخر.

ومن أجل ذلك آثرنا عنوان الاستعجام وجنحنا له بالدلالة الموحية العميقة لصيغته الصرفية، لأنه أدل على واقعنا وأقرب منه وأصدق تصويرًا له من أي عنوان آخر. إذ الاستعجام هو طلب العجمة، ونحن اليوم أفرادًا وأمة ـ نطلب العجمة ..

نستبق إليها، ونباهي بها، ونحرص عليها فكيف النجاة؟!

* سخرية المفارقة .. ومفارقة السخرية

عَجَمٌ في العربية .. عَرَبٌ في الأعجمية:

إنَّ مادة "ع ر ب" تدور معانيها حول البيان ودرجاته المختلفة، يقال: عَرِبَ لسانُهُ عرابةً، وما سمعت أعرب من كلامه، ولهذا وصف اللسان العربي في القرآن بالمبين، ولعلَّ ذلك هو الذي دعا سَلَفَ العرب إلى الاعتزاز بلسانهم والفخر بفصاحتهم، وسحر بلاغتهم إلى الحد الذي جعلهم يقصرون البيان عليهم، وينسبون العُجْمَة لسواهم؛ هم العرب وغيرهم الأعجمون.

ولكنَّ الصورة انقلبت الآن انقلابًا كاملاً، فقد انتهى أمر العرب في الحرص على تعلم اللغات الأعجمية والاستكثار منها، والاستباق إليها إلى إهمال العربية، وانتهاك حرمتها، وانتقاص قدرها، وعدم الجدية في تعلمها أو تعليمها، وهكذا

يتخرج فى معاهدها المتخصصة ألـوف الدارسـين جـاهلين بهـا عـاجزين عنهـا، مـع ألوف آخرين فى سائر الميادين لا يعلمون منها شيئًا ولا يريـدون. وهـؤلاء وأولئـك عرب تعلمـت طائفـة منهـم لغـات العجـم فَحَذِقَـت وأتقنت وأجـادت وأفصحـت وأبـانت، والعربيـة هـى الفصاحـة وهـى البيـان، وفـى الوقـت نفســه نراهــم وقـد استعجمت ألسنتهم. وتعثرت أقلامهم إذا ما أرادوا أن يقولوا أو يكتبوا فـى العربيـة لغة آبائهم ولسان أمتهم وحافظة تاريخهم وتراثهم.

أوليس هذا دليلاً على أنَّ قولنا آنفًا: عرب اليوم عجـم فـى العربيـة وعـرب فى الأعجمية حقيقة واقعة وليس تندر سـاخر ولا زفـرة مكلـوم ممـرور مـع أنـه فـى الأمرين ذو حظ عظيم.

ooooooooooooooo

(٣) المسخ اللغوى فى الحياة الاجتماعية:

هو ثالث أمثلة الخصومة العربية للعربية. وله عند العرب المعاصرين مجالان أو مظهران:

أحدهما: فى الحياة الخاصة للأفراد والأسر والجماعات وهو - فيما نعتقد - خاص بالمجتمع المصرى[١].

والآخر: فى الحياة العامة: فى الشوارع والطرق، والأسواق، وهوما ينتشر فى جميع المجتمعات العربية.

وكلا المجالين، أو المظهرين، يمثل زحفا جارفا غربيا أعجميا، على الحياة الاجتماعية العربية وهى آخر علامات الذاتية والخصوصية فى الأمة؛ فلا بد من كلمة تصوّر طبيعة ما أسميناه بالمسخ اللغوى وتظهر خطره، فى كل واحد من هذين المجالين وهو ما تعرضه الصحائف التالية:

* المظهر الأول:

فى مجال الأسرة المصرية خاصة (فيما نعلم) صار إطلاق الألفاظ الإنجليزية أو الفرنسية على أولى الأرحام وذوى القربى، هو الأصل وهو الأساس.

وأقبح من ذلك وأدهى وأمر، أن صار علامة على "المدنية" أو "التقدم" أو "التنوير" أو ... أو ... أو... إلخ. فى كل بيئة تحل فيها هذه "الأعجميات" محل مقابلاتها العربية؛ وذلك يعنى امتياز البيئة "المستعجمة" وأفضليّتها وأهليّتها للاستئثار - من دون سائر البيئات - بالتقدير والتوقير.

---

(١) لست أدرى ماذا يجرى فى المجتمعات العربية الأخرى؟ ولهذا اختصصت المجتمع المصرى بالتمثيل وقد عشت فى السعودية زمنًا غير قصير فلم ألحظ لهذا المسلك اللغوى المصرى وجودًا ولم أقف له على مثال، فهل هى خاصة مصرية أو ظاهرة مصرية؟ ربما.

وهكذا اختفت من أكثر البيوت المصرية ألفاظ "العم والخال، والعمة الخالة، والجدة" بدلالاتها وإيحاءاتها العربية الجميلة، وحلَّ محلَّها: "الأنكل" و"الطنط" و"التيزة أو التيتة" كما تراجعت كلمة الشكر لدى كثير من المترفين، أو المتشبهين بهم؛ إذ استبدلوا بها غالبًا: "المرسية" الفرنسية وأحيانًا: "الثانكس" الإنجليزية.

ومما يلحق بهذه القافلة(١):

كلمات الاعتذار مثل: سورى وباردون.

وكلمات الترحيب أو التحية فى اللقاء والوداع، مثل: هاللو ـ بنجور ـ بنسوار ـ باى!! باى باى!! أورفوار ...

وكلمات أخرى للمجاملة أو المواساة مثل جودلك ـ هاردلك.

ويلحق بها أيضًا ما نجده فى أسماء الثياب التى ترتديها بعض النساء؛ إذ نلحظ أن أغلبية تلك الأسماء أعجمية؛ وأكثر العرب يجرفهم التيار فتراهم يرددون هذه الأعجميات "الثيابية" دون وعى أو إدارك، فيقولون: الجيبة والبلوزة والجونلة، كما يقولون "مكياج وروج" وأبلينر، وغيرها كثير.

وكذلك أسماء الأشخاص مثل "انجى، وسالى، وهايدى".

وبعض الألقاب مثل: مس، مستر، مسز ...إلخ.

ومن هذا الوادى أيضًا قولهم: "مدام"، الذى نراه جديرًا ببيان خاص نقدمه فيما يأتى.

---

(١) هذه الكلمات جميعًا من الإضافات الجيدة الواعية للنابهين من الطلاب والطالبات بعضها من بطاقات الحوار فى المحاضرة، وبعضها من إجابات الامتحانات.

هى كلمة فرنسية، شاعت فى مصر ـ وربما فى غيرها من بلاد العرب[1] ـ ولها صور كثيرة أشهرها:

المدام ـ يا مدام

مدام فلان (مِثْلَ دَأْب الغَرْب فى نسبة المرأة إلى الرجل)

مدام فلانة (لقب للمرأة يشير إلى أنها متزوّجة أو سبق لها الزواج)

وقد فرضت هذه الكلمة نفسها بقوة، على المجتمع المصرىّ بكل طبقاته فى جميع البلاد والأحياء والمدن والقرى؛ إذْ نرى أكثر الناس ـ دونما سبب داعٍ، أو ضرورة قائمة ـ يؤثرون اللفظ الأعجمىّ، ويعرضون عما تقدمه لغتهم العربيّة من كلمات كثيرة قويّة فى التعبير عن مدلول ما استجلبوه وآثروه .. ومن ذلك !

زوج الرجل أو زوجته ـ أهله أو امرأته، وكلها جليل نبيل المعنى، ليس نابيًا؛ فينبو السمع عنه ولا ممجوجًا؛ فينفر الذوق منه، ولهذا نتساءل لماذا فسحنا لهذه الكلمة الأعجميّة وأمكنّاها منّا حتى تَمكّنتْ واسْتَمْكَنتْ فاحتلت ألسنةً وأنفسًا وعقولاً، وكان احتلالها مقيمًا لا هرب منه ولا جَلاء له ؟؟!!

---

(١) لست أدرى، إلى أىّ مدى، توجد هذه الكلمة فى سائر المجتمعات العربية، غير أنى لا أستبعد أن يكون لها انتشار قوى فى مكانين:

أحدهما: بلاد الشام (سوريا ولبنان)، والأردن وفلسطين؛ لما بينها وبين مصر من تشابه فى كثير من الظروف، وتقارب ملموس فى عدد غير قليل من العادات وبخاصة ما يتعلق بالمرأة، ملابسها وهيئتها، والألفاظ المستعملة فى الحديث عنها أو معها.

والمكان الآخر: بلاد المغرب العربى لقوة تأثير الاحتلال الفرنسى فيها.

ومن جهة أخرى، أقرر أنى سمعت هذه الكلمة قليلا فى السعودية من بعض إخواننا هناك، ولكنى أرجح تفسير ذلك بتأثر من يستعملها من السعوديين بالمجتمعات العربية التى نشرتها ومكّنتْ لها، مثل مصر: إما عن طريق المسلسلات التليفزيونية ـ وإما عن طريق مخالطة العاملين فى أرض الجزيرة العربية من هذه المجتمعات !!

لست أدرى الجواب ولكن مرارة الموقف عندنا تستدعى صورة من الخيال الساخر لتفسير سيادة "المدام" كما ساد غيرها معها أو قبلها أو بعدها؛ وتلك هى الصورة التى خيلتها المرارة.

لعلّ "المُدام" العربية - وهى بضم الميم -[1] قد تساقطت "رذاذًا" مُسْكِرًا على المَدام الفرنسيّة، فأسكرت وخدّرت وسَحَرَتْ، ثم كان لها ما كان من سلطان وتأثير وانتشار ؟!

على أنى أرى هذا الخيال ممكنا قريبًا غير بعيد؛ لأن الكلمة الأعجمية قد استهوت أكثر الناس فى وطنى؛ استحوذت عليهم وتمكنت منهم بل مدت أصابعها (لا نقول مخالبها) السّاحرة الآسرة إلى طائفة عظيمة من علماء الدراسات الإسلاميّة والعربية: فى أحاديثهم، وتناديهم، وتحاورهم. وقد كان حقّا عليهم نَصْرُ لسانهم؛ اعتزازًا بهويتهم وانتمائهم القومىّ والدينىّ؛ ليكونوا قدوة لأهليهم فى الترفّع على ذلك المسخ الكريه الذميم. ولكنهم - وهذا ما يحزننا - لم يفعلوا؛ فاحتملوا أوزارهم، وأوزارًا مع أوزارهم:

أوزارهم، فى ريادة الطريق وتمهيد السبيل وإضفاء الشرعية على "الاستعجام" !!

وأوزار غيرهم فى المتابعة والاقتداء. ومن أجل ذلك، ينبغى أن لا نعجب، أو نَأسَى ونَألَم، إذا وجدنا بسطاء العوام فى الأحياء الشعبية والفقيرة، والفلاحين فى القرى البعيدة والنجوع النائية، ينجرفون إلى "الدوّامة" فتشيع بينهم "المدام"، كما شاعت سابقاتها: الطنط والأنكل والمرسية، وغيرها من علامات المَسْخ، وأمثلة الاستعجام ؟؟!!

---

(١) المدام بالضم كلمة عربية أصيلة، ومن معانيها: الخمر.

ومن الواضح أن الأخذ أو النقل قد كان عن الإنجليزية الفرنسية معًا ليكون ذلك دليلا على أننا في تَبَعِيَّتنا، نتبع أول ناعق، ثم نسير خلف كلِّ ناعق !! ولهذا ينتمي "المسخ" عندنا إلى "لسانين" ويطلُّ علينا من نافذتين، ووراءهما من تراهم "أعيننا" سادة الدنيا و"ملوك" الأرض في هذا الزمان !!

ومما يثير الحنق ويهيج الغيظ هنا، أنّ هذه الاستعجامات "ليست أسماء مخترعات أو صناعات، أو ما لم تُنْبِتْه أرضنا و لم تعمله أيدينا، فتكون له حاجة ملحة أو ضرورة داعية، كلا بل هي شئون تافهة، وأشياء هينة غير ذات قيمة ومن اليسير أن نعبر عنها بلغتنا، ولكنه "الامتساخ" الكريه، والانمحاق الذميم.

* تحليل وبيان !!

يعرض هذا التحليل رأينا في القضية، غير أنه من اللازم لنا، بل من حق النظر الموضوعي علينا هنا، أن نلقي شعاعًا من ضوء على الأصول الدلالية لبعض الكلمات العربية المتروكة أو "المنبوذة المهجورة" فلعلنا "نلتمس" تفسيرًا مقبولا أو سببًا معقولا لانجرافٍ أو انحرافٍ غير مقبول ولا معقول؟! وليكن مثالنا في التحليل، من ألفاظ القرابة.

- ترجع كلمة العم إلى الأصل الثنائي المضعف (ع م م)،وتدور معانيه حول: الكثرة، والخير، والغطاء، والستر، ومنه العمامة.
- أما الخال فمأخوذ من الخاء والواو واللام، وهو أصل يدور على معاني: العطاء والرعاية والتعهد، وحسن القيام بالأمر.

ومنه خوله اللّه مالا، أو علمًا، أو رئاسة: أي وهبه أعطاه. وفلان خائل مالٍ، أو خال مالٍ: أي راعية ومصلحه.

وهو يخول على أهله: يرعى شئونهم.

وفى الحديث: كان رسول الله ﷺ يتخول بالموعظة أصحابه: يتعهدهم بها.

والخال: أخو الأم، وما توسمت من خير ... إلخ.

- أما الجدة: وهى التى أصابها التغيير من دون مقابلها المذكر، فتدور معانى أصلها أيضًا على الحظ، والمنزلة، والشأن والعظمة أو رفعة القدر ... إلخ.(١)

فاللفظ العربى - إذا - يشتمل على "إيحاءات" جميلة، مستمدة من دلالاته المعجمية التى استعمله العرب فيها منذ عصورهم القديمة؛ ولعلهم لحظوا هذا، أو نحوه، حين وضعوا هذه الكلمات فى تلك "الصلات"؛ إذ الشأن فى كل واحد من هؤلاء أن يكون مصدر خير وعز وفضل ومنعة، وعضاء وبر!!

على أننا هنا لا نعتسف التأويل، ولا نتكلّف التأصيل من أجل تأييد كلمة أو إظهار مزيّتها فى الاستعمال على قرينتها. ولكنّا - فقط - أردنا أن نقيم الدليل، على أنه لا تسويغ ولا تفسير مطلقًا لذلك التحول الاجتماعى المصرى العام، من الأسماء العربية النبيلة الجميلة، برشاقة صيغتها، "وتناغم" أصواتها، وتواؤم حروفها — إلى أسماء أعجمية غريبة ثقيلة، كريهة، مقحمة على مكانها، "محشورة" فى سياقها؛ فكانت نابية ممجوجة؟، أو ينبغى أن تكون كذلك!

ولو كانت هذه الكلمات "المستوردة" جميلة فى أنفسها، أو فى لغتها عند أصحابها، لما ساغ لنا أن نعتبرها كذلك لدينا؛ فتفتننا أو تلفتنا عن "كلماتنا" أو "ثمرات" لغتنا فى التعبير عن حياتنا، وصلات القربى بيننا.

---

(١) انظر الأساس والقاموس وغيرهما من المعجمات العربية فى مواد: ع م م - خ و ل — ج د د. ومن الطريف هنا أن كلمة (ستى) التى شاع استعمالها فى كل طبقات المجتمع وقتا طويلا، ولا تزال مستعملة فى بعضها حتى الآن بمعنى الجدة - لها أصل فى العربية. انظر القاموس وشرحه. ومقتضى ذلك أن تكون كلمة (ستى) أولى وأسوغ من "تيتة" أو "تيزة"؛ فلماذا رغب عنها المجتمع المصرى؟! إنها الأصداء اللازمة لحالة الانهزام والشعور بالدونية تسيطر على المجتمع فى طبقاته كافة.

ومن أجل ذلك نرى فى "حشر" هذه "الأعجميات" بين كلامنا وإقحامها في حياتنا ـ على الرغم من وفارة المقابل العربى وحلاوته ـ مظهرًا من مظاهر التخاذل والشعور بالضعف و "الدونية" بإزاء الغرب كله: "قالِه وفعالِه"، ومن مقتضى هذا أو من آثاره ـ كما تقدمت الإشارة إليه ـ أن يضعف "شعور الانتماء" ثم تزهق روح الكفاح والكدح من أجل تقدم الأمة؛ اكتفاء بما يأتيها من هنا أو يرد إليها من هناك. وتلك قضية أخرى !!

انتشار الظاهرة ودلالة هذا الانتشار:

نعنى بالظاهرة؛ هذا المسخ اللغوى الذى انتشر انتشارًا عامًّا واسعًا فى كثير من البيوت المصرية ممتدًّا إلى جميع الأقاليم[1]، وإن ذلك ليدل ـ عندنا ـ على أمرين:

أحدهما: مؤلمٌ !!

والآخر: مضحك مُبْكٍ فى وقت معًا !!

فأما "الأول المؤلم":

فهو أن يزحف هنا "الانهزام" على طليعة المثقفين؛ أولى العلم، ورواد التوجيه فى المجتمع؛ إذ ينـدر الآن أن نرى أحد هؤلاء، ينقل القضية إلى ذاته، أو يحملها إلى حياته، وربما كان هو باحثًا لغويًا متمكنًا، وكاتبا فى قضايا العربية قديرًا. ولكنه ـ وهذا شيء عجيب ـ لا يعبأ بالصلة بين عيشته أو السلوك الاجتماعى لأسرته ـ وما يراه من خطر الزحف الأعجمى على اللغة: فى ذاتها، وفى قدرتها على الانطلاق فى آفاق التعبير بخطى واسعة ثابتة، قوية واثقة، تبدأ بالتعبير عن

(١) نعيد هنا ما نبهنا عليه آنفًا، وهو أن التمثيل بمصر فى هذه الظاهرة مبنيٌّ على عدم معرفتنا بوجود أمثلة لها فى سائر المجتمعات العربية، فإن ثبت لنا غير ذلك ولو بعد حين، فسوف نرجع فيما انتهينا إليه إلى ما هو حق إن شاء الله.

مظاهر الحياة الاجتماعية وصلاتها. وتمتد إلى مجالات العلم والمعرفة، وتستوعب ثمار الحضارة التى تهفو الأمة إلى بنائها لِتُطاوِلَ به مختلف الحضارات!!

نعم! فرأيه العلمي، أو فكره النظرى شيء ــ وسلوكه اللغوى فى المجتمع شيء آخر، وشأن مختلف؟!

إنه ـ فى الأول ـ عالِمٌ أو باحث أو مفكر يبتغى حقائق العلم، ويبحث فى الفكرة المجردة؛ يسعى إلى ما يطمئن عقله عنده، ويسكن ضميره إليه. ولكنه ــ فى الثاني ـ واحد من الأمة أو جزء من المجتمع؛ فلا جُناحَ عليه أن "ينحرف" هو وذووه وخاصته، إلى ما "انحرف" سائر أبناء الأمة أو أفراد المجتمع إليه.

ومن أجل ذلك لا يستنكر هذا العالم الباحث أن تشيع فى بيئته هذه المسوخ اللفظية البغيضة، بل قد يشجع عليها، ويشارك ـ بحكم صفته الثانية ــ فى تلقين أبنائه إياها، كأن يأمرَ ابنه أو ابنته بتقبيل يد "تيتة" أو "تيزة" أو تحية "طنط فلانة" أو السلام على "أنكل علان"!!

وإنما كان هذا موقفا مؤلما؛ لأن أصحابه ــ وهم الطليعة الموجهة والقدوة الهادية ـ ينبغى أن يكونوا أول الناس، بل أَوْلاهم إدراكًا لضرورة الارتباط بالمقومات العامة للشخصية، وفقًا لقيم المجتمع ومثله وأعرافه وتقاليده ولغته. وأنه لا يُزْرى بالفرد، ولا ينقص من قدره، أن يكون صورة لوطنه؛ لأهله وعشيرته؛ لعادات مجتمعه وكلام جماعته..!!

وإنما يزرى به أقبح الزراية، أن ينسلخ من بعض ذاته فيكون مزيجًا غير متناسق ولا متآلف: فى اللغة، والثياب، والعادات، والنمط العام للحياة.

وكأن قد نَسِيَ هؤلاء "الأسوة"(١) ـ وما ينبغى لهم ــ أن التهاون فى هذه

---

(١) عنينا الجنس فأشرنا إليه بإشارة الجمع.

"الأوليات" الصغيرة، يعني اعترافا صريحا، ظاهرًا لا خفيًا، بعجز لغتهم وقصورها في جميع المجالات؛ لأن لغةً لا تقدر على الوفاء لأصحابها بحاجاتهم التعبيرية في أصغر شئون الحياة ـ لا بدّ أن تكون عن الجسيم والجليل أعجز وأقصر.

لقد كان حقًا عليهم ـ وبينهم مخلصون أولو غيرة وأولو دين ـ[1] أن يأبوا هذا، وأن يدافعوه بكل قوة.

فإذا لم يأبوا و لم يدافعوا، بل أعانوا وشجعوا، وسمحوا به مع ذويهم وفي خاصة أنفسهم، فذلك الموقف الذى نألم له أَمَضَّ الألم ونستنكره أشد الاستنكار؛ لأنه ـ كما ذكرنا آنفا ـ موقف المثل الـمُحْتَذَى والأسوة الـمُتَّبَعَة؛ فالناس من بعدهم يفعلون مثل فعلهم ويقولون مثل قولهم ثم يهتفون: "إنا وجدنا علماءنا ونبلاءنا على أمة، وإنا على آثارهم مقتدون"[2].

وأما الأمر الآخر "المضحك المبكى"!!

فهو أن يصل الاستغراب المستعجم إلى آخر مواطن الأصالة والفطرة النقية في مجتمعنا.

وهكذا تزحف "الغربية" أو التغرُّب[3] علي القرية المصرية الجميلة الصافية، الساكنة الوادعة، فيطمس الزحف الجارف معالمها ويبدل قيمها، ويلوث نقاءها، ويكدر صفاءها، حتى تغيَّر وجهها وشاه وجمالها، ثم استعجم في آخر الأمر لسانها؛ بعد أن تقنعت بقناع المدنية المستعار!!

---

(١) من هؤلاء جماعة من صفوة أصدقائي وخيرتهم علما ودينا وخلقا، نحسبهم كذلك؛ لا نزكّي على اللّه أحدًا. ولكن يبدو أنها آفة "آفتنا" جميعًا فتحيزنا بغير قصد: إلى صف المحاربين العرب للغة العرب؟!

(٢) بمثل هذا، يحاجني كثير من الناس، حين أحاورهم في المسألة.

(٣) لقد تعمدنا تجاهل كلمة الحضارة، فأسقطناها من حديثنا؛ لتدل بذلك على أنه لم ينلنا من الحضارة الغربية إلا قشرتها التافهة ومظاهرها الضارة فقط.

لقد دخل "التليفزيون والفيديو" وغيرهما من أدوات المدنية إلى القرية فزحفت معها كلمات العجمة الماسخة للذاتية، والماحقة للهوية.

وتبدلت معايير القرية وقِيَمُها؛ فسيطر الوهم الخادع على أهلها البسطاء أن أدوات المدينة ـ ولغة أهلها ـ سوف تحولهم إلى "مدنيين" لهم صفات المدنيين وحقوقهم وتميزهم. وهكذا أمكن أن تسمع الأذن فى القرية ما لا عهد لها به من الطنط والأنكل والتيزة والمرسيه، لكى تنزلق القرية إلى مهاوِ المَسْخ الذى سبقتها المدينة إليه !!

أوَ ليس مضحكا مبكيا أن نرى أو نسمع فى إحدى قُرانا عجوزًا تجاوزت الستين، أمية كاملة الأمية وهى تأمر حفيدها أن يذهب إلى "طنط" ويكلم "طنط" أو أن نرى فى القرية ونسمع فتاة صغيرة، أو غلامًا صبيًّا تقول أو يقول: مرسيه يا "طنط" (هكذا ينطقون) ؟!

لقد سمعت بأذنى ورأيت بعينى، كما سمع غيرى كثيرًا ورأى. وحين أسمع أو أرى شيئًا من ذلك، أتعجب وأستغرب، وأُدْهَش وأتحير وأتساءل ـ وكثيرًا ما يكون التساؤل من فرط العجب بصوت مسموع ؟!

كيف يكون هذا فى القرية يا قوم ؟!

إن القرية فى مجتمعنا كالبادية فى التاريخ العربى القديم؛ مثل للصفاء الاجتماعى والنقاء اللسانى.

ثم ما يلبث الدهش أن يولى، والعجب أن يزول، كما قالوا فى حِكَمهم: إذا عرف السبب بطل العجب !!

والسبب الذى لا سبب فى رأينا سواه: هو هذا الشعور "الطاغى" بالانهزام والضعف والتأخر و"الدونية" تجاه النموذج الغربى:

نَمَطَ حَيَاةٍ، وفقاعاتِ لسان !!

ولولا ذلك "الانهزام" الشعورى والتراجع النفسى، لأدركنا ـ مستنيرين ومستظلمين[1] ـ أن التعلق بهذه الأشكال السطحية، أو تلك القشور الخفيفة المتآكلة، ليس من مقومات القوة، ولا هو من مظاهر المدنية؛ لأنَّ القوة عقل، وفكر، وعمل وقدرة .. والمدنية نظم ومبادئ، تنبثق أولا وآخرًا من عقيدة الأمة وتراثها، ومما تستفيده وتتمثله من تجارب غيرها، فتكون أساسًا تبنى عليه سلوكها، وتُخْضِع له حياتها فى جميع المجالات!!

أما الأشكال والألوان والزخارف تأتى من هنا، أو تُجَبَى من هناك! وأما ذوبان الذات فى لسان غير لسان الأمة، وأسلوب فى الكلام مغاير لأسلوبها، فليس مِنَ المدنية، وليست والمدنية منه فى شيء. فإذا نسى أولو العلم ورادة الفكر هذه الحقيقة؛ فهزموا أو ضعفوا فى خاصة نفوسهم، ومع ذويهم فحُقَّ للبسطاء والكادحين؛ فى القرى النائية والأقاليم البعيدة! والمدن فى أحيائها الشعبية الفقيرة أن يكونوا أضْعَفَ! وأن يكونوا أهزَمَ!.

* المظهر الثانى (لمسخ اللغة فى الحياة الاجتماعية):

الدكاكين - المؤسسات - الملاهى

تلك طامة عامة فى كل المجتمعات العربية؛ تسير فى الطريق، فى السوق تذهب إلى أى مكان، فلا تجد إلا انسياحًا متدفقًا فى هيئة الحياة الأوروبية.

ولكى يتم هذا "الانسياح" ينبغى أن يكون تصميم البناء أوربيًّا، وكذلك التنظيم والترتيب و"التلوين" كله يجب أن يكون أوربيًّا أو أمريكيًّا، بل ينبغى

---

(١) نريد: المتعلمين والأميين. ومستظلمين مقابلة لمستنيرين: هذه تعنى الداخلين فى نور العلم، وتلك تعنى الذين يعيشون فى ظلام الجهل، وقد قصدنا إلى هذه المشاكلة لأن المناسبة تقتضى إيحاءاتها الساخرة!!

لصاحب "المؤسسة" أو الدكان[1]، إذا كان يريد لمشروعه نجاحًـا، أن يختـار لـه اسمًا أوربيًا أو يجعل الاسم مختلطًا؛ مشتركًا بين العربية والأوربيـة وإلا احتفـظ بالاسـم العربى ثم جعل تركيبه أو شكله أوربيًا (وذلك أضعف ...).

وقد انتشر هذا الأمر انتشارًا واسعًا عامًا، حتى صار ظاهرة جامحة؛ تزحـف من الأحياء "الغنية والراقية" إلى الفقيرة والشـعبية،ثـم تمتـد كالإعصـار مـن العواصـم والمدن الكبيرة، إلى الأقاليم والمدن الصغيرة حتى اقتحمت القرية؟!!

حيثما نـول، وأينمـا نسـر أو نتوجـه، نقـابل الأسمـاء الأعجمية، أوربيـة أو أمريكية واجهة لدكان، أو عنوانًا "لشركة" أو "لافتة" لمؤسسة؟!

وآسَفُ ما فى الأمر، أن الظاهرة ـ فى امتدادها الأهوج وانتشارها المحموم ـ لا تتبع قاعدة، ولا تخضع لمبدأ أو عرف أو نظام؛ بل هى "فوضى" تتيـح لكـل أحـد أن يتصرف كمـا يشـاء. ولا أحـد يتحرك، ولا أحـد يغـار علـى "شـخصية" الأمـة وذاتيتها وتميزها بين الأمم، إن لم تكن غيرة على اللغة التى تمثل قيمة ثابتة باقية فـى كيان هذه الأمة، التى يُراد لها اليوم أن تنخلـع مـن كـل مـا يظهـر خصوصيتهـا، أو يربطها بمقومات وجودها ومعالم ذاتيتها.

ومن المؤلم بحق أن يزحف "إعصار" هذه الظاهرة الفريدة على كل مكـان فى البلاد العربية دون استثناء فإذا طوفـت حولهـا، أو تجولـت فيهـا، أو تنقلـت بينها، لم تجد إلا سباقًا محمومًـا فـى اختيـار "أعجـم" الألفـاظ أعجميـة و"أجنبهـا" أجنبية؛ ليكون ذلك سمة الرقـى وعلامـة "الأوربية" وكـأن الأمـة كلهـا مغيبـة أو مخدرة تلغى بيدها وجودها، وتذيب فى غيرها ذاتها.

---

(١) الدكـان كلمـة عربيـة فصيحـة قديمـة وهـو أحـد الدكـاكين مـن دكـن المتـاع: أى نضده وصيره كالدكان. أما المؤسسة والشركة والمحل وغيرها فهى ـ فيما يبدوا ـ معان محدثـة، ولبعضهـا جـذور دلالية فى الاستعمالات القديمة. انظر المعجم الوسيط فى المواد الثلاث.

نماذج وأمثلة من الشارع المصرى:

بادئ الرأى، نقول: إن اختيار الأمثلة، لا يعنى أن ظاهرة "الاستعجام" لا توجد فى غير الشارع المصرى، ولكننا لم نتمكن من التمثيل بمجتمعات أخرى، مع إدراكنا لعموم الظاهرة، وانتشارها وامتدادها إلى كل مكان فى الوطن العربى[1] وقد جاءت النماذج أو الأمثلة، من حيَّين متباعدين فى القاهرة وحدها هما: الجيزة والهرم جنوبًا، ومصر الجديدة شرقًا؛ وذلك - فى رأينا - دليل على تعاظم الأمر، وخطورته، واتساع مداه!

أولاً: نماذج من الجيزة والهرم[2]:

١- كونكريت	٢- مودرن موتورز	٣- بلو سكاى سنتر
٤- ماكدونالدز	٥- ناجية سنتر	٦- زيروكس
٧- بيتزا هوت	٨- تيكا	٩- أوتوكولد
١٠- تسيباس[3]	١١- لابوم	١٢- مدرسة انترناشيونال

---

(١) عشت مدة طويلة فى المملكة العربية السعودية، أكثرها فى المدينة المنورة، وزرت مكة المكرمة كثيرًا وعددًا من المدن السعودية الأخرى. وقد راعنى انتشار أمثلة هذه الظاهرة الكريهة وكثرتها وبخاصة فى جدة والرياض، كما آلمنى أن يوجد عدد غير قليل منها فى مكة والمدينة - على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى التسليم - ولكنى لم أنقل نماذج أو أمثلة للظاهرة لأن فكرة الكتابة حول القضية من هذه الجهة، لم توافنى وأنا هناك.

(٢) أحضر هذه النماذج - بتكليف منى - أحد الطلاب النابهين فى دار العلوم وهو الآن معيد فى قسم النحو.

(٣) تسيباس: اسم دكان قديم ومشهور جدًّا لبيع الحلوى فى القاهرة، ويبدو أن صاحبه الأول كان يونانيًا بهذا الاسم، ولكنه الآن ملك لعربى مسلم بدليل الآيات القرآنية الكثيرة التى تزدان فروعه جميعًا بها. غير أن المالك الجديد - لحرصه الشديد على الكسب فقط - لم يشأ التغيير باسم عربى

١٣- ومبى   ١٤- سان جورج   ١٥- موتسيان

١٦- إليجانس   ١٧-توم آندجيرى   ١٨- ريدى فيش

١٩- تيوليب   ٢٠- موما   ٢١- تشايلد هوم

ومن الحى نفسه جاءت المجموعة التالية، أعجمية كاملة الأعجمية:

1. B.T.M.
2. T.C. Comp
3. Over Seas
4. 2 M

هذه أمثلة جمعها أحد طلابنا من حى الجيزة والهرم، ومن البدهى أنها لا تمثل إلا بقعة واحدة صغيرة فى الحى الكبير، فتلك حدود ما استطاع طالب واحد أن يصل إليه فى "النطاق المحدود" الذى يعيش فيه. ولو جندنا فرقة من الطلاب والباحثين، لكان "الحصيد" أكثر وأشمل، وأعجب وأغرب!!

أما الحى الثانى فهو مصر الجديدة[1]:

وهو يمثل مع الحى المتقدم - طرفين متنائيين متقابلين من أطراف القاهرة الكبرى، وذلك دليل قوى آخر على أن ظاهرة الاستعجام توشك أن تغطى الأرض العربية كلها لتخفى معالم عروبتها، وتمزق خيوط أصالتها!!

على أننا لم نَتَعَمَّدْ هذا الاختيار للحيين – و لم نسع إليه، بل جاء اتفاقًا: محض اتفاق، أعان عليه ما بينهما وبين كاتب هذه السطور من ارتباط: فالأول مكان العمل، والآخر مكان السكن.

=

أو إسلامى، لأن قضية اللغة وما تمثله من معان ليست قضيته ولا هى من شأنه.

(١) جمع أمثلة هذا الحى بعض الشباب الذين نلقاهم فى المسجد.

وها هى ذى نماذجنا المختارة، من مصر الجديدة فى إحدى "رقاعها"[1]:

١- شركة توب للاليكترونيات
٢- كونكريت
٣- رامبو سرفيس
٤- لا بالما
٥- خردوات مادونا
٦- ماريان
٧- فيوتشر للإنتاج الفنى
٨- إس. فور. أن.
٩- شركة جولد ستار
١٠- أوش ميوزيك
١١- فور أم للكمبيوتر
١٢- ناين إم
١٣- جنرال اكسمبورت
١٤- إس آند إم
١٥- سمارت هاوس
١٦- فايف ستارز
١٧- لوجين
١٨- ساندى
١٩- جى. جى.
٢٠- تيك آواى
٢١- نيو مان
٢٢- ريتش مان
٢٣- بيدروس
٢٤- ميت لاند
٢٥- ميلكو سويت
٢٦- لاروزا
٢٧- جيرل شوب
٢٨- كنتاكى فرايد تشيكن
٢٩- ترى واى
٣٠- فوتو كالار
٣١- شولاند
٣٢- توت لابيدوس
٣٣- ثرى براذرز
٣٤- هابى فارم

(١) أغلب هذه النماذج من ميدان "روكسى" المشهور بمصر الجديدة، وأعتذر إلى اللغة العربية وأحراسها المخلصين؛ لأنى لا أعرف لهذا الميدان بدلا عربيا من اسمه الأعجمى!!

٣٥- ديبكو

٣٦- ميرا سنتر

٣٧- هوم ماد كاك

٣٨- سمر آند وينتر

٣٩- كالا بالا ؟!

٤٠- سويت سنتر

٤١- بيبى هوم

٤٢- ريمونلس

٤٣- بيتزا هوت

٤٤- هيليوبوليس

٤٥- ستاليت

٤٦- بيتزا إن

وأسماء أخرى سكت عنها: إما لأن الناقلين لم يحسنوا كتابتها. وإما لأنى لم أرَ لإضافتها قيمة ولا جدوى.

وهذه الأسماء - كسابقاتها - أسماء لكل شيء يتاجر فيه أو "يتفرج" عليه: مطاعم، دكاكين ملابس وأقمشة وأحذية وحلوى وتصوير وبيع أشرطة فيديو وأغان[1] وتدخل الملاهى والأندية فى هذه الدائرة.

على أن هناك ثلاثة أسماء رأيتها فى مصر الجديدة أيضًا مع رابع فى منطقة الأميرية لا مناص من الوقوف عندها والتعقيب عليها؛ لما تحمله - فى رأينا - من دلالة خاصة ترتبط أوثق ارتباط بما نحن فيه:

وتلك هى:

١. بتروحاس.

٢. بتروجيت.

٣. بسكو مصر

٤. السلام شوبنج سنتر.

---

(١) أشرطة القرآن الكريم والمحاضرات الدينية تباع غالبًا على أبواب المساجد أو فى أماكن أخرى ومن غير الممكن أن تباع فى مثل هذه الدكاكين.

أما الثلاثة الأولى فهى - كما أعلم - لمؤسسات حكومية أى أنها "تمثل الأمة" فكان حقًّا عليها أن تشارك فى حماية شخصيَّتِها والمحافظة على "ذاتيتها" و"انتمائها"؟!

فإذا لم تستطع أن تمنع غيرها فلا أقل من أن تمنع نفسها. ولكنها لم تفعل، بل سارت فى الطريق المضاد، فكانت - بحكم موقعها ونفوذها، "ورسميتها" - رائدة قائدة فى "غزوة الاستعجام" التى اجتاحت أكثر مظاهر "العربية" فى المجتمع المصرى والعربى.

وأما الثالث فهو مكان أو "شركة" لبيع الملابس الخاصة بالنساء المحجبات كما هو معلن فى بقية الاسم: السلام شوبنج سنتر لملابس المحجبات ..

ومعنى هذا أنه لوّن هدفه التجارى بلون إسلامى، أو لنقل: غطاء بقشرة إسلامية. ولا يعنينا من صدق الهدف أو سلامة الغاية إلا ما كان ينبغى له أو يقتضيه من "وجه عربى" يتمثل فى اسم عربى خالص لهذه الشركة أو المؤسسة التى اتخذت من "الغرض الإسلامى" قاعدة لعملها التجارى. لكن ذلك لم يحدث؛ لأن أصحاب الدكان ليسوا إلا كغيرهم فى طول البلاد وعرضها؛ لا يعنيهم شىء إلا أن يضمنوا الربح، ويستوثقوا من المغنم. أما اللغة وقضيتها وما ترمز له أو تدل عليه، فليست غاية لهم ولا شأنًا من شئونهم.

هذا ما رأيناه فى طرفين من المدينة المصرية العظمى. فماذا ينتظرنا فى وسطها وأطرافها الأخرى؟!

وماذا يمكن أن يكون فى بقية المدن والقرى(١)!!

---

(١) لم تسلم الأقاليم الصغيرة والقرى من هذه الآفة: ففى ذاكرتى الآن - وأنا أكتب - اسمان أعجميان من بلدى وهو مدينة صغيرة فى محافظة الدقهلية: "سمر لاند" اسما لدكان، وهابى لاند اسما لحديقة وملاعب للأطفال.

إنها ظاهرة عامة، بل آفة متفشية عمت بها البلوى وانقلب "مفهوم" التقدم؛ ذلك أن تصور اقتران هذا "الاستعجام" الاجتماعى والاقتصادى بالتقدم أو حسبانه علامة على المدنية - ما هو إلا صورة موغلة فى الغفلة، ممعنة فى التخلف؛ لأن التقدم ليس أشكالاً ولا ألوانًا، ولا أسماء أعجمية غربية أو شرقية، نتلهف عليها، ونستبق إليها لتُزْهِقَ روحَنا، وتذيب ذاتنا وتمسخ كياننا. وإنما التقدم حقا - كما هو ثابت مقرر معلوم - فكر وعلم وعمل.

كما أن الربح ونجاح العمل أو النشاط التجارى يقوم على عناصر ليس للاسم أو العنوان صلة بها، وسوف يتدفق الربح ويتحقق النجاح مهما كان الاسم عربيًا إسلاميًا، أو اوربيًا أعجميًا؛ إذا تكاملت العناصر المختلفة - ومنها التوفيق والرزق - لهذا النجاح.

ولن يصنع الاسم الأعجمى ربحًا.

ولن يمنع الاسم العربى نجاحًا.

وهناك فى الواقع عشرات الأمثلة لدكاكين أو شركات استمسك أصحابها بالروح العربية الإسلامية، وكانت أسماؤهم علامة على روحهم وآية على متوجههم، ومع ذلك حققوا نجاحًا فائقًا. ومن أوضح الأمثلة على ذلك مجموعة "التوحيد والنور" التى تنتشر الآن بتميز ظاهر، ورواج باهر فى أكثر وأهم أحياء القاهرة !!

والأمر - من قبل ومن بعد - يرجع إلى الرغبة والإرادة؛ والذى يدل الواقع عليه، وتشير قرينة الحال إليه. أنَّ أكثر العرب لا يريدون العربية، ولا يعبأون بما تمثله من قيمة جليلة فى وجودهم. بل إن هذه الفكرة لا ترد عليهم مطلقًا. وإنما يريدون "الأوربيّة والأمريكية" أشكالاً وزخارف وألوانًا ولهذا نرى ما نراه من هذا الاندفاع المحموم والانزلاق الطائش نحو "الاستغراب" النفسى والروحى وهو الذى أدّى إلى ذلك الاستعجام اللغوى الممسوخ.

****

(٤) التعليم باللغات الأعجمية:

بين يدى البيان بيان نبادر فيه إلى تقرير أنّا نطالب بتعلم اللغات، إلى آخر مدى يمكن أن ننتهى إليه، بل نرى ذلك مطلبًا ضروريًا؛ حضاريًا، وعلميًّا، وإسلاميًا ؟!

ولكن تعلم اللغات يغاير ما يجرى الآن فوق الأرض العربية الإسلامية، فما يجرى ليس إلا محاولات مختلفة البواعث، متعددة الغايات، ترمى إلى "قهر العربية"، ومطاردتها من موقع إلى موقع، حتى أجيئت فى حياة العرب المسلمين إلى ركن معتم غير مضيئ بعيد غير قريب، وآية ذلك "قصة" التعليم باللغات الأعجمية التى نشير الآن إلى بعض من وقائعها وأطراف من أحداثها.

منشأ القضية يرجع إلى قوى الاحتلال البغيض يوم فرض لغته وأكرهنا عليها؛ لما يعلمه من أنها وسيلته إلى غايته وأداته فى تحقيق مآربه، وقاعدته فى استبقاء نفوذه والتمكين لسلطانه بغير جيش ولا سلاح ولا معسكرات؛ لأن احتلال الجنود احتلال موقوت مؤجل، ما يلبث ـ وإن طال عليه الأمد ـ أن يزول.

ولكن القوى الاحتلالية فى هذا العالم تريده احتلالاً يدوم؛ فلا يغيب عنهم ثمره، ولا ينقطع فى الشعوب أثره، ولا يكلفهم مالاً أو رجالاً، ولا قواعد، ولا "حاميات"!

ذلك هو الاحتلال العقلى[1] المهيمن، والنفوذ الفكرى المسيطر، وكانت

---

(١) إنما آثرنا لفظ الاحتلال هنا؛ لأنه الواقع فينا والحاقُ علينا، أما الغزو فى قول من يقول: الغزو الفكرى، فقد تجاوزه معنا أصحابنا الأوربيون منذ عهد بعيد؛ لأن الغزو فى رأينا ما هو إلا محاولة اقتحام للغازى قد تنجح وقد تبوء بالخسران إذا قوبلت بمقاومة عنيدة، وذلك مغاير للواقع فى البلاد العربية التى تم خضوعها للاحتلال العقلى والسيطرة الفكرية من قبل الغرب.

لغتهم، هى قاعدة هذا الاحتلال وأساسه وضمان استمراره ودوام تأثيره، ولقد بلغوا مأملهم، وأدركوا غايتهم، بل تجاوزوا المأمل، وتعدّوا حدود الغاية، فـتركوا الأرض، وحلوا عن الديار منذ نصف قرن تقريبًا، ولكن سلطانهم اليوم علينا أكبر، ونفوذهم فينا أمكن وأحكم؛ إذ صاروا بثقافتهم وحضارتهم، هم المثل المنشود والأمل المُرْتَجَى؛ لأنّ الصلة المحكمة بين الفكر واللغة تفرض ذلك وتؤدى إليه؛ فالإعجاب باللغة يعنى حتمًا الإعجاب بفكر أصحابها وثقافتهم. وهو ما نرى آثاره، ونحس أصداءه فى "الأدبيات" العربية التى تبشر "بالنموذج" الغربى، وتروج له، وتدعو إليه!!

على أنه لا ضرر ولا ضير فى أن تعجب أمة بفكر أمة أخرى، فتنقله وتفيد منه؛ بما تغذوا به فكرها، وبما تضيف من ثقافته إلى ثقافتها. لكن هذا لا يتحقق إلا إذا كانت هذه الأمة صاحبة فكر معروف ينسب إليها بلغتها التى تستمسك بها وتحرص عليها، وإلا كان إبعادًا فى التبعية الفكرية، وإيغالاً فى الخضوع العقلى. وهو الواقع الذى نرفضه الآن، ونأباه أشد الإباء، مع إدراكنا صعوبة موقفنا الذى يجعلنا ضد تيار جارف شامل يستغرق طبقات الأمة، يستقصى جميع درجاتها على سلم المسئولية. وكل يرفع شعار:

"الإنجليزية لغة العصر"

لقد أعدت صحيفة الأهرام - وهى كبرى الصحف العربية - سلسلة من التحقيقات القوية حول مشكلة التعليم، فى طائفة كبيرة من جوانب هذه المشكلة. وكان منها "قضية" فرض اللغة الإنجليزية على السنوات الأولى من المرحلة الابتدائية، وهو الأمر الذى أثار مخاوف كثيرة لأن تلميذ هذه المرحلة ما يزال طفلاً لم يستقم لسانه على لغته القومية بعد، وتعلم الطفل لغة غير لغته، مخالف لما هو مقرَّر وثابت فى المبادئ التربوية والتعليمية والحضارية لأن تعلُّم أى لغة ينبغى أن يتأخر إلى ما بعد

اكتمال النضج فى شخصية التلميذ، بإتقانه لغته واستيعابه لما يمكنه من ثقافتها وحضارتها حتى يكون تعلم اللغة الأخرى إضافة مفيدة فى تنمية عقله، وإثراء معارفه، ثم تقوية شخصيته.

وهذا - فيما نعلم - هو ما يحدث فى الأمم المتحضرة من حولنا، فلا يسمح بتعلم اللغات إلا فى المراحل الكبيرة الناضجة من أعمار التلاميذ، بل ربما تأخرت إلى مرحلة الدراسات العليا، حيث يتكامل نضج الطالب فيصير قادرًا على الانتخاب والانتقاء، ويحتفظ بشخصيته الوطنية وانتمائه القومى.

غير أن الذى يحدث عندنا فى مصر - وربما فى غيرها من بلاد العرب - شىءٌ مغاير؛ "مخالفةٌ فادحة لقواعد المرور" فى طريق الحضارة، إنه « السَّيْرُ فى عكس الاتجاه »(١) !!! خطواتٌ حثيثة، كثيرة منوعة تلتقى - بقصد أو بغير قصد - على غاية واحدة، هى قَهْرُ العربية، أو قَمْعُها، أو كَمْشُها وتضييق الخناق عليها، وكان فرض الإنجليزية على أولى مراحل التعليم مظهرًا لذلك أو علامة عليه مع مظاهر أو علامات أخرى كلها مخالف لما يجرى لدى الأمم المتحضرة فى "سياستها" التعليمية الخاصة بتعلم اللغات الأجنبية.

وقد التفت المحقق البارع إلى هذه القضية فوجه سؤالاً ذكيًّا إلى المسئول الأول عن التعليم فى مصر وهى بلد عربى أوّلاً وآخرًا، كان - ولا يزال - قاعدة من أهم قواعد المحافظة على التراث العربى والإسلامى. وقد كان المتوقع أن يكون جوابه - وهو أكبر المسئولين فى جهاز التعليم المصرى - بما يطمئن قلوب الخائفين على مصير العربية وثقافتها بأن يقول مثلاً: إن العربية هى الأساس، وهى قاعدة حضارتنا ولسان ثقافتنا، ولكن تعلُّم الإنجليزية والعناية بها ضرورة عصرية لازمة نلجأ إليها دون مساس بقيمة العربية ومنزلتها السامية فى حياتنا.

---

(١) اقتباس من لغة "المرور".

هذا ما توقعناه من المسئول الأول عن التعليم فى بلادنا، ولكنه لم يفعل، بل أجاب قائلاً:

"الإنجليزية لغة العصر، وقد تأخرنا كثيرًا فى هذا القرار"

وهذا جواب غريب وتعليل غير مقبول لقرار غير صحيح. ولكنّها موجة عالية طاغية، تجرف فى مدّها العاتى كل شىء ويخفت أمام صوتها الصاخب كل صوت؛ فانزلقت الأمّة إلى "دوّامة" الانهزام النفسىّ، والتقهقر الحضارىّ، وتجاوزت الإنجليزية حدود اللغة ينبغى تعلمها والعناية بها، أو الحرصُ عليها، ثم صارت "عقيدة مُعْتَنَقَة وسنّة مُتّبعة"؛ يُدْعَى إليها، ويُجادَل عنها، بل يُقْهَرُ عليها، حين تصدر "قرارات الإنجليزيّة"(١) مصحوبة بسلطان الإكراه وسطوة الإجبار؛ لأن أولى الأمر و"صُنّاع القرار" على رأس الداعين، وفى طليعة المجادلين، وبين أيديهم دائمًا "شعارٌ جاهز" يُرْهبون به أنصار العربية وأصحابها إن بقى لها أصحابٌ أو أنصار؛ وذلك قولهم:

الإنجليزية لغة عالمية

الإنجليزية لغة العصر

أمّا "ذاتيّة" الأمة، وخصوصيّتها العربيّة، وصفتها القوميّة. وضرورة اللغة

---

(١) نعنى بها القرارات التالية:

١.قرار تدريس الإنجليزية فى المرحلة الابتدائية.

٢.قرار إنشاء مدارس لغات حكوميّة.

٣.قرار إنشاء أقسام الدارسة بالإنجليزية فى كليات التجارة والحقوق (من يدرى لعل البقية تأتى؟!).

٤.فكرة إنشاء جامعات إنجليزية وفرنسية وألمانية لاستيعاب مدارس اللغات.

هذا وقد نسبنا "القرارات" إلى الإنجليزيّة؛ لأنها الأقوى والأَنْفَذُ فى بلادنا على الرغم من مشاركة الفرنسية لها فى مواقع كثيرة، وكذلك الألمانيّة ولكن بدرجة ضعيفة.

لهذا كله.. فتلك - عندهم - قضيّة "بالية" لفكرة "تاريخية" غير واقعية؛ لا يعبأون بها، ولا ينظرون إليها ولا يقيمون لها وزنًا !!

وهكذا أصبحت هذه اللغة الأعجمية عقيدة ثقافية وحضارية سرت فى أمة العربيّة، ثم تغلغلت وتمكنت، فتعدّت الحدود القائمة لمواقعها المؤثّرة الكثيرة المنبثّة فى أرجاء الأرض العربيّة؛ لأن العرب لم يبرحوا عليها عاكفين، يَسْعَوْنَ - من تلقاء أنفسهم[1] - إلى توسيع رقعتها، وإعلاء مكانتها على حساب لغتهم فى جميع الأحوال.

ومن أجل ذلك، أنشئت أقسام إنجليزيّة جديدة فى معاهد وكليات تقوم - منذ كانت - على العربيّة وحدها دون خلل فى العمل أو نقص فى الكفاءة، ولكن قُضى الأمر "فصدر القرار" وأنشئت هذه الأقسام؛ لتزيد الدعوة إلى ترك العربيّة فى بعض الميادين العلميّة - قوة وثباتًا ونفاذًا، ولتكون مثلاً آخر من أمثلة الاتجاه المندفع إلى "الأوربيّة أو الغربيّة" فى بلادنا؛ ولذلك نعرض لهذه الأقسام أو نشير إليها فى ضمْن المسائل التالية.

(أ) القسم الإنجليزى فى كلية التجارة:

والسؤال الآن: لماذا هذا القسم؟!

إن كلية التجارة - فيما نعلم - تؤدى وظيفتها العلمية العملية بكفاءة كاملة عشرات السنين منذ أنشئت إلى اليوم. وتخرج فيها مئات من الأكفاء النابهين فى

---

(1) نشير بهذه العبارة إلى أن قومنا اليوم يقومون بالعمل خير قيام؛ فكفَّروا الإنجليز مؤنة التدخل أو القهر الذى فعلوه بالأمس، حين جاءوا محتلين غاصبين ثم فرضوا لغتهم وأكرهونا عليها، وأنشأوا "مدارس" لها خاصة متميِّزة. لأنهم كانوا ينظرون إلى المستقبل البعيد جدًّا؛ ويعلمون ما غاب عنّا عِلْمُه أو خَفِىَ علينا أمْرُه، وهو أن اللغة هى القاعدة الباقية للاحتلال المقيم.
لقد أردنا بهذه العبارة أن نقول: إن اليوم ثمرة الأمس، أو: إن أساس الأمس هو بناء اليوم "فاعتبروا يا أولى الأبصار" !!

بمجالات الاقتصاد وشئون المال وغيرها مما يتعلق بالدراسة فـي هـذه الكليـة، وكـانت تؤدى هذه الوظيفة باللغة العربية، فما اشتكى طالب وما ضاق أستاذ فلماذا إذًا هـذا القسـم؟!

إن المجامع اللغوية وجمعيات التعريب فى أنحاء الوطن ترفع أصواتها المخلصـة تحذر من الاستعجام العلمى وتنبه إلى خطر التمادى فيه وتجاهد ببحوثهـا ومؤتمراتهـا وندواتها من أجل قضية العربية وتنطلق فى جهادها المجيد من قاعدة أن عودة العربية إلى مكانها الذى أخرجت منه فى معاهد العلم، هو طريـق الأمـة كلهـا إلى استعادة وجودها ومكانتها بين الأمم.

إنى أفهم أن تتضاعف العنايـة باللغـة الإنجليزيـة بـأن يفـرض علـى الطـلاب درجة عالية لابد أن يصلوا إليها فى أدائهم إياها ومعرفتهـم بهـا، لكنـى لا أفهـم أن تخرج العربية من قسم كامل لتدخل الإنجليزية مكانها محاطـة ببريق لامـع يزيـد مـن سلطانها وسيطرتها.

وليـس المقبـول هنـا أيضًـا أن يقـال إنهـا لغـة العصـر أو لغـة عالميـة أو لغـة المستقبل؛ لأن ذلك يعنى الارتباط النفسى بها والإقبال عليها، وبنفس الدرجة يعنـى الانفصال من العربية والإعراض عنها فماذا نريـد وإلام نسـير؟! أنريـد تكويـن جيـل تقطعت الأسباب بينه وبين أصوله الوطنية والقومية والدينية؟!

أم نريد إحداث فجوات فى جسد المجتمع، بالطبقية الجديدة التى تندفع الآن إليه، بوضع علامات التميز والتفوق الوظيفى والاجتماعى فى نهاية الطريق المرسـوم لهذه الأقسام الأعجمية المنشأة ـ فيما يبدو ـ لأولى القدرة واليسار وحدهم؟!

إن القضية هنا ليست قضية اللغة فى ذاتها، وإنما هى قضية الأمة، أن تكـون أمة لها خصوصيتها الحضارية أو لا تكون، فإذا أرادت الأولى فلا غنى لها عـن لغتهـا آيةً لهذه الخصوصية ودليلاً عليهـا، وإذا لقـد حقّ علـى الأمـة أن تصطنـع الأسـباب والوسائل التى تعين اللغة على أداء وظيفتها لغة للعلم ولغة للحياة.

ونعود إلى سؤال الاستهلال.

لماذا هذا القسم الأعجمي(1) الانجليزى فى كلية التجارة ؟

وما الفائدة التى تعود منه على "الأمة" ؟!

أهى فائدة علمية، تؤدى إلى معرفة أوسع وأشمل بعلوم الاقتصاد والمحاسبة، وشئون المال والإدارة، وغيرها مما يدرس فى هذه الكلية ؟!

أم هى فائدة "لغويّة" تنتهى إلى زيادة المعرفة بالإنجليزيّة والتمكُّن منها، ثم التمكين لها ؟!

أما الأولى - وهى المتعلقة بالعلم - فالواقع ونفس الأمر أنها لا تتحقق بالصورة المنشودة، وذلك منطقىٌّ وبدهى؛ لأن الطالب يتكلف جهدًا غير قليل فى فَهْم اللغة، قبل أن يتمكن من فهم الفكرة فضلا عن استيعابها وتمثل عناصرها .. وقد ذكر لى طالب "متفوّق" فى هذا القسم(2) أن المادّة العلميّة التى يحصلها الطلاب فى قسمهم، أقل وأضعف مما يحصله الطلاب فى القسم العربىّ من الكلية نفسها.

وكلام هذا الطالب "حقيقة" أكّدها طلاب كثيرٌ فى كلية الطب وغيرها من الكليات التى تدرس بالإنجليزية، وتتأبّى على التعريب وكذلك أكّدها فريق كبير من أساتذة العلوم المدروسة باللغة العربيّة. فى بحوث كثيرة عميقة وجادّة، ومؤتمرات متعدّدة للمجمع اللغوى والجمعية المصريّة لتعريب العلوم، وغيرهما من المؤسسات

---

(1) الوصف: بالأعجمىّ هنا مقصود بذاته؛ لمعنيين فى يقين كاتب "الصحائف":

-أحدهما: التعبير عن تميُّز العربيّة: فى الواقع، وفى الشعور العربىّ الأصيل.

-والآخر: تحقيق نوع من "تنفيس الغيظ" لدى عربىّ محبّ للّسان المبين، فخور به، وقد ساءه سقوط قومه فى "فتنة" الاستغراب والاستعجام.

(2) كلية التجارة بجامعة المنصورة.

العلميّة العربيّة التى تبحث قضيّة اللغة وأحوالها، فى عصرنا العربى "الأخير"[١] ؟!

وحسبنا هنا أن نشير إلى ما قاله واحد من أساتذة العلوم التجريبية، كبيرٌ ثقة خبير وهو الأستاذ الدكتور عبد الحافظ حلمى[٢] فى رسالته الجميلة إلى الأستاذ فهمى هويدى فى سلسلته البارعة التى تصدّى فيها لقضيّة "الأمة واللغة"، قال: « لقد ثبت عندى فيما يشبه التجربة العلمية المقصودة أنه عندما دَرّست مقررًا جامعيًّا معينًا لجماعتين من الطلاب متكافئتين على وجه العموم، تلقته إحداهما بالعربية وتلقته الأخرى بالإنجليزية، كانت حصيلة طلاب المجموعة الأولى أكبر وفهمهم للموضوع أتم وأعمق فى وقت أقصر، وبجهد أقل »[٣].

وهكذا تبين لنا من "واقع" الطلاب، وتقرير العلماء الثقات، والخبراء الكبار أن الفائدة العلمية معدومة أو ضئيلة؛ فعلام إذًا إنفاق المال وتبديد الجهد، وزيادة منافذ "الطبقيّة" التى تؤدى حتمًا إلى آثار وخيمة فى تماسك البناء الاجتماعىّ لأمّة كما أشرنا إليه آنفًا؟!

لقد كان حقًّا على الذين أنشأوا هذه الأقسام "الأعجميّة" أن يراجعوا أنفسهم، ويستفتوا ضمائرهم؛ لأنهم أمناء على ما تحت أيديهم من مسئولية العلم والتعليم فى البلاد .. وإذًا لقد حقّ عليهم - بادئَ بَدْءٍ - أن يقوموا "بدراسة جَدْوَى"

---

(١) لعلى أخشى أن يكون هذا العصر آخر عصور العرب؛ لأن الظواهر والوقائع والمقدمات تبشر بهذا فى أمة تنسلخ بقوة من كل مقوّماتها الذاتية. ولكنى أعلم علم اليقين أنه ليس آخر عصور العربيّة؛ لأنها تسْرى فى الزمان - مع القرآن - إلى نهاية الزمان!!

(٢) رئيس الجمعية المصريّة لتعريب العلوم، وعميد كلية العلوم بجامعة عين شمس (سابقًا)، وعضو من أبرز أعضاء المجمع اللغوى بالقاهرة. وهو فى طليعة المؤمنين بضرورة "التعريب" وأن تكون اللغة العربيّة هى لغة العلم والتعليم فى جميع مراحله؛ لأن ذلك هو السبيل إلى تحقيق ذات الأمّة وتقرير "خصوصيّتها" بين الأمم.

(٣) الأهرام: مقال الأستاذ فهمى هويدى: الثلاثاء ٢١/ ٩/ ١٩٩٩.

هذا القسم وأمثاله قبل أن يفكروا فى إنشائه وفَرْضه "أمرًا واقعًا" على الأمة كلها لمجرد أنه يحقق فوائد محدودة لفئة قليلة جدًّا من فئات هذه الأمة. ولا شك أن إنشاءه قد تمّ بأموال الأمة لا بأموال تلك الفئة المميّزة.

لم يبق إذًا إلا فائدة اللغة؟

فهل من الرشد ـ ولا نقول من العدل أو مما يرضى عنه الضمير، وأمانة المسئولية ـ أن نعمد إلى كلية متخصّصة، لها علومها ودراساتها الخاصّة ـ وكلها بالعربية ـ فننشئ بها أو نضيف إليها قسما جامعيا كاملا، غايته تعليم اللغة أو زيادة المعرفة بها فحسب ؟!!!

كيف، وفى طول البلاد وعرضها أقسامٌ جامعية، ومدارس كثيرة مميّزة ذات بريق لتعليم اللغات المختلفة (إلا العربيّة طبعًا)؟!

على أن تحسُّن اللغة أو ارتفاع درجتها "غاية" لم تدرك فى هذه الأقسام الأعجمية الخاصة، ولا فى الكليات التى تدرس علومها كلها بغير العربية، كما ثبت لدى طائفة كبيرة من العلماء، وأقرّه جمع غير قليل من أساتذة هذه العلوم أنفسهم[1].

ومع ذلك أنشئ القسم الإنجليزى فى كلية التجارة، ثم لحق به نظيرٌ له فى كلية الحقوق مع آخر فرنسىّ فلماذا ؟!

أهى رغبة فى إعلاء شأن اللغات الأعجمية عندنا ورفع ذكرها بيننا؟

أم هو إصرارٌ على "مطاردة" العربية حتى تموت أو تتوارى؟! سواء أكان ذاك أم هذا، فإن إنشاء هذه الأقسام فى رأينا ـ عَبَثٌ بمقدّرات الأمة وعُدْوانٌ على حقّها المقدّس فى أن تحتفظ بخصوصيّتها العربيّة التى تمتاز بها من سائر الأمم والشعوب.

---

(١) ارجع إلى ما قاله الأستاذ عبد الحافظ حلمى فى المرجع السابق.

(ب) الجامعات الانجليزيّة والفرنسية الألمانية:

جاء فى صحيفة الأهرام يوم ١٩٩٩/٨/٩ "أنَّ الحكومة تدرس حاليًا إنشاء ثلاث جامعات نوعية جديدة: الأولى مصرية - فرنسية وتقبل الحاصلين على الثانوية العامة من خريجى المدارس الفرنسية، والثانية مصرية - ألمانية وتقبل أيضًا خريجى الثانوية العامة من المدارس الألمانية، والثالثة مصرية - بريطانية وتقبل خريجى المدارس الثانوية الإنجليزية".

وتلك خطوة تلحق بسابقاتها من خطوات المطاردة الحثيثة للُّغة العربيّة من أمتها بكل طبقاتها و"قطاعاتها"، والحكومة - كما جاء فى صياغة الخبر - هى صاحبة هذه الخطوة؛ إنها المسئولة عنها والمتكفّلة بوضعها موضع التنفيذ، كما كانت هى المسئولة عن إنشاء القسم الأعجمى فى كليتى التجارة والحقوق.

فهى إذًا "مشروعات" متكاملة؛ لسدّ كل الأبواب والنوافذ و"الفتَحات والثقوب" التى يمكن أن ترجع منها العربية إلى عقول العَرَب وضمائرهم لغةً لها فى العلم مكانة رفيعة ولها فى معاهد التعليم مقامٌ كريم.

وكأنى بأصحاب هذه "المشروعات" ينظرون إلى الثقافة الأوربيّة كيف تنتشر فينا وتستحوذ علينا، ولكنهم لا ينظرون إلى ثقافتنا العربية، كيف ينبغى أن تبقى فى الصدر من حياتنا؛ علامةً على "ذاتنا" ومظهرًا لخصوصيّتنا الحضارية؛ ووجودنا القوميّ بين سائر الأقوام.

وكأننا لا نقنع بتراجع العربيّة وضعف حصيلتها وهزالها لدى أكثر المثقفين العرب، ولا نكتفى بتدهور أداء معلمها إلى درجة مخزية مؤلمة، وإنما ندعو "دعوة رسميّة حكوميّة" إلى احتقارها والتحول عنها فنضع "حجر أساس حكوميًّا" لبناء شامل من القاعدة إلى القمة، كل مَنْ فيه لا يعرفون من العربية أو عنها إلا أنها "لغة مصر الرسمية" - كما جاء فى المادة الأولى من الدستور - لقد كان التعليم باللغات

الأعجمية ـ ولا يزال ـ بقعة سوداء فى الثقافة العربيّة المعاصرة. وكانت مدارس اللغات هى قاعدة هذا التعليم ووقودَه وغذاءه.

ومن جهة أخرى يدل التتبّع التاريخىُّ لهذه المدارس وظروف نشأتها فى بلادنا على أنها كانت ـ فى أول أمرها ـ من أعمال قوى الاحتلال وفى مقدمة الغايات التى سعت إليها هذه القوى؛ فكانت المدارس الإنجليزية الأولى[1] من إنشاء الإنجليز وتحت إشرافهم وفى إطار النظام العام للتعليم فى بلادهم. وكذلك كانت المدارس الفرنسية الأولى.

وهؤلاء وهؤلاء رأوا فى هذه المدارس قاعدة قوية ثابتة دائمة لاحتلال العقول والسيطرة على النفوس وتوجيه الأفكار وتلك مسألة أخرى نتحدث عنها فيما بعد إن شاء اللّه.

وإنما نعرض لها الآن لأن الجامعات الإنجليزية والفرنسية والألمانية الحكومية التى يُعدُّ لها الآن تعدُّ تتبيعًا لهذه المدارس، ودعاية "رسميّة" لها وللاستكثار منها، وهذا يعنى دعوة "المستثمرين" إلى استثمار مضمون فى مزيد من مدارس اللغات المؤكدة الفائدة، لأنَّ الأثرياء الذين يتكاثرون اليوم بصورة رهيبة سوف يرسلون أبناءهم إليها طريقًا إلى المستقبل المشرق الزاهى فى الجامعات الأعجمية الجديدة.

ونضيف إلى ذلك ما ثبت من أن أكثر تلاميذ هذه المدارس قد ابتعدوا أو أبعدوا عن الارتباط بوطنهم، وبعض هذه المدارس يحملون التلاميذ حملاً على احتقار العربية ويجبرون أولياء الأمور على أن لا يتحدثوا مع أبنائهم باللغة العربيّة حتى فى البيت كيلا تضعف اللغة الأعجمية على لسانهم[2].

---

(١) مثل كلية فكتوريا والإنجليش سكول (معذرة إلى أهل العربية) وغيرهما.

(٢) انظر أهرام الثلاثاء ١٩٩٩/٨/٢٤، ص١١ مقال الأستاذ فهمى هويدى.

نريد أن نقول:

إن مدارس اللغات - فى رأينا - قاعدة قوية للاحتلال العقلى وسيطرة الفكر الأوروبى علينا، وتغلغله فينا. فإذا أنشأت الحكومة جامعات لتستوعب خريجى هذه المدارس فإنها بذلك ترتكب خطأ تاريخيًّا كبيرًا من جهتين.

الأولى: أنها تدعوا إلى التوسع فى إنشاء مدارس اللغات وزيادة سلطانها وسطوة أصحابها.

والأخرى: أنها تغلق الباب إغلاقًا تامًّا محكمًا أمام كل محاولات التعريب العلمى الذى يعد الآن جهادًا مجيدًا لطائفة عظيمة من علمائنا المخلصين الصادقين.

(جـ) جامعة الأزهر:

للأزهر الشريف، ورسالة ثابتة، ترتبط أولاً وآخرًا بالإسلام وشريعته ولغته وثقافته؛ فما ينبغى لهذه الرسالة أن تغيب أو تختفى من برنامج إصلاح، أو خطة تطوير؟!

ولقد كان جميلاً - ونبيلاً - أن يفتح على الأزهر أبواب العلوم الحديثة؛ لكى ينطلق أبناؤه فى الآفاق على علم ومعرفة وبصيرة؛ دعاةً إلى سبيل ربِّهم بالحكمة والموعظة الحسنة!!

ومن أجل ذلك كان المتوقع المرجو أن يكون شأن الأزهر - فى هذه العلوم - مختلفًا، له "صورة أخرى" خاصة به منبثة عنه، وعن بواعثه وغاياته فى ضم هذه المعارف الجديدة إلى برامج الدراسة فى جامعته العريقة المجيدة!

وقد كان أول ما يتبادر إلى ذهن مثلى أو يسبق إلى خاطره، أن تكون اللغة التى تُصَبُّ فيها المعارف العصرية لطلاب الأزهر الشريف، هى اللغة العربية، يفرضها ويجادل عنها - وهو الحرىّ أن يفعل - لا لأنها لغة القوم والوطن؛ فتلك غاية هيِّنة يسعى إليها غيره، ويبتغيها سواه.

ولكنه يفعل؛ لأنها لغة الدين الحنيف الذى أُسِّسَ عليه بنيان الأزهر وبَسَقَتْ على قواعده جامعتُه.

نعم فليست العربية "لسانًا قوميًا" لشعب، أو مجموعة من الشعوب، بل هى اللسان المبين الذى نزل به القرآن العظيم؛ فأعلى شأنها ورفع ذكرها ومنحها قدرة متجددة على العطاء والبقاء.

وإذا كانت سوريا، قد بدأت تجربتها الفريدة الموفقة فى تعريب الطب، فما ينبغى أن تبقى فى الميدان وحدها، والأزهر الشريف وجامعته العريقة، أولى بالإسراع إلى هذا الميدان، ونُصْرَة من سبق إليه يدافع عن قضية هى من أجلّ قضايا الأمة العربية والإسلامية فى العصر الحديث.

لقد كان حقًا على الأزهر - بحكم مكانه ومكانته ومهما كانت العوائق والصعاب - أن يجعل هذا "جهادًا" "يؤدى فريضته، ويحتمل إلى بُعد الآماد أمانته. ذلك ما توقعناه وأملناه، ولكنه لم يكن!

فمنذ بدأ التحديث أو التطوير فى أوائل العقد السابع من هذا القرن، لم يخرج الأزهر عن "الفلك العام" للجامعات المصرية والعربية بهذه الدراسات بل تبعها حذو القذة بالقذة كما يقال؛ خلافًا لما كان متوقعًا ومؤملاً؛ إذ هو - كما أشرنا آنفًا - أوْلَى معاهد العلم فى الدنيا كلها، أن يحتمل - وحده لو لزم الأمر - أمانة استعادة "العربية" لمكانها ومكانتها فى ثقافة الأمة وحضارتها وبناء العقول والنفوس لأبنائها.

غير أن ذلك الموقف غير المتوقع، يرجع - فى رأينا - إلى سبب منطقى بدهى. هو أن الذين أنشأوا كليات "التطوير" ومعاهد "التحديث" فى الأزهر جاءوا من الجامعات الأخرى؛ لم تعتنق قلوب الأكثرين منهم "عقيدة العربية" وأهميتها وضرورتها الدينية والحضارية، وما كانت اللغة لتدل عندهم على شىء فى الأزهر، أكثر مما تدل عليه فى جامعة القاهرة أو عَيْن شمس أو الإسكندرية أو أسيوط أو

غيرها من الجامعات التي أرسلت مندوبيها لبناء الجامعة الأزهرية الحديثة"

ثم تعاظمت الفكرة عند"ولاة" الأزهر كما حدث لغيرهم وتسلك "عقيدة" الإنجليزية إليهم ثم سرت فيهم وتمكنت منهم، فأرادوا أن تكون خطواتهم من أول الطريق لا من آخره، فأنشئت معاهد أو مدارس أزهرية للغات يدرس الطالب فيها "علومه" باللغة الإنجليزية كما يفعل سائر الطلاب في سائر المدارس والمعاهد.

وهكذا تخلى "الأزهر الحديث" عن خصوصيته المرتبطة برسالته وصار إلى "معنى" مجرد من "المعنى" أو شكل خال من "المضمون".

وهكذا انضمت جامعة الأزهر - بغير قصد - إلى القافلة، قافلة الخصومة العربية للعربية، ويالها من خصومة؟! ويالأثرها من أثر!!!

" جندي الحماية ينقلب إلى صف المحاربين؟!"

(د) مدارس اللغات:

هذه - في رأينا - واحدة من المشكلات الكبيرة التي تواجه العربية في عصرها الحديث، وتجعلها في "حالة" فريدة بين أحوال اللغات الحضارية المعروفة في التاريخ.

فمدارس اللغات منفذ قوى مؤثر، للغات الأعجمية، إلى النظام التعليمي في مصر، وبعض البلاد العربية الأخرى، وفي هذه المدارس يتربى الطفل ـ منذ حداثته وأول خطاه في طريق التعليم على أن تكون اللغة الأعجمية - إنجليزية أو فرنسية ـ هي الوعاء الذى يتلقى فيه جميع معارفه في مراحل الدراسة المختلفة، ومثل هذا ـ شئنا أم أبينا ـ لا يمكن أن ينظر إلى لغته بما تستحقه من توقير وحرص وعناية واهتمام، بل إن مثل هذا التلميذ - لو لم يكن من بيئة فيها أصالة دينية ووطنية - لابد أن ينظر إلى هذه اللغة نظرة ازدراء وكراهية لأنها حينئذ، سوف تكون عبئًا عليه وتعويقًا لمسيرته، وسببًا - أحيانًا - في نقص درجته.

ولهذا قامت دراسات حول هذه المدارس وأثرها فى ضعف "روح الانتماء" لدى طلابها، لأن الاهتمام البالغ بهذه اللغات، يكون حتمًا على حساب العربية وثقافتها. وذلك يؤدى إلى نتيجتين متلازمتين تؤثر كلتاهما عكسيًا، فى موقف الولاء الروحى والنفسى الذى ينبغى أن يكون لدى التلميذ العربى نحو لغته، ونحو أمته!!

فأما النتيجة الأولى: فإن الإعجاب المسيطر باللغة الأعجمية ما لبث تحول إلى إعجاب شامل بأصحابها، وهكذا صار "النمط الأوربى" والحياة الغربية مثلاً محتذى عند أكثر العرب المعاصرين!

وأما النتيجة الأخرى: فهى تزايد الشعور بعدم أهمية العربية، أو قلة جدواها، وتناقصُ الحاجة إليها.

ثم يتبع هذا ما لابدّ أن يتبعه من إهمال وازدراء واستهانة، لا باللغة وحدها، بل بثقافتها وتاريخها وتراثها، وبكل ما تمثله من قيم راسخة حية فى وجدان الأمة العربية والإسلامية.

ولعل مقابلة واحدة مع بضعة نفر من هؤلاء التلاميذ، وغيرهم من البشر الذين جعلوا من هذه المدارس "عالِمًا" متميزًا و"نجمًا ساطعًا" فى سماء التعليم ــ تظهرنا على مقدار حظهم من الشعور بقيمة العربية، أو بمعنى الأمة "بوجه عام"، وهذا فضلاً عما تقذف به إلى شعورهم من إحساس بالتميز والاستعلاء يحدث خللاً فى البناء الاجتماعى للأمة. وتلك قضية أخرى!!

ليس الأمر إذن اختلافًا فى نوع التعليم أو أسلوبه بين طالب وآخر، وإنما هو إقرار بالضعف وتسليم بالعجز ما دمنا نتكلم بكلام الأقوياء، ونحبس عقولنا على أفكار القادرين، وهذا يعنى بالضرورة أنْ نظل حياتنا كلها تابعين مقلدين محتاجين، لا نرفع رأسًا، ولا نحرك ساكنًا، وهو ما أراده المحتل الأجنبى وخطط له وعمل عليه وهو: حالنا بين الأمم اليوم.

التدريس باللغات الأعجمية وتخطيط قوى الاحتلال:

من أعجب الأعاجيب هنا، أننا جميعًا - ومنا أساتذة للعربية وعلماء للدين - مبهورون بهذه المدارس، نتهافت عليها، ونتلمس السبل والطرائق إليها، وكأن أبناءنا لن يتعلموا شيئًا ولن يدركوا خيرًا، إلا فيها وقد نسينا أن أصل هذه الفكرة هو الاستعمار الأجنبي الذى أدرك رجاله أن خير سبيل لاستمرار السيطرة على البلاد المحتلة هو قتل "الشخصية القومية" فيها وليس هناك من سبيل إلى ذلك إلا "إعدام" اللغة فى هذه البلاد.

وإذا لم يكن هذا المعنى حقيقة، فلماذا فرضوا لغاتهم على المدارس العربية فى جميع الأوطان العربية. وكأن الاستعمار - بغير حقٍّ - قد أعطى نفسه حقَّ الوصاية على الشعوب، واعتبر ثقافته نموذجًا عاليًا، يجب الاقتداء به، فهو - كما قال الدكتور محمد عزيز الحبابى[1] - مدفوع إلى تآمر بشع بعد تكوينه؛ يتآمر ضد خيرات الأرض، وما تحت الأرض، وضد كرامة الأهالى وتتحلى فعاليات القضاء على تلك الكرامة فى "إقبار" الثقافات الوطنية بالبلدان المستعمرة.

نعم ما ضاع حقٌّ وراءه مطالب، ولكن إذا قضى على شخصية هذا الطالب سهلت السيطرة على المطلوب[2].

وأصل القضية كلها هو الاحتلال، فى خطة طويلة محكمة للقضاء على ذاتية الإنسان العربى بدفن ثقافته عن طريق محو لغته أو زحزحتها عن مكانها فى الأرض العربية بل فى العقول العربية. وهذا هو أهم ما يهتم به، ويسعى إليه هذا الاحتلال.

وحسبنا هنا، أن نستعرض بعض ملامح الخطة الاحتلالية لإبعاد اللغة العربية وفرض اللغات الأعجمية على المتعلم فى كل البلاد العربية التى وقعت فى قبضتها، ولنتأمل هذه الأمثلة التاريخية:

---

(١) عالم جليل من كبار العلماء العرب فى المغرب العربى وهو عضو بمجمع القاهرة اللغوى.

(٢) عن بحث بعنوان: التعليم باللغات الأجنبية فى المدارس الرسمية العربية د. حسان محمد حسان ص٩.

١.فعندما سقطت الجزائر فريسة للاحتلال الفرنسي منذ عام ١٨٣٠م تتابعت محاولات الفرنسية دون هوادة حتى أضحت المناهج الدراسية والكتب التعليمية ولغة التعليم، وإدارة المدارس وهيئات التدريس كلها فرنسية.

وبعد ثلاث سنوات من الاحتلال، طبق القانون الفرنسي على التعليم في الجزائر، ومنعت المعونات المالية الحكومية عن أى مدرسة خاصة لا تدرس بالفرنسية(١).

٢.وقد حدث قريب من ذلك أو شبيه به في تونس وفى ليبيا أيضًا مع إيطاليا(٢).

٣.وقد حدث مع مصر أيضًا مثلما حدث في هذه البلاد؛ "فبعد عامين من دخول قوات الاحتلال حدثت تغييرات جذرية من أهمها: .. تصفية نظارة المعارف وضمها للأشغال العمومية ـ إلغاء البعثات للخارج ـ استخدام اللغة الإنجليزية فى المدارس الابتدائية والثانوية، ومن ثم حلول العنصر الأجنبى في التدريس ـ قدر الإمكان محل المدرسين المصريين(٣).

وقد ذكر "دنلوب" فى وثيقة غير منشورة له أن اللغة الإنجليزية في سنة ١٩٠٦م أصبحت اللغة الأجنبية الوحيدة للتعليم الابتدائى بنسبة ١٠٠٪ وبنسبة ٧٦٪ فى التعليم العالى.

والجدير بالذكر أن النسبة الباقية هنا فى الثانوية والعالى ـ للغة الفرنسية وليست للعربية(٤).

وكأن دنلوب يباهى بلغته وأنها انتصرت على الفرنسية فى مصر، أما اللغة العربية فقد خرجت من دائرة المنافسة، فهم لا ينظرون إليها ولا يعبأون بها، بعد أن

---

(١) نفس المرجع ص١٠.

(٢) المرجع السابق ص١١.

(٣) المرجع السابق ص١٢.

(٤) المرجع السابق ص١٣.

قهروها، وحولوا أهلها عنها وحالوا بينهم وبينها وقد حدث نحو ذلك فى السودان وفى اليمن الجنوبى[1] وفى بلاد عربية كثيرة وقعت فى قبضة الاحتلال إبان عصر الضعف والاضمحلال.

فالتعليم باللغات الأجنبية كان فكرة استعمارية محضة غرسها المحتل الأجنبى فى أرضنا وثبتها فى عقولنا؛ ليفصلنا عن ماضينا ويحول بيننا وبين تراثنا، وقد غفلنا عن حقيقة عظيمة فى غمرة البهر بما حققه هذا المحتل من إنجازات علمية حين كنا نائمين غافلين؛ هذه الحقيقة الباقية هى أن المستعمر كان يسعى إلى أن نبقى أمة ضعيفة مهزولة مستسلمة مستكينة وهو يدرك أن السبيل إلى ذلك هو القضاء على الشخصية العربية فى كل منا، حتى نتحول إلى مجموعة من البشر لا رابطة بينهم، ولا غاية تجمعهم، مجموعة فقدت روح المقاومة أو الدفاع عن "الذات"؛ لأن هذه الذات غير موجودة أصلاً.

ولقد كان قضاؤه على العربية لغة علم وثقافة، إحدى وسائله الخبيثة إلى غايته المدمرة؛ لأن هذه اللغة ليست لغة خطاب أو حديث فى المنازل والأسواق فقط ولكنها لغة دين وحضارة ارتبطت بهذا الدين وقام بناؤها عليه، ولو نجحت محاولات تصفيتها لصارت أمتنا أشبه بنباتات عالقة بالماء بغير جذور[2].

وعندنا أن مدارس اللغات بصورتها بيننا وسلطانها علينا، امتداد لهذه الفكرة الاحتلالية ووسيلة إلى غايتها، ومن هنا كانت هذه المدارس فى تقديرنا مشكلة، ينبغى التصدى لها والبحث فى حلها وإزالة آثارها من نفوسنا قبل أن تزال مواقعها أو تختفى مبانيها من أرضنا.

وصفوة القول هنا أن التعليم باللغات الأعجمية انتهى فى التجربة المصرية إلى قناتين:

---

(١) انظر المرجع السابق ص١٢ – ١٨.

(٢) انظر ما كتبه الدكتور حسان محمد حسان فى المرجع السابق ص١٩ وما بعدها.

الأولى: الجامعة فيما يسمى بالكليات العملية، ومعهـا الآن بعـض الكليـات النظرية مثل التجارة فى القسم الإنجليزى، والأزهر - مع الأسف ــ يدور فى هـذا الفلك مع الدائرين.

الثانية: مدارس اللغـات فى مرحلـة ما قبل الجامعـة (وأضيـف إليهـا الآن تدريس اللغة الإنجليزية بدءًا من الصف الثالث الابتدائى فى المدارس العامة).

ويحزننا فى هذا أيضًا أن نرى الأزهـر يسير فى الطريق مع السائرين؛ إذ يخصص مثل غيره - فى مرحلة ما قبل الجامعة معاهد أو مدارس للغات تخضع للمنهج العام فى مدارس اللغات، وكلتا القناتين ــ فى رأينا ــ علامة باهرة، على مقـدار التجافى بين العرب ولغتهم؛ لأنهم حينئذ قد حكموا بأنفسهم على لغتهم بالعجز والتأخر والقصور، وهذا حكم جائر، وإنه لباطل .. باطل .. باطل.

باطل بحقائق العلم!! وباطل بحقائق التاريخ!! وباطل بواقع العربية!!

ولسوف نعرض لهذه القضية إن شاء الله فى المبحث الخاص باللغـة العربيـة وعلوم العصر الحديث غير أن لنا هنا كلمة لابدّ منها.

كلمة أخيرة لابد منها !!

إن الأمثلة المنوّعة التى عرضناها لمحاولات العرب "تَسْويدَ" الإنجليزيـة، وإطلاق العنان لها، حتى تنطلق فى آفـاقهم بغير حـدود ولا قيـود. إن هـذه الأمثلة تثبت أن "المحتل الإنجليزى" حين فرض لغته قبل نحو قرن، لم يفرض لغة، أو يَقْهَرْ أمّة كاملة على لغة، بل غرس "فكرة"، واستنبت فى العقول والقلوب والضمائر "عقيدة" لها ما للعقيدة من سلطان ونفاذ وتأثير !!

أَجَلْ، فقد تجاوزت الإنجليزية - خاصّـةً ـ[1] حـدود اللغـة الأعجمية التـى

---

(١) نشير بكلمة (خاصة) هنا إلى وجود لغات أعجميّةٍ أخرى، ولكن الإنجليزية أقواها وأكثرها انتشارًا وأعمقها تأثيرًا، وبخاصة فى بلاد المشرق العربىّ !

ينبغى تعلمها والحرص على إتقانها؛ لتصير "عقيدة" ثقافيّة وحضاريّة، يبلغ الإيمان بها عند أكثر العرب مبلغ اليقين .. ولقد كان فَرْضُها والإكراهُ عليها لغةً للعلم والتعليم فى عدد من المؤسسات التعليمية العربيّة أثرًا لهذه العقيدة، وآيةً عليها، وثمرةً من ثمراتها. وهذا يدعونا إلى بيانٍ لازم للرأى فى قضية التعليم بغير العربيّة؛ فنقول:

لقد أثبتت لنا الأمثلة والوقائع السابقة، أنّ التعليم باللغات الأعجميّة "أكذوبة حضارية"، زائفة خادعة، خبيثةٌ ماكرة. وضع المحتل الأثيم بذورها، يوم احتلّ أرضنا وأخرج لغتنا من معاهد التعليم فى مراحله المختلفة؛ لتحل لغته محلها، ثم مضى بعد أن تركنا فى ضعْفنا النفسىّ والحضارىّ المخجل، نتعهّد له "بذوره": نسقيها بأيدينا ونرعاها بأنفسنا حتى أينعت وأثمرت وآتت أكلها؛ فانحدرت الأمة كلها إلى دوامة التبعيّة الفكرية. وأصبحت بلاد العرب موطنًا دائمًا للإكراه على الثقافة الأوربية؛ يبشّر أكثرهم بها، ويدعو إليها، ويجادل عنها بل يجاهد فيها؛ لا لأنها إضافة طيبة، أو زيادة لازمة؛ بل ينبغى أن تكون أصلاً وأساسًا إذ هى ـ فى زعمهم ـ قاعدة الحياة وطريق النجاة[1].

من أجل ذلك، وجدنا الحكومة تقبع فى "خندق واحد" مع أنصار الاستعجام والتغريب؛ لأنها "تُقِرُّ" التعليم باللغات الأعجميّة فى الأرض العربيّة، بل

---

(١) فى كتابات بعض الرواد الكبار إشارات إلى ذلك: تصريحًا، أو تلميحًا يدنو من التصريح. كما ظهر لدى الدكتور طه حسين والدكتور زكي نجيب محمود.

وفى رأيى أن الإغراق فى التأثر بالثقافة الغربية سبب من أسباب الانحراف الفكرى الذى كثرت أمثلته وتعددت مظاهره بين العرب فى الآونة الأخيرة: مثل: التهجم على القرآن الكريم والتشكيك فى "وَحْيِيَّته" وإعلان أنه "مُنْتَجٌ بشرىٌّ" والاجتراء على شخصية النبى ﷺ ، والتبجح بنقده أو العيب فيه (صلوات الله وسلامه عليه) وكذلك التطاول على الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين والطعن فى قيمتهم الجليلة، وأثرهم التاريخىّ العظيم فى نشر دعوة الإسلام وتثبيت قواعده. إلى غير ذلك من مظاهر الانحراف وأمثلته المنتشرة فى أرجاء كثيرة من الأرض العربيّة والإسلامية.

تشجّعهُ وتُعين عليه، وتشارك ـ بمال الأمّة ـ فى دعمه، وإعلاء شأنه وتثبيت قواعده؛ ولقد فعلت ذلك مرتين:

أولاهما: حين تقاعست عن "إصدار القوانين" التى تمنع التعليم بغير العربيّة أو تَحُدُّ منه، مثل دَأْبِ الأمم الحضاريّة مع لغاتها !!

والأخرى: حين عملت بيدها ـ من تلقاء نفسها ـ على زيادة أبواب هذا النوع من التعليم، وتنويع منافذه فى خطوتين خطيرتين، متتابعتين متقابلتين:

الخطوة الأولى: إنشاء مدارس حكوميّة للُّغات وهذا ـ فى رأينا ـ يعنى إضْفاء "الشرعيّة" على مدارس اللغات، بل هو "دعاية رسميّة" لها؛ كى يكون تأثيرها أعْمَقَ وأمْكن، وانتشارها أوسع وأبعد.

وهذا ما حدث بالفعل؛ فصارت هذه المدارس مَطْمعًا لأكثر الناس من جهة، ومجالاً للتسابق الاستشاريّ من جهة أخرى .. وفى ذلك ما فيه من خطر مُحقّق على أهداف التعليم وغاياته، التى ينبغى أن تترفّع وتسمو لئلا يكون العلم وسيلة ومن وسائل الاتجار والكسب، أو مظهرًا من مظاهر الاستعلاء أو التمايز الطبقىّ بين الناس.

والخطوة الثانية: التفكير فى إنشاء جامعات إنجليزية وفرنسية وألمانية، تستوعب طلاب مدارس هذه اللغات الثلاث[1].

وههنا موطن العجب والغرابة، بل موطن الألم والمرارة والاستنكار !!

إن كثيرًا من العلماء الثقات، ينادون بضرورة تعريب ما هو مُسْتَعْجمٌ فعلا من معاهد التعليم الجامعىّ العام كالطب والهندسة والصيدلة. ويثبتون بالبرهان النظرىّ والدليل العملى، خطأ التعليم بغير العربيّة فى كل الميادين ويُدْحضون حجج المستمسكين بعجمة التعليم فى بلادنا؟!

(١) الخبر منشور فى صحيفة الأهرام ١٩٩٩/٨/٩.

تلك أفكار مطروحة معلومة مشهورة فيما يذيعه المجمع اللغوى والجمعيّة المصريّة للتعريب كل عام، وكذلك غيرهما من المؤسسات العلمية التى ترى تعريب العلم والتعليم ضرورة علمية قوميّةً حضاريّةً لا غنى عنها.

ولقد كان حقًّا على الحكومة ـ بمقتضى مسئوليتها الوطنيّة والقوميّة ـ أن تعرف تلك الدعوات وتستجيب لها وتلبّى نداءها؛ فتقف بكل قوتها مع التعريب؛ تؤيده، وتمكّن له، وتشجّع عليه؛ إذ هو طريق الأمة إلى تحقيق "ذاتها" وإظهار خصوصيّتها الحضارية التى تعرف بها، وتنسب إليها.

ولكن الحكومة ـ مع الأسف ـ عكسَتْ فسارت فى الطريق المضاد؛ لأن الخطوتين السابقتين "إعلان ظاهر" بأنها تقف ـ بقوتها وسلطانها وبما تحت يدها من مال الأمة ـ فى صف الاستعجام والتغريب. وكأنها أرادت أن تحيط بطرفى القضيّة، وتُمْسِك كليهما بيدها !

ثبتت "القاعدة" وضاعفت رُقْعَتَها؛ فأنشأت المدارس[1] ثم اتجهت إلى "القمة" (قمة التعليم باللغات الأعجمية)؛ لتمكينها، وزيادة مساحتها؛ بفكرة إنشاء الجامعات[2] !!

وصفوة القول المؤلم هنا:

أن العرب اليوم، هم الذين يدعون للإنجليزية[3]، ويحمون وجودها، ويحرصون عليها، على حين تركوا لغتهم، ومظهر استقلالهم وعلامة وجودهم أمةً ممتازة بخصوصيّتها من سائر الأمم. وليتهم تركوها فحسب، ولكنهم أهدروا

---

(١) نعنى بها المدارس الحكومية التى جعلت عنوانها: المدارس التجريبيّة للغات.

(٢) الجامعات الإنجليزية والفرنسية والألمانية التى أشرنا إليها آنفًا.

(٣) نخصّها بالذكر لما سبق من أنها أكثر اللغات الأعجمية انتشارًا وتأثيرًا، وإن كانت الفرنسية معها فى بلادنا وفى بلاد كثيرة وبخاصة فى المغرب العربى.

كرامتها وانتهكوا حرمتها وجعلوها على ألسنتهم، وفى حياتهم مَسْخًا شائهًا وهى لغة البيان والجمال والجلال !!

وهكذا يمكننا أن نقول:

إن التحوّل عن العربيّة بدأ بالقهر، وانتهى إلى "الانقهار" !! أعنى أن الإنجليزية بدأت قَهْرًا بقوة البطش العسكرى، والتسلُّط السياسى "للامبراطوريّة العظمى". ثم ما لبث هذا القهر أن نَفَذَ إلى "ذواتنا" من داخلها؛ استبدّ بها واستحوذ عليها، فإذا نحن مشدودون مجذوبون "منقهرون"! نُعْرِضُ عن لغتنا، وننفضُ منها، ونُظاهِرُ قوى الاحتلال عليها؛ فنخرجها بأيدينا من المواقع المكرّمة فى العلم والتعليم، مع أنها كانت سيدة هذه المواقع، حتى وقت قريب غير بعيد !!

إننا - ونحن العرب - نوقّر اللسان الأعجمىّ، ونحقّر اللسان العربىّ المبين !!

وذلك هو "الانقهار" الذى اطمأننّا به، وسكنّا إليه.

تعليم اللغات لا التعليم باللغات ؟!

نقول هنا ما قلناه فى مواطن كثيرة؛ تنبيهًا وذكرى لأولى الألباب.

لسنا ضد اللغات الأعجمية، وما ينبغى لنا أن نكون!! وإنما نأبى أن تذوب الأمة فى غيرها، أو تفقد معالم ذاتيتها حين تندفع - كالمخدرة أو المغيبة - إلى الاكتفاء بموقع الظل؛ إذ تقرأ وتكتب وتعلم بلسان غيرها وتفكر بعقله وتعمل بيده؛ كما هو الواقع الغالب على البلاد العربية.

من أجل ذلك ندعو الآن إلى شعار جديد نراه جديرًا بالاستمساك به والاتفاق عليه وذلك هو: **"تعليم اللغات وليس التعليم باللغات؟!"**.

والفرق فى رأينا كبير وخطير غير هين ولا يسير.

تعليم اللغات يعنى سعة فى العقل وبسطة فى العلم، وقدرة فى اللسان؛ وتلك أدوات لازمة، ووسائل واجبة فى بناء الأمة، وشيد صرحها الثقافى والحضارى.

ومن أجل ذلك نرى "تعليم اللغات" مطلبًا ضروريًا وفريضة مفروضة على أمة تريد أن يكون لها "ذات" حاضرة بقوة بين الأمم؛ إذ تنطلق في مسيرتها الحضارية بأقدام ثابتة، على أرض صلبة.

تقبل على ما عند غيرها فتثقفه وتتمثله، ثم تضيفه إلى ما عندها فيكون المزيج رحيقًا كريمًا، ذابت فيه عناصر متعددة، ولكنه يحمل روح الأمة، ويصور فكرها وينطق بلسانها!!

هذا ما فعله العرب والمسلمون إبان ازدهارهم الحضارى المعلوم، ولقد كانوا بحق رُوَّادًا عظماء "لانفتاح" عقلى وحضارى غير مسبوق ولا ملحوق، فأخذوا عن الأمم الحضارية جميعًا، كل ما انتهى إليهم، أو انتهوا هم إليه، فى صورة فذة فريدة للترجمة الواعية التى لا تزال حتى اليوم أحدوثة نادرة فى تاريخ الحضارات.

لقد أخذوا ونقلوا، ولم يذوبوا أو ينصهروا كما نفعل اليوم ونحن غافلون؛ فلقد - والله - كانوا أقوم نهجًا وأهدى سبيلاً؟! حين ترجموا؛ ترجموا إلى لغتهم، وحين كتبوا أو صنفوا، كتبوا وصنفوا بلغتهم؛ فلغتهم هى المصب، وهى الوعاء، وهى الأداة، وإليها المنتهى !!

وقد أثمرت جهودهم وآتت أُكُلَها، حضارة سامقة باسقة شامخة وارفة، استمر عطاؤها ثريًا سخيًا متدفقًا عدة قرون !!

وما فعله العرب والمسلمون، فعله غيرهم من السابقين لهم واللاحقين بهم على درج الحضارة فى كل أحقاب الزمان.

فالحضارة أخذ وعطاء، وتعلم اللغات والتوسع فى معرفتها إحدى الوسائل القوية التى تعتمد عليها الأمة فى إقامة بنائها الحضارى ومن هنا يكون تعلم اللغات ضرورة لازمة بل واجبًا وفريضة مفروضة على الأمة؛ تمهد طريقها وتُنْهِج سبيلها وتصطنع وسائلها؛ أداء لحق الفريضة ونهوضًا بأمانة الواجب.

وليس كذلك التعليم باللغات؟!

إنه يعنى ذوبان الأمة وضياع ذاتيتها و"تغييب" هويتها، لأن "سريان" اللغة فى أوصال الكيان العلمى لدى شعب ما، يستتبع التأثر بالفكر والبهر بالثقافة ثم ينتهى إلى حصر المثل المتبع والنموذج المحتذى فى أصحاب اللسان وأمة الثقافة.

وما نجاوز الحقيقة إذا قلنا إن هذا هو حال أمتنا اليوم؛ إذ تحولنا إلى "التبعية" الفكرية والحضارية وخضعنا للسيطرة العقلية على الرغم من تحقق الاستقلال السياسى والعسكرى قبل نصف قرن أو نحوه. وكَأنَّ قد أسكرتنا النشوة بزوال الاحتلال العسكرى فسقطنا فى شرك الاحتلال العقلى!

ذلك هو الفارق - عندنا - بين تعلم اللغات والتعليم باللغات؟!

****

(٥) مناهج تعليم اللغة العربية[١]:

إنها - كذلك - إحدى مشكلات العربية. كلا بل هى أحد مظاهر الخصومة العربية للعربية؟! ولتوضيح ذلك، سنتصدى لمسألتين متلازمتين، تتصلان اتصالا وثيقًا بما نحن فيه، وهما:

١. إشارة موجزة إلى المناهج اللغوية بخصوصها!

٢. بيان حجم اللغة العربية فى مناهجنا الدارسية بعمومها!

المسألة الأولى: مناهج دراسة اللغة وغاياتها!

من الحقائق المسلمة أن مناهج تعليم اللغة، تسعى - فى كل الأمم - إلى أن يحوز المتعلم ملكتها، ويكتسب مهاراتها، قبل أن يخرج من المدرسة إلى الحياة العمليّة؛ لأن اللغة هى أداته المصاحبة إياه، والملازمة له فى أى موقع يشغله، أو أى عمل يتولاه.

ومن البدهيّات المسلمة أيضًا، أن "ملكة اللغة" ومهارتها تظهر فى مجالات ثلاثة:

أ. القراءة ب. الحديث جـ. الكتابة.

وإن خبراء التربية والتعليم، ليقررون أن هذه المهارات ينبغى ألا تقتصر على الطالب المتخصص فى دراسة اللغة، إذ هى "مهارة" لازمة لكل طلاب العلم؛ فى كل أنواع التعليم المعروفة فى وطن هذه اللغة. فإذا تأملنا الواقع اللغوى لدينا - وهو

(١) يتضمن هذا الكتاب فصلا كاملا عن التعليم فيه تفصيل لأكثر ما اشتملت عليه كلمتنا من جزئيات يكفى إيجازها فى تجلية الغاية من إيرادها فى هذا السياق الذى نعدد فيه مظاهر خصومة الأمة العربية للغتها.

جزء من الواقع الاجتماعي - وجدنا أن الغايتين معا لا تدركان !

فلا غير المتخصص، تعلّم من لغته ما هو ضروري له، ولانتمائه العقدي والحضاري إلى أمته.

ولا المتخصص، قد بلغ من علمها وفقهها، وإدراك أسرارها، ما يمكنه من احتمال أمانتها، وبلاغ رسالتها. والقيام بحقها عليه في نقلها صحيحة سليمة نقية إلى الأجيال من بعده.

فإذ أغضينا عن الأول - وما ينبغي أن نفعل - ألفينا حصيد الثاني "هشيما تذروه الرياح" وتلك هي المشكلة، بل تلك هي القضية ؟!!

وإنها لظاهرة تنفرد بالعربية، وتنفرد العربية بها من دون سائر اللغات؛ فلا نعلم فيها واحدة - في أي زمن، وفي أي وطن - يجهلها متعلم مهما كان مستواه، فضلا عن أن تضئول مهارتها أو تغيب ملكتها، لدى من اختار حقلها، وآثر سبيلها؛ ليكون من جندها، وأحراسها!

ولكن هذا يحدث في المناهج العربية لتعليم العربية ؟!!

المسألة الثانية: حجم العربية في مناهج التعليم:

تعالوا إلى كلمة سواء، أن نتفق على بعض الحقائق، ثم لنرجع فلننظر من صواب الرأي وسداد القول، في مكان العربية ومكانتها بين مناهجنا!

ومن هذه الحقائق:

١ .أن اللغة، قاعدة البناء الحضاري، ومركز دائرته، وقطب رحاه، لدى كل الأمم بامتداد عصور التاريخ!!

إن حضارة الأمة، ما هي إلا ثمرات العقول ونتاج القرائح تعبر عنه اللغة، وتحمله إلى مختلف الأمم والشعوب.

٢. أن الأمم - صوانع الحضارات فى التاريخ القديم - أدركت هذه الحقيقة فاتخذت منها "غاية" عملت عليها وسعت لها سعيها؛ إذ جعلت للغة مقامًا معلومًا، ومكانًا متميزًا ظاهرًا، فى جملة ما لديها من معارف وعلوم.

وهذا يمثل خيطًا متواصلا ممتدًا بين الأمم المختلفة، فى العصور المتعاقبة على نحو ما روت لنا مصادر التاريخ اللغوى من جهود رائدة طيبة نسبت إلى الآشوريين والهنود واليونان والرومان والعرب، ثم الأوربيين فى العصور الوسطى.

٣. أن الأمم المتحضرة فى العصر الحديث، تعتز بلغتها وتحرص على حمايتها وتقدمها وارتقائها، وتصطنع فى سبيل ذلك أحدث الوسائل، وأفضل الأدوات، سعيًا إلى غاية أنبل قيمة وأبعد مدى من مجرد تلقين طلابها قواعدها ومبادئها.

فهى تسعى أولاً، إلى أن تظل هذه اللغة وعاء حضارتها ودليل رقيها وتفوقها، وتسعى ثانيًا إلى أن تكون صلة متعلم اللغة بها مغايرة لصلته بالعلوم الأخرى، التى يتعلمها فى المدرسة أو الجامعة؛ من أجل أن يحقق نجاحًا ينال به "مكانة" أو "منصبًا" فى وطنه.

أما اللغة فإن المتعلم - فى جميع فروع العلم - يتعلمها لما هو أسمى وأغلى؛ فيقبل عليها بدافع الحب والخوف والغيرة، وهى مشاعر تتوجه - فى حقيقة الأمر - إلى الأمة نفسها: إلى تراثها، وإلى تاريخها، إلى حاضرها وماضيها.

ومعنى هذا أن "التعليم الجيد للغة" غذاء لازم لما يسمى "شعورَ الانتماء" الذى يُربّى فى عقول الناشئة، ويَغْرِس فى أعماق نفوسهم حُبَّ الأمة، والعمل على قوتها ونهضتها.

وهذا ما أدركته الأمم المتحضرة، قديمًا وحديثًا، من شأن اللغة ودراستها: استهدفت للقدماء غايتُها النبيلة، فثارت همتهم، واشتد عزمهم وهُبّوا يصطنعون الوسائل، ويؤسسون القواعد، ويؤصلون الأصول لحماية اللغة، والمحافظة عليها

وتعليم الأجيال إياها ... وكان للعرب فى هذا ريادة معلومة، وجهد محمود وفضل غير مجحود.

وظهرت للمحدثين فى الغرب والشرق قيمتها، فاحتفوا بها، وأقبلوا عليها بحثًا ودراسة، ثم التفتوا إلى برامج تعليمها، فأقاموها على وسائل وأسس، انتهت الدراسات فيها والبحوث حولها، إلى أنها أقوم الأسس، وأنفع الوسائل فى تعليم اللغات ...!!

أنشأوا المعامل الصوتية، واعتمدوا على أجهزة وأدوات متطورة فى تصحيح الكلام وعلاج عيوب النطق. وبذلك يعيش المتعلم - منذ مراحله الأولى - فى جو اللغة: يسمعها ويتكلمها، ويقرؤها، ويكتبها حتى ترسخ "أنماطها" فى ذاكرته، وتستقر "نماذجها" فى وجدانه.

ولهذا يستطيع طفل دون العاشرة أن يؤدى اللغة - بعد تعلمها على الأسس المتقدمة - أداء سليمًا جميلا. وقد وقفنا على ذلك فى الواقع على أمثلة كثيرة.

فماذا فعلت المناهج التعليمية فى الوطن العربى من أجل تعليم اللغة العربية؟!! وما الغايات أو الأهداف التى تمثلها واضعوا هذه المناهج، أو سعوا إليها فى مناهجهم أو برامجهم التدريبية للغتهم؟! إننا فى هذا المقام، لا ندعى معرفة بالأصول العلمية أو التربوية التى يخضع لها وضع المناهج التعليمية؛ فهذا شأن ذويه، وأولى العلم فيه أو أهل الذكر فى ميدانه ... ولكنّا ننظر إلى الثمار أو النتائج فى واقع الحياة فلا نرى إلا صورة متواضعة مخجلة!! وفى التجربة التالية، مثال لهذا الواقع، يغنى عن كل بيان!!

منذ ثلاثين عامًا، عملت ستة أشهر فى مدرسة لغات فرنسية[1] واقتضتنى

(١) مدرسة الليسيه بالمعادى.

واجبات الوظيفة أن أشرف على نوع من النشاط الدينى، كان من جملة أعماله أداء بعض الطلاب لنصوص دينية صغيرة، فى الإذاعة المدرسية؛ فكنت أختار النص قصيرًا: جزءًا من آية أو حديثًا موجزًا (من جوامع الكلم النبوى الكريم) أو قطعة من حديث أو غير ذلك من النصوص الواضحة المفهومة. ثم أكتب النص القصير بأحرف كبيرة "مشكولة" شكلاً تامًا، وقبل الوقت المحدد أدرب الطالب أو الطالبة على الإلقاء. ومع ذلك أو بعد كل ذلك، يقع الخطأ ويحدث التحريف مع أن الاختيار يكون غالبا من طلاب الثانوية العامة أى من أكبر الطلاب عمرًا، وكثرهم نضجًا!!

وفى الوقت نفسه، نرى فى المدرسة ذاتها - طفلاً فى الخامسة أو السادسة الابتدائية - وأحيانًا دون ذلك - يتحدث الفرنسية، ويحادث بها فى سهولة وطلاقة ويسر. فلماذا هذا وكيف هذا؟

وما بال تعليم العربية لا يدرك - فى مدارسنا ومعاهدنا - هذه الغاية؟! إن المشكلة تبدو عصية الحل؛ لأن واضعى المناهج اللغوية فى الوطن العربى، لا يحسبون حساب الغايات الدينية والقومية التى ينظر إليها ويعتبرها واضعو مناهج تعليم اللغات فى الأمم المتحضرة من حولنا. وأهمها - كما رأينا - تربية شعور الاعتزاز باللغة عند المتعلم منذ المراحل الأولى. ١

ومن المؤلم هنا أن علماء المناهج العربية، لم يحاولوا كثيرًا أن يستردوا للغتهم مكانتها التى كانت لها فى عصورها الزاهية، بل نظروا إليها نظرة أعانت بكل أسف على تحقيق كثير من غايات المحتل فى التمكين للغته (أى لفكره وحضارته وأنماط حياته) على حساب اللغة العربية.

من أجل ذلك بقيت العربية - فى تخطيط علماء المناهج وحساباتهم - "مادة"؛ "مجرد مادة"، يدرسها الطالب فقط ليجتاز "الامتحان" وإذا كانت هناك

"مواد" أهم وأنفع، فليكن قدرها أكبر وأعظم، فهبطت العربية فـى المنـاهج العربيـة، إلى منزلة المواد التكميليـة أو "الثانويـة". وإنهـا لصـورة باهتـة لا تليـق بتلـك اللغـة المجيدة، ولا بمكانتها التاريخية أو قيمتها الحضارية. وهى صـورة لا نعلـم لهـا نظـيرًا عند غير العرب مع لغتهم فى هذا الزمان، ونرى هذه الصورة فـى المنـاهج التعليميـة فى مصر على سبيل المثال حيث احتلت اللغة ركنـا صغيرا علـى "خريطـة" المنهـج، تجاوِرُ فيه كثيرًا مما سميناه قبلا المواد الثانوية أو التكميلية، مثل اللغة الفرنسية.

فإذا علمنا أن ما يتلقاه الطالب العربىُّ من لغته، أكبر، وأشق جهـدًا ووقتًـا، مما يعطيه مادة أخـرى يحصـل منهـا علـى درجـات مسـاوية، فمعنـى هـذا حتمًـا أن يتناقص اهتمامه بها ويقل جهده فيها وبخاصـة أن فـى "التصميـم" الجديـد مـا يغريـه بالتهاون ويعينه عليه؛ إذ يُسِّرَ للطالب طريق النجاح السهل فى "مادة" اللغة العربيـة؛ فقسـمت درجاتها فى الثانوية العامة الجديدة على عامين، يكفيـه لينجـح أن يحصـل على ٢٥ خمس وعشرين فى مجموع العامين[1]، والنتيجة الحتم عند جمـوع الطـلاب باستثناء النابهين وهم قلة نادرة ـ أن تصبح اللغـة العربيـة "مـادة" بين المـواد؛ يمكـن تأخيرها أو تقديم غيرها عليها طبقًا لمقتضيات "سوق" الدرجات والمجموع فـى كـل عام.

ومعنى هذا أن "المنهج الجديد" ـ وقد وجد أشياعًا وأنصارًا كثـيرين بطبيعـة الحال ــ صيّر اللغة وسيلة ثانوية إلى "الثانوية"!!! ولم يجعلهـا ــ مثل دأبِ الأمـم المتحضرة فى حرصها على لغتها ـ غاية تُبْتَغَى، ويُسْعَى إليها فـى ذاتهـا، ومـن أجـل ذاتها. وذلك أيضًا مما تنفرد العربية بمواجهته بين جميع اللغات.

---

(١) كان هذا حتى العام الماضى (١٩٩٨م) ثم صدر فى أوائل هذا العام (١٩٩٩م) قـرار جديـد برفـع الدرجة الكلية إلى ٦٠ ودرجة النجاح إلى ٣٠.

الشعور:

تلك خاتمة المطاف حول المظاهر والأمثلة التى جعلناها دليلاً على خصومة متفردة بين العرب ولغتهم.

فما المراد بالشعور؟ ولماذا نتعرض له فى سياق حديث خاص باللغة؟!

ونبادر فنقول جوابًا عن هذا التساؤل الضرورى: إنَّ الشعور ـ هنا ـ هو الموقف النفسى لجموع الأمة وجماهيرها العامة من اللغة.

من أجل ذلك لا يكون بيانه والكلام فيه خروجًا من القضية الأصل إلى حديث عن العواطف المشاعر، بل هو ركن فى المشكلة رئيس ركين؛ فهو سبب ونتيجة فى وقت معًا؟!

أعنى أنَّ شعورَ الإهمال وعدم الاكتراث ـ مهما كانت دوافعه ـ هو الذى أدّى بصورة أو بأخرى إلى ما انتهى إليه أمر العربية فى بلاد العرب. وفى الوقت نفسه، نراه نتيجة لكل ما عرضناه من مظاهر ونماذج، تنتشر بين الأرجاء العربية المختلفة مثلاً لنوع فريد من الخصومة بين اللغة وأصحابها.

والذى يدل واقع الأمر عليه، وتشير قرينة الحال إليه أنَّ الموقف الشعوريَّ للأمّة "العربية" من اللغة "العربية" غير ما هو ظاهر لنا من مثله فى الأمم المتحضرة.

ولمن شاء أن يقرأ العبارة التالية لأديبة وعالمة فرنسية مشهورة هى مدام دى ستايل التى تحدثت فى معرض المباهاة بطبيعة اللغة الفرنسية، والوظيفة التى تتعدى بها حدود ما تعرف الشعوب للغاتها من وظائف ـ فقالت:

« إنها ليست كما هى عند غيرنا؛ مجرد وسيلة لتوصيل الأفكار والأحاسيس، أو التعبير عن شئون مختلفة، ولكنها آلة يحب الإنسان أن يلعب بها، وهى تحرك النفوس، كالموسيقى عند أقوام والخمور عند آخرين »[1].

---

(١) انظر: اللغة بين الفرد والمجتمع د. محمون الهوان ص٢٢. وانظر أيضًا: اللغة بين الفرد والمجتمع أتو جسبرس ترجمة د. عبد الرحمن أيوب ص١٠.

وعلى الرغم مما فى هذا القول من مبالغة غير مقبولة، نراه تعبيرًا قويًا عما ينبغى أن تكون عليه الصلة بين الأمة ولغتها؛ إن مدام دى ستايل هنا "فرنسية مخلصة" تتحدث بحب واعتزاز عن لغتها الفرنسية، فتراها بعاطفتها المتوهجة لغة تختلف عن سائر اللغات؛ لأن اللغات ـ فى تصورها ـ تؤدى وظيفة محدودة هى التفاهم أو التواصل أو التعبير عن العواطف والآراء والأفكار ... إلخ.

أما الفرنسية فشأنها مختلف لدى أديبة فرنسا المشهورة؛ إنها أداة للعب بالكلام، للمتعة وتحقيق النشوة، فالفرنسى حين يتكلم الفرنسية، أو يستمع إليها يستمتع وينتشى بمثل ما يحدث لمحب الموسيقى حين يسمعها، ولشارب الخمر حين يشربها. وهذا كلام يشتمل على تجاوز كبير للحقيقة، وعصبية مسرفة فى وصف القيمة التأثيرية للغة معينة؛ لأن كل لغة تملك هذا الأثر فى نفوس أصحابها، وربما فاقت العربية غيرها فى هذا المضمار كما يشهد المنصفون! ولكنا سقناه هنا؛ دليلاً على ما أردنا تقريره من أن الاعتزاز باللغة ضرورة واجبة؛ للغة فى ذاتها، وللأمة فى محاولاتها وجهودها من أجل تثبيت بنائها الحضارى الخاص بها والمنسوب إليها.

وما كانت عبارة "دى ستايل" إلا صورة أو مثلا متكررًا لما بين الشعوب المتقدمة ولغاتها من صلات. فكل الفرنسيين ـ مع الفرنسية مدام دى ستايل ـ وفى كل البلاد الأوربية والأمريكية "مدام دى ستايلون"(١) كثير.

ولدينا مثل آخر من الواقع يعبر بقوة، عن اعتزاز الأمم المتحضرة بلغاتها؛ تستمسك بها، وتغار عليها، فلا تترخص فى أدائها سليمة قويمة فى كل المواقف والمواطن!!

منذ بضع وعشرين سنة تقريبًا ذهبت لدراسة اللغة الإنجليزية، فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وأذكر أن معلمة صغيرة السن ـ ولذلك دلالته الخاصة عندنا ـ

---

(١) جاز هذا الجمع هنا لأن اللفظ جعل شيئًا واحدًا يراد به الشخص الذى يتصف بهذه الصفة أو يشعر بهذا الشعور؛ فكأنه وصف لمذكر يجمع بالواو والنون.

تسمى "أريثمان" كانت تغضب وتثور إذا نطق أحدنا نحن تلاميذها الكبار كلمة مثل the من خلف الأسنان لا من بينها؛ أى بأن يكون النطق شبيهًا بصوت الزاى لا بصوت الذال، كما ينبغى أن يكون.

لقد خرجتُ بعد هذا الدرس أقول لإخوانى من صحبة هذه الدراسة(١) ليت وزارة التعليم ترسل معلمى اللغة العربية، إلى الجامعة الأمريكية؛ لا ليتعلموا الإنجليزية، ولكن ليتعلموا كيف يحبون لغتهم؟!

حب اللغة !!

هذا هو ما رأيناه يطل علينا بقوة معجبة ومؤثرة فى كلمة "دى ستايل" الفرنسية، وفى موقف "أريثمان" معلمة الإنجليزية الصغيرة. وهو كذلك ـ ما نراه فى مواقف كثيرة مشابهة، تأتينا أخبارها من كل مكان فى هذا الزمان؛ فنتعلم منها أن لغة الأمة هى "ذاتها" وآية تميزها، ومرآة حضارتها؛ ولذلك تغار عليها، وتعتز بها، وترفع ذكرها، وتعلى شأنها كل حين على نحو ما يظهر فى المثلين التاليين:

* المثل الأول: لفتة لفتتنى فى مقال صحافى قرأته قبل بضعة وثلاثين عامًا ولكن تلك "اللفتة" ما برحت ممسكة بمكانها المكين فى ذاكرتى ووجدانى، تلح على وترجع إلى كلما راجعت قضية العربية، أو راجعتنى!!

فى إحدى المقالات الشهيرة التى كانت تصدر فى الأهرام الأسبوعية تحت عنوان بصراحة للكاتب الكبير الأستاذ محمد حسنين هيكل أشهر الصحافيين فى ذلك الوقت، كان الموضوع: زيارة للصين ولقاء خطيرًا بقائد ثورتها وباعث نهضتها ومؤسس دولتها الحديثة زعيمها العملاق "ماوتسى تونج".

(١) كان معى فى تلك الدراسة إخوان أعزاء كلهم الآن ضمن أعضاء هيئة التدريس بدار العلوم الدكتور صلاح رزق، والدكتور محمد حبلص، والدكتور السعيد الباز.

فى هذا المقال ذكر الأستاذ هيكل ـ فى جملة ما أثبته عن الصين الشعبية وزعيمها ـ أن "ماوتسى تونج" فى حواره أبى إلا أن تكون لغة الحوار هى اللغة الصينية لا غيرها، على الرغم من معرفته الشاملة وإجادته الكاملة للغة الإنجليزية !!

ذلك ما لفتنى فيما قرأته قبل ثلاثِ عشرات ونِصْفِ عَشْرٍ من السنين يعاودنى حينا بعد حين؛ فما أَنسَ لا أَنْسَهُ، وهو حقيق أنَّ مِثْلى لا يَنْساه؟!!

* المثل الآخر: منذ عامين أو زهائهما، نشر فى بعض الصحف[1]، أن عضو المجمع اللغوى، عالم الزراعة المصرى الكبير الأستاذ الدكتور أحمد مستجير، قد دعى إلى مؤتمر علمى، نظمته إحدى المؤسسات العلمية فى ألمانيا الغربية، فلبى الدعوة وأعدَّ بحثًا بالإنجليزية للمشاركة فى أعمال هذا المؤتمر. لكن العلماء الألمان ـ مع تقديرهم العميق لشخص العالم المصرى ـ رفضوا أن يدور حوار، أو يلقى بحث فى مؤتمر ألمانى بغير اللغة الألمانية، فاعتذروا إلى العالم الكبير ثم استأذنوه فى ترجمة بحثه إلى لغتهم قبل إلقائه ؟!!

ذلك مثلان ـ أو حدثان ـ مختلفان فى الزمان متباعدان فى المكان، لكنهما يتلاقيان فى الدلالة، ويتماثلان فى الغاية؟! إذ تظهر لنا فى كليهما صورة ناطقة لمكانة اللغة عند أصحاب الحضارة، وفى تلك الصورة يتبدى لدى هؤلاء حرص أبىٌّ على "معنى" الأمة الذى يدركون أنه لا يتحقق فى أمة أو يتم لأمة إلا بلسانها. إن هؤلاء يملؤهم الشعور بتقديس "شخصية الأمة" ممثلة فى لغتها !!

فـ "ماوتس تونج" رمز عظيم لدى الشعب الصينى بغير شك. وهو يدرك حتمًا مكانته فى ضمير شعبه، ولكنه يعلم علم اليقين أنه ـ على مقعده هذا ـ لا يمثل نفسه، ولا يعرض ثقافته، وإنما يمثل "أمته" فحَقٌّ عليه ألا يخاطب زائرًا ـ مهما كان ـ

---

(١) نقل بعض الطلاب إلىّ ذلك خلال إحدى المحاضرات.

إلا بلسان هذه الأمة التى أسلمت إليه قيادها!! ذلك واجبه وتلك أمانة شعبه فى عنقه وكان موقفه "تجسيدًا" لأداء الواجب والنهوض بالأمانة؟!

والعلماء الألمان أرادوا أن يظهروا للعالمين اعتزازهم بحضارتهم، وتقديسهم لمعنى الأمة عندهم؛ فأبوا إلا أن تكون لغتهم هى لغة الحوار بين علماء جاءوا من مشارق الأرض ومغاربها للمناظرة أو المناقشة فى مسائل علمية مجردة؛ فماذا على هؤلاء لو تكلموا أو كتبوا بألسنتهم، أو بما يستطيعون من لسان ؟!

الحقُّ أن لا جناح عليهم فى ذلك، ولكن الألمان المعتزين بأنفسهم والغيورين على لغتهم، يرون شيئًا آخر؛ فالمؤتمر فى بلادهم على أرضهم، فينبغى أن يكون كما يحبون هم أن يكون؟!

وهكذا فرضوا على "المؤتمرين" "ألمانيَّتهم" بالذات أو بالواسطة، كما حدث مع العالم المصرى الكبير.

إن ما حدث فى الصين، ثم فى ألمانيا - مع ما أشرنا إليه آنفًا من كلمة "دى ستايل" وموقف الفتاة "أريشمان" معلمة الإنجليزية - يحدث مثله وأكثر منه فى أماكن عديدة، وأوطان متفرقة، تعرف شعوبها قيمة اللغة، وتدرك مكانتها فى البناء الحضارى لدى جميع الأمم والشعوب.

وقد كان العرب "الأولون" - فى هذا الشعور الجليل النبيل - روادًا سابقين؛ فما عرفت أمة، من قبلهم أو من بعدهم أحبت لغتها واعتزت ببيانها على نحو ما سجله التاريخ لهم فرواه عنهم، ونسبه إليهم؛ آية على ما أُشرِبُوا فى قلوبهم من حب "عربيتهم" والحرص عليها، والزهو ببيانها الذى علا فى أعينهم كل بيان، وحلا فى أسماعهم، ففاقت حلاوته جميع الكلام ... وكأنْ قد اختصوا بالبيان أو كأنْ قد اختص بهم البيان؛ فكان لهم وحدهم من دون غيرهم !!

وهكذا نُصِفَت الشعوبُ والأمم نِصْفين أو شُطِرَتْ شَطْرَيْن، على جانبين

أو طرفين متقابلين، أحدهما للعرب والآخر للأعجمين؟!

لقد حاطوا لغتهم بمشاعر الحب والغَيْرَة، فحرَصوا على سلامتها واشمأزت قلوبهم من تشويه صورتها أو تقبيح جمالها بلحن أو تحريف وحسبنا هنا أن نقرأ هذين الخبرين المشهورين، وكلاهما من العصر الأموى.

* **الخبر الأول:** "سئل عبد الملك بن مروان"[1] لم عجل إليك الشَّيْبُ؟ **فقال: شيبنى اعتلاء المنابر وتوقع اللحن؟!**

إن الخليفة الأموى العظيم، لم يلحن. ولكنه فقط يتوقع اللحن ويحذر الوقوع فيه؛ ولكن هواجس اللحن وخواطره بمجرد التوقع، كافية - عند هذا العربى الغيور - لإثارة الخوف وبث القلق؛ ليشتعل الرأس قبل موعده شيبًا؟! أنه حب اللغة وتوقيرها ولا شيء غير ذلك!!

* **والخبر الآخر:** عن الحجاج بن يوسف الثقفى[2] كانت ولايته ثقيلة الأعباء، شديدة التكاليف دائمة الصراع كثيرة الأعداء: أعداء أمته، وأعداء إمارته، لكن ذلك كله، لم يصرفه عن الاهتمام بالعربية، والتفكير فى أمرها، وملاحظة ما يمكن أن يطرأ عليها، بعد انتشارها بالفتوح واختلاط شعبها بغيره من الشعوب!!

نظر الحجاج إلى نفسه وتأمل ذاته: أيمكن أن يلحن؟! ثم توجه بالسؤال المفزع إلى يحيى بن يعمر أحد الأشياخ الأئمة بين اللغويين والنحاة فى ذلك العصر فقال الشيخ مداورًا: الأمير أفصح من ذلك؟ ولما عزم عليه أن يجيب، لم يكن من القول بُدٌّ فقال: فى حرف واحد! سأله فى أى الكلام؟ قال: فى كتاب اللّه قال:

---

(١) من أعظم الخلفاء الأمويين.

(٢) من أشهر وأقوى أمراء العهد الأموى، كان واليًا على العراق لعبد الملك بن مروان الذى تقدم ذكر خبره.

ذاك أشنع له! فأين؟ فدله على الموضع وحينئذ قال الحجاج: "إذن لا تسمعنى ألحن بعدها أبدًا، ثم نفاه إلى خراسان؟!

وهنا أيضًا لابدّ من وقفه تأمل!!

لقد كان خطأ الحجاج من قبيل سبق اللسان ليس غير. إذ قرأ يومًا ــ كما يقول الخبر ــ قوله تعالى: ﴿... أحب إليكم من اللّه ورسوله وجهاد فى سبيله ..﴾[1] بالرفع وحقها النصب ومعنى هذا أن الخطأ (بل سبق اللسان كما قلنا) محصورٌ فى حركة واحدة من كلمة واحدة، لكن ذلك كان أمرًا جللاً عندَ الأمير الغيور الذى كَبُر عليه أن يزل وأن يكون زَلَلُه فى كتاب اللّه وهو العربى الخالص الصميم ؟!

ألا إنه هو الحب العظيم للسان العربى المبين يتحلى هنا، كما تجلى هناك دليلاً على أن العرب حين صنعوا الحضارة، أدركوا قيمة لغتهم وضرورتها فى بناء هذه الحضارة فأحبوا هذه اللغة واعتزوا بها وغاروا عليها مثلهم فى ذلك مثل الأمم الحضارية التى سبقتهم أو لحقت بهم فى المسيرة الممتدة على الطريق الطويل للحضارة البشرية !!

إن الحرص على اللغة والاستمساك بها، حقٌّ مشروع وواجب مفروض على كل أفراد الأمة، وبخاصة المعلمون والعلماء والباحثون فى كل فروع المعرفة وأخصُّ من هؤلاء جميعًا: معلمُ اللغة، الذى ينبغى أن يكون هذا الشعور فى قلبه وروحه، وسائر كيانه. أمْكَن وأفْرَضَ وَأَوْجَبَ !!

---

(1) سورة التوبة الآية ٢٤: وكمالها: ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من اللّه ورسوله جهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى اللّه بأمره واللّه لا يهدى القوم الفاسقين ﴾.

ذلك أن الشعور بحب اللغة هو الأساس فيما يسمى "بشعور الانتماء" وهـو القاعدة التى تقوم عليها جهود الأمة كلّها فى سبيل التقدم والرقى، وتحقيق ما تطمح إليه من قوة ورخاء.

ولكن هذا الشعور الواجب المفروض غائب أو "مُغيَّب" عن واقع الحياة فـى الأمة العربية؛ إذ نرى أكثر العرب تجاه لغتهم واحدًا من اثنين:

- أولهما: غير عابئ بها ولا حريص عليها؛ ولا يـبالى: أتَسْقَم أم تسـلم؟ أتهبـط أم تعلو؟ أتكونُ أم لا تكونُ؟

- والثانى: كاره لها، ضائق بها، يراها عبئًا على لسانه وعائقًا لفكره؛ فَيُؤْفَكُ عنهـا أو يتجنبها ويتخذ من غيرها إلى البيان سبيلاً.

وبين هؤلاء وهؤلاء:

شرذمة قليلون.

لها محبون. وعليها عاملون.

وبها مستمسكون وفى طريقها سائرون.

ومن رحيق هذا الحبِّ الجليل، زيت مضيء؛ لتبقى جـذوة العربيـة مشتعلة، وبيانها الساحر سراجًا وهاجًا فى طرائق التعبير، وعلى معارج البيان.

ولكن هذا الشعور الواجب المفروض غائب أو "مُغيَّب" عن واقع الحياة فـى الأمة العربية؛ إذ نرى أكثر العرب تجاه لغتهم واحدًا من اثنين:

-أولهما: غير عابئ بها ولا حريص عليها؛ ولا يبالى: أتَسْقَم أم تسلم؟ أتهبـط أم تعلو؟ أتكون أم لا تكون؟

- والثانى: كاره لها، ضائق بها، يراها عبئـا على لسـانه وعائقـا لفكـره؛ فَيُؤْفَـك عنها، أو يتجنبها ويتخذ من غيرها إلى البيان سبيلاً.

وبين هؤلاء وهؤلاء:

شرذمة قليلون

لها محبون .. وعليها عاملون

وبها مستمسكون .. وفي طريقها سائرون

ومن رحيق هذا الحب الجليل، زيت مضيء؛ لتبقى جذوة العربية مشتعلة، وبيانها الساحر سراجًا وهاجًا في طرائق التعبير وعلى معارج البيان.

****

الجبهة الثانية

المسلمون

العربية لغة الإسلام:

يَميز العربيةَ من سائر اللغات أنها "**لغة دينية**"؛ تكـاد تنفـرد بهـذا الوصـف دون ما عرف للبشر من "أشكال الكلام".

لقد ارتبطت بالدين، وارتبـط الدين بهـا فـى عـروة وثقـى لا انفصـام لهـا، وذلك ما لم يعرف مثله لغيرها؛ لأن لغة أخرى - فيما نعلم - لا تتعين لقـراءة كتـاب من الكتب المقدسة بين يَدَىْ كتـاب الإسـلام، كمـا تعينـت العربيـة لذلـك الكتـاب لسانًا!!

لقد أرسل اللّـه تعالى، رسوله محمدًا ﷺ بـالهدى وديـن الحـق، وأنـزل عليـه كتابًا حكيمًا، قرآنًا عجبًا يهدى إلى الرشد، وقد شاءت إرادة الحق تبارك وتعالى أن يكون نزوله باللسان العربى المبين: قال تعالى:

-فى سورة يوسف: ﴿... **إنا أنزلناه قرآنًا عربيًا لعلكم تعقلون**﴾ [الآية ٢].

-فى سورة الرعد: ﴿... **وكذلك أنزلناه حكمًا عربيًا** ...﴾ [الآية ٣٧].

-وفى سورة النحل: ﴿... **لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين**﴾ [الآية ١٠٣].

-وفى سورة الشعراء: ﴿... **وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربى مبين**﴾ [الآيات ١٩٢ - ١٩٥].

-وفى سورة فصلت: ﴿...**كتاب فصلت آياته قرآنًا عربيًا لقوم يعلمون**...﴾ [الآية ٣].

-وفى سورة الشورى: ﴿... وكذلك أوحينا إليك قرآنًا عربيًا ...﴾ [الآية ٧].

-وفى سورة الزخرف: ﴿... إنا جعلناه قرآنًا عربيًا لعلكم تعقلون ...﴾ [الآية ٣].

هذه الشواهد التى استقصينا فيها ـ جهد طاقتنا ـ حديث القرآن عن "لغة القرآن"، تدل على أمرين بدهيين لازمَيْن:

أولهما: أن القرآن عربى!!

والآخر: أن هذه "العربية" أمر من اللّه، وتنزيل، ووحى يوحى، ومن أجل ذلك لم نكتف بشاهد منها أو اثنَيْن ـ مع أن ذلك كافٍ ـ لأن هذه الآيات البينات الكريمات تتظاهر على إثبات ما نزعمه من أن "المسلمين" بعض مشكلة العربية، وعنصر من عناصر الخصومة الموجهة إليها.

إنها بيان للعالمين "أن القرآن العظيم، هو كتاب الإسلام الكريم، وأنه نزل ـ بأمر اللّه تعالى ومشيئته، عز اسمه وجلت حكمته ـ باللسان العربى المبين!!!

ومعنى ذلك أن الإيمان بالإسلام، يستلزم الإيمان بالقرآن. وأن القرآن عربىٌّ؛ لا يتلى، ولا يتعبد بتلاوته فى غير العربية. أى أن هذه اللغة "فريضة دينية" على جميع المسلمين من العرب ومن الأعجمين؛ كلُّهم سواء فى وجوب تعلمها وحمايتها، وأن يرعوها حق رعايتها؛ فذلك طريقهم إلى الفهم القويم للدين الحنيف.١

وكذلك هو سبيلهم إلى أن يكونوا أمة واحدة، هى ـ كما وصفها اللّه ـ خير أمة أخرجت للناس.

هذا مكان العربية ومكانتها من الإسلام والمسلمين.

ومن جهة أخرى كان ظهور الإسلام ونزول القرآن الكريم هو بداية التحول العظيم فى تاريخ العربية ومسيرتها، وصفتها "الانتمائية".

ذلك أن الإسلام قد نزع عن هذه اللغة المجيدة، قشرة "المحلية والقومية"؛ إذ

أخرجها من محبسها الضيق المحصور بين الأرض والجنس، وارتاد بها آفاقًا واسعةً رحيبة، فتجازوت - بكفاءة نادرة - حدود الزمان، وحواجز المكان وصارت لغة الإسلام والمسلمين متى يكونوا، وأينما يكونوا.

وقد أدرك الأولون هذه الحقيقة، فشدتهم إليها ووصلتم بها وصهرتهم فيها؛ فصاروا جميعًا مسلمين، سواء عربيهم وعجميهم أمام رب العالمين.

وحين بدأت النهضة العلمية الهائلة؛ وخرجت كتائب العلماء، ترفع فى ميادين العلم والمعرفة صرح الحضارة الإسلامية الشامخة - نفرت منهم طائفة إلى ميدان اللغة، تحرسها وتحميها، وتحفظها من عوادى اللحن، وغوائل التحريف، وكان العرب وغير العرب فى هذا الجهاد فريقًا واحدًا، يسارعون فى الخيرات ويستبقون المكرمات؛ إذ أدركوا أن العمل للعربية إنما هو امتداد للعمل من أجل الإسلام.

وهكذا رأينا فى تاريخ العربية وتراثها المجيد قممًا شوامخ من أصول غير عربية تقف على صف واحد مع العرب الأقحاح من العلماء!!

نرى: سيبويه والمبرد، وابن قتيبة، والأصمعىَّ، وثعلبًا، والفراء، والكسائىَّ، وابن جنى والفارسى - وغيرهم كثيرٌ - مع العلماء الأعلام من عاربة العرب: الخليل، وأبى عمرو بن العلاء، وأبى زيد وابن هشام وغيرهم أيضًا كثيرٌ.

لقد كانوا مسلمين أحبوا الإسلام، وأحبوا القرآن فكان حقًّا عليهم أن يحبوا لغة الإسلام ولسان كتابه المبين.

ومن هنا لا نعجب حين نقرأ لابن جنى مثلا (وهو ابن أبوين روميين) كلامًا طويلاً عن العربية وقيمتها، وشجاعتها ومزاياها التعبيرية الهائلة، فنحس أننا نقرأ قصيدة فى حب اللغة، لا كتابًا فى خصائصها وأصولها.

وما هذا - وأمثلته دونها الإحصاء - إلا لأن القوم جميعًا وصلوا بين الإسلام

الذى آمنوا به وأحبوه، واللغة التى نزل بها كتابه؛ فأحبوها وبلغ حبُّها فى قلوب كثير منهم، مبلغ حبِّهم للإسلام والقرآن.

ومن هنا قلنا إن العربية - منذ طلع فجر الإسلام وسطع ضياؤه - قد تغير وصفاها وانتماؤها؛ فصارت بحق لسان الإسلام، ولغة "أمته" فى كل مكان؛ وكان ذلك من أعظم الأسباب لقوة الوحدة، ووثاقه "عروتها" بين المسلمين.

ثم بُدِّلَ الأمر غير الأمر؛ فصار التفرق اللسانى والتعدد اللغوى تويجًا لاختلاف الكلمة، وافتراق الصف، واستمرار التنازع بين إخوان الدين ..! غير أن التأمل، فى هذا التنازع؛ لمعرفة بواعثه وغاياته، أو الوقوف على أسبابه، يردنا أو ينتهى بنا إلى حالة شبيهة بعاصفة "الشعوبية" التى هبت على الأمة وهى فى عنفوانها فأوشكت أن تعصف بها، ولكن اللّه سلم.

ذلك أنَّ "حالة اليوم" ترجع - كحالة الأمس - إلى الاعتزاز العنصرى، الذى تَغْذُوه وتُذْكِيه قُوًى كثيرةٌ، تسعى بإصرار إلى تفتيت كل مظاهر القوة والوحدة بين الشعوب الإسلامية؛ لكى تظل "شعوبًا" فلا تكون "أمة" أبدًا؟!

نحن - إذا - أمام "شعوبية" جديدة؛ دفعتنا إلى أن نجعل بحث هذا الجزء من القضية تحت العنوان التالى:

* رجعة الشعوبية:

ظهرت "الشعوبية" الأولى "فى العصر العباسى، حين دبَّ دبيب الفتنة بين العرب وغيرهم من المسلمين. وقد أعانت "عوامل" كثيرة على إذكاء نار الخصومة، بين الفرقين، وكانت دسائس الخفاء ومكايد الراصدين والمتربصين وراء ارتفاع اللّهب، وبقاء المنابزة والمهاجاة بين "الأعراق" و"الأجناس" فكان المسلمون من غير العرب يطعنون على إخوانهم، ويُزرون بهم، ويحطون من شأنهم، ومن أكثر هؤلاء وأشدهم: بشار بن برد وأبو عبيدة مَعْمَرُ المثنى.

وكان من البدهى أن يتصدى لذلك من يذب عن العرب، فيردّ مطاعن الطاعنين، ويدحض مثالب الثالبين، وفى الوقت نفسه يثبت المفاخر والمناقب لأمة العرب. وكان "الجاحظ" من أكبر الأعلام فى هذا الفريق!!

وذلك هو ما جاء الإسلام ليقضى عليه، ويجتثّ من أعماق النفوس أصوله؛ كى تبقى لأمته وحدتها، ولدعوته قوتها، ويظل المسلمون ـ عربًا وعجمًا ـ عباد الله إخوانًا!!

ثم قضى الحزم والحكمة، وقوة الدولة ـ فى ذلك الوقت ـ على هذه الفتنة، ولكن بقيت فى طوايا القلوب وحنايا الصدور أَثَارَةٌ منها. يلمع "وميضها" من تحت الرماد، حينًا بعد حين!!

إننا هنا لا نستطيع أن نفصل القول فى "الشعوبية" وآثارها العاصفة بوحدة الأمة الإسلامية وقوتها، ولكنا فقط أردنا أن نثبت ما أشرنا إليه آنفًا، وهو عودة الشعوبية بصورة ما، أو على نحو ما، فى حالة التفرق التى نراها بين المسلمين وامتناع الشعوب الإسلامية الكثيرة، من أن يكون للغة العربية وجود ظاهر مؤثر فى أنظمتها التعليمية، لأن اللغة هنا ليست مجرد لغة، تفرضها "قوة الغالبين" كما تفرض اليوم لغات الدول التى تمد سلطانها، وتبسط نفوذها على المستضعفين فى الأرض فى كل مكان. كلا! بل هى لغة لها خصوصيتها التى تنأى بها عن الاعتبارات السياسية والعسكرية التى صاحبت فرض لغات الغالبين على المغلوبين. ويوم انتشرت العربية انتشارها غير المسبوق وغير الملحوق، لم يكن السلاح ولا بطش الغَلَبة هو الذى فرضها أو أكره الشعوب عليها!

وإنما انتشرت لأنها ارتبطت بالدين الذى فتحت له أبواب قلوبهم ومغاليق نفوسهم. فهى أداة هذا الدين، ومجلى حقائقه، وهى سبيلهم إليه.

من هنا كان حقًّا على الأمم الإسلامية اليوم ما حَقّ عليها بالأمس، وهو أن

تربط وحدة دينها بوحدة لسانها، فذاك هو طريق وحدة التصور والفهم، وهو طريق وحدة الموقف. وهو اختيار لا معدى لها عنه، في مواجهة العواصف ومدافعة الأعاصير.

فماذا فعلت الأمة الإسلامية بلغة الإسلام؟!

لقد انتهى أمر الأمة الإسلامية إلى قطع متباعدة، وأشلاء متناثرة، على حين جَدّ أعداؤها في إيقاد نيران العصبية بينها؛ فأغروا كل جماعة بنفسها، وزينوا لها الانفراد بكيانها والاعتزاز بلسانها، ونَبْذ العربية من كلامها؛ لتبقى هذه الأمة إلى نهاية الزمان أمما شتّى، وشعوبًا مختلفةً ـ كحالها اليوم ـ؛ فلا تلتقي على كلمة ولا تتوحد في موقف.

* السيطرة اللغوية والاحتلال العقلي:

ومن أجل ذلك، رأينا "شعوب الاحتلال" الغربي تعمل بقوة وإصرار لإحكام سيطرتها اللغوية، على أكثر أرجاء العالم الإسلامي؛ لتكون لغاتهم "ركائز" قوية، وقواعد متينة لاحتلال من نوع آخر، أجدى عليهم وأنفع لهم من "الاحتلال السياسي والعسكري" الذي لا يمكن أن يبقى. فضلا عن أنه يكلفهم كثيرًا من الجهد والرجال والمال.

أما الاحتلال الذي تعد اللغة ركيزته، وقاعدته، ومركز دائرته فهو خير لهم وأبقى؛ يتواصل عطاؤه، ويتدفق على أجيالهم المتعاقبة ثماره. دون أن يحتملوا مشقة، أو ينفقوا مالاً، أو يرسلوا رجالاً. وذلك هو الاحتلال الفكري أو الثقافي، وقد كانت اللغة أعظم وسائل هذا الاحتلال[1].

---

(١) حاشية ضرورية، وتنبيه لازم:

لفظ الاحتلال هنا مراد لذاته؛ فلا يصلح لفظ الغزو في مكانه! ذلك أن "الواقع الثقافي" في جميع =

* من آثار "السيطرة اللغوية" على الأمة:

من البدهى أن تكون لهذه السيطرة آثارٌ كثيرة على "توجهات" البلاد الإسلامية المختلفة، غير أن هناك أثرين نرى اللفت إليهما والتنبيه عليهما أمرًا لازمًا؛ خطورتهما ووثاقة صلتهما بالقضية التى نعرضها وذلك هما:

الأثر الأول: لقد أدت هذه السيطرة إلى "إقصاء العربية" وإغلاق كل المنافذ أمامها؛ كيلا تسترد مكانها، أو مكانتها عند المسلمين؛ وبذلك تمزقت خيوط التواصل "الوجدانى" أو النفسى بين أبناء الأمة الواحدة؛ فصارت "العلاقات" سياسية أو "رسمية" مثل كل "أشكال العلاقات" بين أمة وأخرى.

ولهذا يحس المسلم بالغربة فى أى وطن إسلامى غير وطنه، وذلك ـ بغير شك شعور طارئ، على أحوال هذه الأمة وأوضاعها فى هذا الزمان.

الأثر الثانى: أن "المحتل" قد نجح فى أن يغرس فى "وجدان" الشعوب الإسلامية غير العربية شعور "المقاومة" ـ إن لم نقل شعور الكراهية والنفور ـ للغة العربية.

حقًّا، كانت "جذور" هذا الشعور كامنة منذ اشتعلت فتنة الشعوبية الأولى، ولكنه عمل بقوة، على "استثارة" تلك الجذور، وإعادة استنباتها واستثمارها.

=

البلاد الإسلامية ـ دون استثناء ـ قد تجاوز مرحلة "التعرض للغزو" إلى مرحلة الخضوع التام للاحتلال، إن الغزو الفكرى ـ كمثل دأب الغزو السياسى والعسكرى ـ يمكن أن يرتد على أعقابه من غير أثر واضح يتركه، إذا استعصمت الأمة فاعتزت بذاتها واستمسكت بتراثها، فلم تسلم نفسها فريسة سهلة لغزاة العقول والنفوس والأفكار .. ولكن ما نراه فى أوطان المسلمين رأْىَ العين شيءٌ آخر، إن هو إلا احتلال كامل شامل، يمد نفوذه وقوته وسلطانه إلى كل ركن، وإلى كل شىء فى هذه الأوطان.

وكأنه بذلك يحمى "مخططاته" فى إحكام السيطرة على هذه الأمة من جميع أقطارها، ببث الفرقة بينها وإذكاء نارها ليبقى اتقادها ويمتد لهيبها؛ وإن بقاء "التعدد اللغوى" لهو أكبر ضمان لبقاء الفرقة واستمرار الاختلاف.

ومن أجل ذلك ترى المسلم الباكستانى أو الهندى أو التركى أو الإيرانى ـ ترى كل واحد من هؤلاء وكأنه يضع لسانه خلف "سور حديدى" فولاذى الباب؛ فلا ينفذ إلى العربية، ولا تنفذ العربية إليه مهما اقترب منها أو اقتربت منه، ولو عاش بين أهلها وعلى أرضها، سنين عددًا !!

إنه حجاب نفسىٌّ وشعورىٌّ، جعل هؤلاء جميعًا يعصمون ألسنتهم من العربية، ولو تهيأت لهم الأسباب ويُسِّرَتْ أمامهم السبل لتعلمها بل إتقانها؛ ولكنهم لا يتعلمون لسبب غريب وعجيب، وهو أنهم لا يريدون!! وهم بهذا يمثلون استثناءً فريدًا من القانون العام لتعلم اللغات؛ إذ من المعلوم أن أى إنسان يتوفَّر على دراسة لغة ـ مهما كانت ـ ابتغاء تعلمها واتخاذها وسيلة إلى العلم أو غيره من الغايات فإنه يتمكن منها ويقدر عليها فى مدى لا يجاوز عامين أو ثلاثة فى أكثر تقدير.

ولكن كثيرًا من هؤلاء يعيش سنوات بعد سنوات فى وسط البيئة العربية، بين أهلها وعلى أرضها دون أن يتعلم شيئًا من لغتها، لأنه ـ كما ألمحنا آنفًا ـ لا يريدها، وليس فى حاجة إليها؛ إذ قد عزل كل قوم أنفسهم فى داخل ما يمكن عَدُّه "جزيرة لغوية" مغلقة عليهم، يجد أفرادهم فيها كل شىء، دون أن ينطق أحدهم كلمة عربية واحدة.

وهاكم الدليل فى الأمثلة التالية !!

١ . عشت فى المدينة المنورة ـ وهى جزءٌ من قلب الجزيرة العربية ـ ست سنوات كاملة.. وقد أتيح لى أن ألتقى بعدد كبير من أبناء العالم الإسلامى يمثلون أنحاء كثيرة منه، وأجناسًا متعددة فيه. وقد راعنى فى كثير منهم أمران متناقضان، أو هكذا عددتهما، ونظرت إليهما !!

أحدهما: حفظ القرآن الكريم كله، بدرجة عالية جدًا من التمكن والثبات.

والآخر: جهل عظيم - يكاد يكون تامًا - باللغة العربية، مع ملاحظة أن أكثر هؤلاء يستوطنون المدينة المباركة - تباركًا وحبًا - منذ بضع عشرة سنة .. بل قابلت شيخًا كبيرًا حافظًا أيضًا، ثم عرفت أنه يعيش فى المدينة مقيمًا منذ أكثر من عشرين سنة. ولكنه لا يعرف من "لغة القرآن" إلا كلمات قلائل، لا تتعدى أصابع اليدين عدًّا.

٢. مثل من المدينة المنوّرة أيضًا: دعا شيخ أفغانى حافظ، طائفة من "أهل القرآن" فى المدينة، إلى مأدبة عشاء فى بيته، وقد تكرم بدعوتى أيضًا، فعقدت العزم على أن أثير قضية العربية معهم، أو قضيتهم مع العربية فى هذا اللقاء الطيب؛ ثم تحدثت إليهم مستعينًا بمترجم منهم؛ فتصدَّى لى أحدهم - وهو باكستانى - قائلاً بغضب ظاهر: كيف ياشيخ؟! إن العربية للقرآن. وبعد ذلك الأوردو أوردو، والهندى هندى ... أو كما قال؛ وهو يعنى: أنهم ليسوا بحاجة إلى العربية إلا حين تلاوة القرآن. ولكنهم بعد التلاوة فى حل من هذه اللغة، لأن لكل وجهة فى الكلام هو موليها!!

إن الذين قابلتهم وعرفتهم وحاورتهم فى أثناء إقامتى بالمدينة النبوية لا ينتمون إلى بلد واحد، أو جنس واحد، بل هم ممثلون لأكثر البلاد الإسلامية؛ إذ تأتى جماعات وطوائف كثيرة منهم إلى هذه البقعة المباركة، ثم يهيمون بها، فيتخذونها مستقرًا لهم ومُقامًا: إنهم باكستان، هنود، وأتراك، وبخاريون، وأفغان، وغير هؤلاء وهؤلاء من أرجاء العالم الإسلامى كافة.

وهكذا ننتهى إلى الحقيقة الثابتة فى قضية المسلمين والعربية!!

إن أكثر المسلمين غير العرب لا يريدون هذه اللغة ولا يحرصون عليها ومن أجل ذلك، لا يتعلمونها، ولو تهيأت أمامهم أسباب التعلم وكان أحدهم قادرًا عليه.

٣. لقد عرفت ـ فى رحلة دينية إلى "هيوستن" فى الولايات المتحدة[١] رجلاً باكستانيًّا ـ يجيد سبع لغات إجادة كاملة وليست العربية ـ وهى لغة دينه ـ واحدةً منها؛ فكيف هذا ؟!

٤. وفى محاضرة ألقيتها على الطلاب السنغال فى ناديهم بالقاهرة، رأيت أحد كبارهم، تعلم فى الأزهر، ثم عمل فى الإذاعة المصرية منذ تخرجه قبل نحو عشر سنوات، ولاتزال "عربيته" ضعيفة ناقصة؛ فكيف هذا ؟!

إن المرجع فى "هذا" وفى "هذا" ـ وغيرُهما كثير ـ إنما هو فِقدان هذه الشعوب لما نسميه: "إرادة تعلم العربية" فلماذا لم يتعلمْ هؤلاء جميعًا لغة الدين الذى آمنوا به واتبعوا سبيله، ثم قرأوا كتابه الذى أنزله ربُّ العالمين عربيًّا مبينًا ؟!

لقد جاء الحديث عن "عربية القرآن" فى مواضع مختلفة، وسياقات متعددة فى الكتاب العزيز، تأكيدًا لقوة الصلة بين هذه اللغة والدين الذى يدين به المسلمون، غير أن فى سياق سورة الشعراء خاصة، دلالة قوية على أن هذا الارتباطَ من مقتضيات الإيمان بالإسلام؛ ذلك أن الآية الأولى تثبت مصدر القرآن: ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين ﴾ وما أعظم دلالة كلمة "العالمين" هنا! إنها تؤكد امتداد المخاطبة به إلى كل أجناس البشر. ثم تأتى الآية الأخيرة فى السياق؛ لتثبت أن "اللسان" المختار لهذه المخاطبة هو اللسان العربى المبين.

فكأنَّ آيات السياق تقول ـ والله أعلم ـ إن الذى أنزل القرآن هو رب البشر أجمعين، وقد شاء ـ جلت حكمته ـ أن يجعله باللسان الذى شرفه وكرمه، إذ اصطفاه بهذا التنزيل على ألسنة العالمين!!

فلِمَ لَمْ يتعلم المسلمون لغة، افترض دينهم عليهم تعلمها وحبها؛ لأن حبَّها من حب هذا الدين؟!

---

(١) كانت فى سنة ١٩٨٦م.

إن الجواب صعب، غير أن "لحن القول" ودلالة الواقع في الأمثلة المتقدمة وفى غيرها ـ يرجح ما قدمناه من تفسير، وهو أن الشعوب الإسلامية قد "أقيمت" بينهم وبين العربية سدود، وحواجز نفسية وشعورية تمنعهم منها وتصدهم عن سبيلها، وتقر فى أعماقهم ضرورة استقلال اللسان، مع "خصوصية" الكيان!!

وإذ لم يكن هذا "التفرق" فى مصلحة الأمة بشَطرَيْها: العرب والعجم، فلابد أن تعمل قوى كثيرة على إضرام ناره، "وتجسيم" أمره ومد آثاره فى كل مكان، إلى كل مكان !!

نريد أن نقول: إنّ قوى عديدة فى العالم اليوم ـــ ترى أن الضمان الوحيد لبقاء سيطرتها على العالم الإسلامى، هو أن يبقى متفرقًا، وليس إلى هذا "الضمان" من سبيل، إلا أن توضع الحوائل والعوائق، فى طريق أى توحُّد فكرى أو ثقافى. وإذا كانت اللغة من أهم أسباب التوحد، ومن أقوى وسائله، فما ينبغى للعربية ـــ لغة الإسلام ـ أن تجد إلى "بقعة" واحدة من أرض المسلمين سبيلا.

ومن أجل ذلك، جهدت هذه القوى فى أن تربط العربية بالعرب لا بالإسلام لكى تكون أرض المسلمين دائمًا تربة صالحة لاستنبات بذور الفرقة والشقاق ودعاوى العصبية بين الأعراق والأجناس !!

فالمسلمون لا ينكرون العربية، ولكنهم يخشون العرب وسيطرتهم وأن يعود إليهم سلطانهم القديم !!

تلك هى الآفة الخبيثة التى تبثها قوى مختلفة فى الشرق والغرب، وفى الداخل والخارج؛ تعمل بدهاء وذكاء وصبر، من أجل أن تبقى هذه الفرقة فى قلوب المسلمين. ولعل هذا هو السبب الحقيقى "اللاشعورى" فى كلمة أخى الباكستانى الذى احتد فى مأدبة العشاء قائلاً ـ كما ذكرنا فيما تقدم ـ ما حاجتنا يا شيخ للعربية؟! الأورود أورود والهندى هندى!! إلى آخر ما قال ...

وأخو باكستان، يصور بكلمته، واقع الحال بين المسلمين والعربية تصويرًا مبينًا، ليس فوقه بيان!! إن القرآن بالعربية. هذا حق لا شك فيه! ولكنهم ليسوا عربًا، بل لهم لغاتهم التى لا يبغون عنها حِوَلا !!

صاحبنا ـ إذا ـ لا يريد من العربية، إلا قراءة القرآن، فلا حاجة به ـ من بعد ذلك ـ إليها، ولا مكان عنده لها.

هذا هو شأن العربية، فى بلاد المسلمين! وهو "شأن" أعانت عليه القوى التى تسعى إلى دوام الشقاق بين شعوب الأمة، فزينت لها "عقيدة الجنس والعرق" لتختفى وراء حُجُبها الكثيفة "عقيدة الأمة الواحدة" التى أصّلها الإسلام.

وتلك هى الحقيقة الغائبة عن كلا الفريقين: أعنى العرب وغيرهم من أمم العجم التى دخلت فى دين الله أفواجًا.

وفى هذا شبه كبير بما عرف فى تاريخ أمتنا بالشعوبية، وهى فى الحقيقة ـ طائفة من دعاوى العصبية والجنسية، كادت تعصف بالأمة فى عهد قوتها ومجدها.

وعندنا أن ما يحدث اليوم، إن هو إلا صورة لما حدث بالأمس !!

لقد دفعت الأمة ـ بغير قصد ـ إلى "شعوبية جديدة" تغذو روح الفرقة، وتذكى نار الفتنة، وتبقى أسباب الشقاق !!

ثم تتصايح "العنصريات"، والعصبيات، و"القوميات"؛ ليخفت صوت الأخوة، ويخبو نور التوحد، فيزهق فى الأمة "معنى الأمة" كى تتداعى إليها القوى كما تداعى "الأكلة إلى قصعتها "ذلك ما يحدث اليوم، وهو ما تنبأ به نبى هذه الأمة ﷺ .. ومن هنا قرّرنا ما قررناه آنفا مِنْ أن: "العربية لغة الإسلام" .

وإنها لحقيقة ثابتة، لا ينفيها جدل الجَدِلين، ولا مراء الممترين! فالعربية ـ

منذ ما ينيف على أربعة عشر قرنًا ــ فارقت ارتباطها "العنصرى"[1] بالعرب؛ واستبدلت به ارتباطًا روحيًا وثيقًا خالدًا بالإسلام؛ لا ينفك هذا الارتباط، ولا يزول، ومحال أن يزول !!!

ومن أجل ذلك، تنفرد العربية ـ في رأينا ـ بصفة "اللغة الدينية"؛ إذ هي ــ بين اللغات ـ الوحيدة التى ارتبط بها كتاب مقدس منزل من عند اللّه عز وجل؛ فلا يجوز فى عقيدة المؤمنين بالإسلام أن يقرأ "نصه" أو يتعبد بتلاوته إلا فى هذه اللغة.

فهل غابت الحقيقة عن كلا الفريقين من المسلمين، أعنى: العرب، والأعجمين؟!

يدل الواقع المشاهد، على أن الحقيقة المذكورة قد غابت عنهم، أو أريدت على أن تغيب. ولهذا قَصَّر جميعهم فى أمرها، وأهدروا حقَّها!!

فالعرب ـ تحت مظلة القومية ــ لم يلتفتوا إلى خطورة ابتعادهم عن الأمة الإسلامية، وابتعادها عنهم، حين تزول الرابطة اللغوية بينهم وبينها؛ واللغة العربية، أهم قواعد التواصل الروحي وأعظم وسائله.

والعجم ــ تحت لواء "الاستقلالية" أو "الذاتية الأممية" ــ لم ينشطوا فى استبقاء العربية أداة لازمة لقوة الإسلام فى قلوبهم، وقناة متدفقة:

لتواصُلٍ حتم، لا غنى عنه، بين الشطرين!

وتوحُّد لازم دائم، لا انفصام له؛ بين الفريقين!

على أننا ـ فى هذه الكلمة ـ لا ندعوا أيا من الطائفتين إلى موقف ينزعها

(١) المراد بالعنصرى: الجنسى أى ارتباطها بجنس من البشر؛ غير أن لفظ العنصرى محدث،فأثرناه من باب المشاكلة؛ لأن خطاب هذه الصحائف موجه فى أصله وأساسه إلى المعاصرين.

عن أصلها، أو ينزع أصلها عنها؛ فذلك غير ممكن، وما هـو الآن بـالأمر المقبـول أو المعقول.

فليس مقبولا ولا معقولا، أن ندعو العرب إلى أن يَنْسَوْا أنهم عـرب وأنهـم أصحاب اللغة، وأهلها المسئولون عنها والعاملون عليها!! وليس مقبولا ولا معقـولا، أن ندعو غير العرب أن يَنْسَوْا أصولهم، أو يتركوا ألسنتهم الأولى!!

وإنما نُذكِّر "القبيلين" بحقيقة الوظيفة التى تؤديها العربية، منذ بزغـت شمـس الإسلام، وسطع ضياؤه، ونزل الكتاب العظيم باللسان العربى المبين !!

لقد تغيرت "صفة" العربية منـذ اختارهـا اللّـه تعـالى لتكـون لسـان القـرآن والإسلام، وتحولت وظيفتها من مجرد أداة للتواصل أو التعبـير (كـأى لغـة) إلى غايـة أبقى وأبعد، وأخلد، إذ ترتبط هذه الوظيفة بأهداف الإسلام وغاياته.

فإذا ما اتفقنا على ذلك، تعين على الفريقين أن يُعَدِّلوا فى موقفهم مـن لغـة الدين الذى شرح اللّه صدورهم له، وألف بين قلوبهم به !!

إن جميع المسلمين ـ عربًا وأعجمين ـ مطـالبون بـترك حالـة "السـلبية" التـى سيطرت عليهم تجاه العربية.

فالعرب عليهم ـ بعد أن يحفظوا لغتهم فى بلادهم ويصونوها على ألسـنتهم ـ أن ينهضـوا جـادّين، ويسـعوا مخلصـين فـى تعليـم اللغـة العربيـة لكـل الشـعوب الإسلامية.

هذا فى رأيى واجب مقدس وفريضة مفروضة على الحكومات والمؤسسات العلمية والتعليمية فى جميع الأقطار العربية كل على قدر طاقاته[1].

---

(١) منـذ بضعـة أعـوام حـين كنـت بالمدينـة المنـورة، شـاركت فـى نـدوة عـن: (الإسـلام فـى الاتحـاد السوفيتى)، وكان ضيف الندوة واحدًا من كبار المسئولين فى رابطة العالم الإسلامى بمكة المكرمـة، =

وأما غير العرب من المسلمين، فحق عليهم، أن ينظروا إلى "العربية" بوصفها لغة الدين الذى يؤمنون به ويتعبدون لله عز وجل بتلاوة قرآنه؛ وذلك يفرض عليهم، أن يَجِدُّوا فى تعلم هذه اللغة وإتقانها مهما كانت الظروف ومهما كانت أعباء هذا التعلم وتكاليفه؛ لأن العربية هى وسيلتهم إلى الفهم الصحيح للإسلام؛ كما أنها طريقهم إلى "الانخراط" فى سلك الوحدة الإسلامية التى لا غنى لهم عنها.

هذا ـ فقط ـ هو ما أردنا تقريره هنا، متوجهين بخطابنا فيه إلى جميع المسلمين ـ لا إلى العرب وحدهم ـ أن يحملوا جميعًا أمانة العربية عسى أن يكون "توحد" اللسان، طريقًا إلى توحد الكيان وتحقق الأمان.

وما علينا بعد من سبيل، أن يغضب الغُلاة من دعاة القومية أو العنصرية هنا وهناك !!!

فَالْحَقَّ نريد وسبيله نتبع، ووجه اللّه تعالى أحق أن يبتغى.

****

=

وقد وجهت إليه سؤالاً عن العربية: مكانها ومكانتها فى تلك البلاد!! فكان جوابه ـ جزاه اللّه خيرًا ـ إقرارًا بأهميتها وضرورتها لحسن فهم الإسلام ولتيسير أمر الدعوة هناك ـ ولكنه فى الوقت نفسه أقر بأنه ليس لديهم أو لدى غيرهم برامج كافية لتعليم العربية لأولئك المسلمين.

الجبهة الثالثة

العداوة الخارجية

تلك أيسر الخصومات، على الرغم من شدة بأسها، وفداحة كيدها:

أولاً: لأنها ظاهرة ومتوقعة؛ أجراسها تدق، فتنبه الأمة للمواجهة والمدافعة.

وثانيًا: لأنها ما كانت لتبلغ مأملاً، أو تدرك فى سعيها غاية، لو لم تُمْهَد الأرض أمامها، وتذلل السبل بين يديها، بخصومة العرب، وخصومة المسلمين؛ لن تمار هذه العداوة، وآثارها الظاهرة فى كل مكان - إن هى إلا نتيجة لازمة لموقف هؤلاء من لغة الإسلام ولسان القرآن !!

وأيًا ما كان قولنا، أو "وصفنا" لطبيعة هذه العداوة، ومظاهرها، وأسبابها ونتائجها، فإنها "جبهة" قوية عنيدة بين جبهات الخصومة التى اختُصَّت العربية - من دون سائر اللغات - بمواجهتها، واحتمال أعباء مقاومتها، وأوزار التصدى لها !!

فما أسباب العداوة؟ وما أظهر أعمالها ضد العربية؟

هذان سؤالان، أو سؤال واحد ذو جانبَيْن فلابد من جواب !!!

أما الأسباب، فالحق أنها لا ترجع إلى "العربية" فى ذاتها؛ لأنها - بهذا الوصف - ليست بدعًا من اللغات، وبخاصة ذواتُ الحضارات، بل هى واحدة منهن فلماذا لم يتحدث أحد فى الشرق أو الغرب عن الإنجليزية، أو الفرنسية، أو الألمانية، أو الإيطالية أو غيرها من اللغات الحضارية المعروفة فى التاريخ؟

إن السبب فى ذلك - عندنا - يرجع أولاً وآخرًا إلى ما تمثله العربية من عقيدة وقيم ومبادئ، وأصول ومثل، انبجست من الدين الذى آمنت به هذه الأمة، وأذعنت لما يدعوها إليه ويحضها عليه؛ فالسهام الموجهة إلى "اللغة" يقصد بها

"الدين" الذى ارتبطت به العربية، وارتبط بها، وقد رَأَوْا فـى مبادئـه الأخـاذة ومثلـه المتسامية، وسلطانه المستمر - مصدر خطر كبير متجدد على قوتهم وسيطرتهم التـى ينبغى أن تمتد إلى جميع الأمم والشعوب؛ وإذ كانت "العربيـة" هـى لغـة هـذا الديـن ولسان قرآنه، وطريقه إلى قلوب المؤمنين، فينبغى أن "تزحـزح" عـن مكانـهـا وتـنـزل من مكانتها. فتضعف عند قومها، ويحال بينها وبين شعوب دينها.

ومعنى هذا، أن قد كان لهؤلاء عملان، أحدهما فى البـلاد العربيـة والآخـر فى البلاد الإسلامية غير العربية، وقـد أجملنـا الإشـاة إليهمـا والحديـث عنهمـا فيمـا سبق، وفيما يلى شيء من التحديد والتوضيح لتلك الإشارة!!

سار هذا النوع من الخصومة فى طريقين أو اتجاهين:

١. الاتجاه النظرى. ٢. الاتجاه العملى.

١. الاتجاه الأول:

الأفكار والآراء النظرية فى الكتـب والمقـالات والبحـوث التـى تنشـر فـى الشرق والغرب عن العربية والإسلام.

ومن ذلك ما كتبه المستشرق "فولرز" وتلميذه "كاله" حول إنكار الإعراب فى "العربية الأولى" بل يذهبان إلى ما هو أبعد مـن ذلـك؛ إذ يـرى الأول أن القـرآن كان - فى بادئ الأمر - بلسان محمد ﷺ أى بلهجة مكة الخالية مـن الإعـراب، وأنـه يدين بأسلوبه الذى وصل إلينا، إلى تنقيح خاضع للقواعد التى اعتمدت فـى العربيـة على الأخص من حيث الإعراب[1].

أما (كاله) فقد كتـب فـى سنة ١٩٤٧م مقـالاً بعنـوان "القـرآنُ والعربيـة" وآخر بعنوان "القراءُ العربُ للقرآن". وفي كلا المقالين يذهب إلى أن الإعراب شيء

---

(١) انظر العربية يوهان فك ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ص٤.

دخيل على العربية، وأن القرآن لم يكن مُعْرَبًا؛ بل صنع النحويون، قواعدهم الخاصة بالإعراب، ثم طبقوها على القرآن؛ وكأنه "يفترض أن هناك ضرورات علمية دفعت اللغويين إلى "جمع اللغة" ثم استنباط القواعد منها .. وعلى أساس من هذه القواعد "وضعت لغة نموذجية" كان الإعراب إحدى مميزاتها، ومن ثم أدخل الإعراب في قراءة القرآن[1] ولا يخفى ما في هذا من تشكيك في قداسة القرآن العظيم وفي أنَّه بلفظه ومعناه تنزيل ووَحْيٌ يُوحَى.

ومن ذلك ما كتبه مرجليوث عن "وضع الشعر الجاهلي ونحله" أي أنه نقض الأساس الذي قامت عليه قواعد العربية وأصولها؛ وهذا يعني زرع الشك في حقيقة "العربية الفصحى" ذاتها، وكل ما يرتبط بها أو يكتب فيها، بل زعزعة اليقين في تراثها كله، بل في القرآن نفسه، وفي لغته، وكيف كانت ثم كيف صارت؟! وتلك قضية أخرى، استوفاها كثيرون في القديم والحديث دراسة وتحليلاً وبيانًا[2].

على أننا هنا لا نريد أن نستدرج القارئ إلى هذه القضية. إنما نشير فقط إلى بعض الآراء والأقوال، لتكون مثلاً على مظهر من مظاهر الخصومة بين العربية وأهل هذا الزمان، في الجانب الخارجي لهذه الخصومة. وقد كان ما عرضناه مثلاً قويًا للاتجاه الأول الخاص بالآراء والأفكار أو الكتب المنشورة عن العربية.

٢. الاتجاه الثاني:

هو طريق الوقائع أو الأحداث العملية، وأمثلة هذا الاتجاه كثيرة منوعة

---

(١) السابق ص٥، وانظر ما كتبه الدكتور شوقي ضيف عن ذلك في كتابه: العصر الجاهلي من سلسلة تاريخ الأدب العربي ص١٠٥ - ١٠٦.

(٢) انظر تفاصيل رأيه والمناقشة فيه في العصر الجاهلي د. شوقي ضيف ص١٦٤ ـ ١٧٦، وفي الدراسة القيمة التي أعدها د. ناصر الدين الأسد بعنوان مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ص٣٥٢ - ٣٧٦.

ترتبط بسياسات الأمم والشعوب التى زحفت بقواها "السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية" على أرض المسلمين فى كل مكان من هذا العالم.

وقد كان الإسلام ـ ولا يزال ـ مصدر خطر عظيم على أهدافهم وغاياتهم "الاحتلالية" وقد رأوا أن لغته هى الطريق إليه كما ذكرنا من قبل، فلابد أن تتوجه جهودهم إلى هذه اللغة؛ فيعملون أولاً على إضعافها فى البلاد العربية، ثم إبعادها من أن يكون لها وجود أو تأثير فى بقية الأوطان الإسلامية غير العربية(١).

أما أمثلة هذا الاتجاه، أو معالمه وأوضح مظاهره فهى كثيرة، ولعلنا قد أشرنا إلى بعضها فيما تقدم(٢).

وأهمها ـ فى رأينا ـ فرض لغات شعوب الاحتلال: لغة عامة للحياة وللعلم والتعليم والسياسة والمخاطبات الدولية فى أكثر البلاد الإسلامية غير العربية!! ولغة خاصة بالعلم والتعليم فى البلاد العربية؛ لأن ذلك ـ فى حقيقة الأمر ـ يعنى إغلاق كل المنافذ التى يمكن أن ترجع منها العربية إلى مكانها ومكانتها فى البلاد الإسلامية، بوصفها لغة الإسلام، ووعاء حضارته وثقافته العريقة.

كما أنه يعنى زعزعة "اليقين العربى" فى أهميتها وضرورتها، مادامت مبعدة عن الواقع المؤثر والمجالات المفيدة فى العلم والتعليم، لقد مر بنا أن التعليم فى كل المراحل كان باللغة الأعجمية السائدة فى كل بلد عربى: الإنجليزية أو الفرنسية، وأنه بعد الاستقلال انحصر ذلك ـ لدى أكثر البلاد العربية ـ فى بعض تخصصات التعليم الجامعى، غير أن بقاء جزء من التعليم الجامعى ـ وهو جزء خطير ومؤثر ـ ممتنعًا من العربية، مع استبقاء وازدهار وانتشار ما يسمى بمدارس اللغات ـ كان هذا وهذا طعنة قوية نافذة إلى العربية وصلاحيتها وكفاءتها فى التعبير وأداء الوظيفة الحضارية للغة فى الأمم ذوات الحضارات.

---

(١) تقدمت إشارة إلى هذه المسألة حين الحديث عن موقف عجم المسلمين من العربية.

(٢) انظر ما كتبناه عن التعليم حيث عرضنا للموقف العربى.

ذلك أن اللغة - فى مثل هذه الحال - يتهددها الخطر الـمُضْعِفُ من جانبين:

أولهما: التمكين للغة الاحتلال.

والآخر: زحزحتها هى عن مكانتها، وإخراجها من الميادين النافعة لوجودها وحياتها بين أصحابها وقومها. ثم تأخذ هذه اللغة فى الضعف الذى تتكاثر مظاهره عليها، حتى تصير إلى زوال، أو إلى ما يشبه الزوال، كما حدث فعلاً لكثير من اللغات.

غير أن ذلك لم يحدث للعربية التى كان ارتباطها الوثيق بالإسلام، من أعظم الأسباب فى قوتها المتفرّدة، وصلابتها المتميزة العنيدة فى مواجهة ما اجتمع عليها وحدها من مظاهر العداوة والبغضاء، والحرب والخصومة.

وبعد ...

فهذه رحلة طويلة ارتحلناها؛ تطوافًا حول واقع العربية؛ فى وطنها وأرض جزيرتها، وفى بلاد تدين بدينها!!

وقد راعنا فى كل مراحل رحلتنا، اتفاق المواطن والشخوص و"المؤسسات" على أن يكونوا - من العربية: فى طرف الخصومة، وإنْ أباها بعضهم، أو فى طرف الحرب، وإن نَكِرَتْها طائفة منهم!!

ثم رَوَّعنا شأن فى هذه اللغة عجب، أن المعهود من أحوال اللغات فى مثل حالها أن تولى، فتتوارى أو تموت.

لكن العربية لم تتوارَ، بل مَضَتْ فى سبيلها ثابتة، باسقة شامخة، تستصحب جلالها، وتستمسك بجمالها. لا يؤثر فيها إعراض من عشيرة! ولا عقوق من أبناء! ولا طعنات تتوالى من أعداء!

يقول المستشرق الألمانى "يوهان فك"؛ مؤكدًا للكثير من الحقائق التى انتهى بحثنا إليها:

« وإن العربية الفصحى لتدين حتى اليوم، بمركزها العالمى أساسًا لهذه الحقيقة الثابتة. وهى أنها قد قامت فى جميع البلدان العربية، وما عداها من الأقاليم الداخلة فى المحيط الإسلامى، رمزًا لغويًا لوحدة عالم الإسلام فى الثقافة والمدنية.

ولقد برهن جبروت التراث العربى التالد الخالد، على أنه أقوى من كل محاولة يقصد بها إلى زحزحة العربية الفصحى عن مقامها المسيطر

وإذا صدقت البوادر، ولم تخطئ الدلائل، فستحتفظ أيضًا بهذا المقام العتبد من حيث هى لغة المدنية الإسلامية، ما بقيت هناك مدينة إسلامية »[1].

وهكذا تابعت العربية مسيرتها؛ لا تلوى على شيء، ولا تعبأ بشيء بل هى كما هى، فى رأينا ورأى أصحاب النَّصَفَة من غيرنا:

نعم هى - فى شعورنا ويقيننا ـ كما هى:

اللغة الباسلة

---

(١) العربية: ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار (رحمه الله رحمة واسعة) ص٢٣٤.

الفصل الثاني

اللغة العربية والعلوم التجريبية

الفصل الثانى
اللغة العربية والعلوم التجريبية

تـمهيد

كلمات لابد منها

منذ قرن وبعض قرن، تواجـه اللغـة العربيـة، ريحًا صرصـرًا عاتيـة سُخِّرَت عليها من المشارق والمغارب، والشمائل والجنائب، تبتغى اقتلاع جذورها واجتثـاث أصولها، أو أن تجاء إلى ركن قصى وزاوية غير مضيئة فى حياة ذويها وأوطان بنيهـا، هجرتها معاهد، وخاصمتها جامعات، ونأى بها أهلوها عـن علـوم العصـر الحديـث ومعارفه، وكأن قد نسى هؤلاء القوم الجاحدون أو تناسوا أن لغتهم كانت فى زمان غير بعيد اللغة الأولى للعلم فى كل ميادينـه، وشتى فروعـه، وأنهـا ظلـت إلى عهـد قريب متربعة على عرشها المكين، لسان العلم وترجمانه فى العالمين.

غير أن هذه اللغة العتيدة تصـير اليـوم فـى وطنهـا ولـدى قومهـا، غريبـة أو كالغريبة، لا يستعمل فصحاهـا إلا الأقلـون، وأكـثر الأقلـين يسـتعملونها علـى غـير وجهها، لا يعبأون فى الأغلـب الأعـم بقـاعدة لهـا ولا بنظـام يحكـم استعمالها، ثـم انحصر العلم بها ـ أو كاد ـ فـى الأدبـاء، وأهـل القـرآن وعلمـاء الديـن، لا يعرفهـا غيرهم، ولا يسير على دربها سواهم، مع بضعة نفر توافروا على دراسـتها، واتخـذوا منها للمعاش سبيلاً.

ألا إن شأن تلك اللغة المعجزة لعجيب. إنها ـ بحق ـ استثناء فرد مـن قـاعدة اللغات ومثل فذ فى تجاوز قانونها العام؟

لقد وُوجِهَتْ العربية بما لم تواجـه بـه لغـة أخـرى؛ فتعرضـت وحدهـا بـين لغات العالم ـ كما يقول العقاد رحمه الله ـ لكل ما ينصب عليها من معـاول الهـدم،

ويحيط بها من دسائس الراصدين لها، لأنها قوام فكرة وثقافة، وعلاقة تاريخية، وليست لغة كلام وكفى[1].

وهكذا تظاهر على هذه اللغة أقوام ينتمون إلى أمم شتى، ويمثلون مذاهب عددًا وطرائق قددا، وأعانهم عليها قوم آخرون، من بنيها الذين ينتسبون إليها ويتكلمون بلسانها. وكل أولئكم يزرى بها وينتقص من قدرها ويشكك فى صلاحيتها أن تكون وعاء للعلوم الطبية والطبيعية وغيرها من العلوم التجريبية وهذا ينبغي - فى زعمهم - أن تظل فى محبسها، وتقبع فى عقر دارها، لا تتجاوز علوم الشريعة ولا تتخطى دائرة دروس اللغة فى معاهد التعليم المتخصصة. وما وراء ذلك فهو عليها حرام، وهى منه فى مكان بعيد، "كبرت كلمة تخرج من أفواههم، إن يكون إلا كذبا".

لقد كان حقًا على لغة هذه حالها، أن يحيق بها ما حاق بغيرها، وينزل عليها ما نزل على سواها من لغات أصابها "بعض" ما أصاب العربية، فزالت وولت، دون أن تعقب أثرًا، أو تترك فى العالمين ذكرًا. وكل ذلك بفضل اللّه لم يكن، بل بقيت هذه اللغة الفاذّة شامخة سامقة، تسير مع الزمن، وتمتد حياتها بامتداد أحقابه وتعاقب إعصاره؛ تخرج من موقعة إلى موقعة، وتصارع قوى الداخل والخارج ثم تنطلق فى مسيرتها المظفرة، محتفظة بقوتها مستمسكة بجلالها وجمالها؛ فلماذا هذا؟ بل كيف هذا؟!

لابد أن يكون فى هذه اللغة مِنْ عناصر القوى الذاتية ما أمكنها من هذا النصر المبين وهيأ لها أسبابه، وهو أمر سوف نعرض له ونشير إليه عما قليل إن شاء اللّه تعالى، بما يتسع له المقام ويسمح به الوقت فى هذا البيان الموجز لِكَفاءة العربية فى التعبير العلمى!!

(١) اللغة الشاعرة المقدمة.

قضية الأمة:

إن قضيتنا هنا ليست قضية فرد بذاته أو جماعة بعينها، كلا بل هى قضية الأمة العربية كلها، من أقصاها إلى أقصاها، أن تكون لها "هويتها" أو "ذاتيتها" التى تعرف بها وتنسب إليها، وأن يكون لها "درجها" المعلوم فى سلم الحضارة المعاصرة!!

ليس من المعقول ولا من المقبول أن نقنع بالنظر المبهور إلى الأمم الأخرى فى سباقها المجنون حول بدائع الصنائع وغرائب المخترعات، دون أن نخطو على الدرب خَطْوة[1] عربية واحدة، نقدم فيها نظرية عربية، تتلقاها الدنيا عنا بلساننا العربى المبين؟!

ولو تأخر تحقق هذا ـ ونرجو أن يتحقق بإذن اللّه فى وقت قريب ـ لما كان لأمريكا فى مشاملها ومجانبها، ولا لأوربا فى مشارقها ومغاربها، علينا من فضل[2] بل هو دين تقضيه، وحق تؤديه إلى حضارة ثابتة الأصول باسقة الفروع يعترف لها التاريخ بأنها قاعدة الانطلاق وأساس البناء فى كل حضارة حديثة أوربية، شرقية أو غربية وتلكم هى الحضارة العربية الإسلامية.

ولكنا ـ وا أسفا ـ نلهث وراء هاتيكم الحضارات، ونعدو خلفها نستجديها أكثر عناصر حياتنا وأغلب مقومات وجودنا، ثم نذيب كياننا ونرضى بالدنية فى لساننا، إذ نهمله فى بعض ميادين العلم فنعلم بغيره، ونوشك أن نتحاور فى أكثر المواطن بسواه، فكأنْ قَدْ غَفَلْنا أو أُغْفِلْنا عن حقيقة ثابتة، ناصعة ساطعة، هى أن الأمة ـ أى أمة ـ لا تتحدد صفتها ولا تعرف ذاتها إلا بلسان يجمع بينها يعبر عنها

---

(١) نريد بها المرة لا الاسم.

(٢) أعنى فيما نأخذه أو ننقله الآن من هؤلاء وهؤلاء.

ويعرض على العالمين فكرها، لسان تعرف به، وتنسب إليه؟!

ومن أجل ذلك، ينبغى أن نقف هنا؛ لبحث جملة من المسائل معرفةُ الحقيقة فيها، سبيلٌ قاصدٌ إلى الحكم القسط فى قضية العلوم التجريبيَّة فى اللغة العربية؛ وتلك هى:

(١) العربية والعلم أمس واليوم:

هل تصلح العربية اليوم لما صلحت له بالأمس، فتكون هى لغة العلم والتعليم فى المعاهد والجامعات فى مختلف فروع المعرفة وشتى مجالاتها؟!

هذا هو السؤال الذى يشتد حوله الجدل، ويكثر فيه الحوار وأنه ــ فى الوقت نفسه ـ لمحور قضية من أهم القضايا التى تواجه العرب فى كيانهم الحضارى والثقافى، بين الحضارات والثقافات المعاصرة!!

ومن أجل ذلك، نرى أن لابد قبل الجواب ـ أو محاولة الجواب ــ أن نشير إلى حقيقة مهمة من حقائق اللغة، وتلك هى:

(٢) الصلة بين اللغة والفكر:

لقد تكلم العلماء فى هذا فأكثروا، وخلاصة ما قالوه، أنه لا يمكن تصور الانفصال بين هاتين الحقيقتين: الفكر واللغة. فاللغة ـ دون فكر ــ ضوضاء أو جلبة صوتية بغير معنى ولا غاية.

والفكر بلا لغة ـ خواطر مستورة أو هجسات مخبوءة. لا جدوى فيها ولا قيمة لها، إذ هو حينئذ بغير كيان مادى ظاهر، يسمح بتقويمه. أو الحكم عليه؛ فلا يمكن تصور اللغة بغير فكر يحكمها ويحدد مسيرتها وغايتها، كما يمكن تصور الفكر دون "وعاء" لغوى يحمله ويجلوه، ويعبر عنه.

إن البحوث الحديثة تؤكد ذلك الارتباط المحكم بين اللغة والفكر، فلسان

الأمة جزء من عقليتها، وكل لغة تولف نظامًا مترابطًا واضح المعالم، يعبر عـن عقليـة الشعب الذى يتكلم بها.

ومن المستحيل التعبير عن هذه العقلية بأدوات، هـى خاصـة بعقليـة أخـرى (أرجو الالتفات إلى هذه النقطة جيدًا).

وهذا ما يؤكده اللغوى وورف ــ فيمـا نقلتـه مجلـة المعرفـة السـورية (عـدد أغسطس ١٩٧٢) حين ذكر أن العالم الفكرى يتداخل فى المجموعة اللغوية، ليؤلـف معها كلاً مترابطًا ومتضافرًا لا تنفصل أجزاؤه بعضها عن بعض. وأنـه لا يمكـن لهـذا الكل الملتحم، أن ينتقل إلى نظام لغوى آخر بألفاظه ومعانيه، ذلك أن اللسان يجسـد روح الأمة، فلا يسع المرءَ الوصولُ إلى مقاصده بدقة تامة على طريق أدوات وتعابـير لغوية مأخوذة من لسان لغوى آخر.

ومن أجمل ما قيل فى تصوير العلاقـة بـين اللغـة والفكـر مـا ذكـره اللغـوى الشهير "ماكس مولر" من أنها بنية واحدة أو نسيج واحد، أو همـا كوجهـى قطعـة نقدية واحدة، فما نسميه فكرًا، ليس إلا وجهًا من وجهى قطعة النقـود. أمـا الوجـه الآخر فهو الصوت المسموع.

وهكذا نرى أن الأمة لا يمكن أن تعـبر عـن فكرهـا إلا بلغتهـا؛ لأن فكرهـا ولغتها حقيقتان متواصلتان، بل حقيقة واحدة ذات جانبين، فإذا استبدلت أمة بلغتها لغة أخرى تعلم بها، فمعنى هذا أنها تأخذ فكر غيرهـا أو تنقـل علـم غيرهـا وذلـك إصرار منها على أن لا يكون لها فكر خاص بها، يمثل مشـاركتها المؤثـرة فـى البنـاء العام للحضارة الإنسانية وهذا - فى الواقع ونفس الأمر - يعنى ضيـاع الذاتيـة وينمـى الشعور بعدم الانتماء، إذ تبدو الأمة حينئذ وكأنها قنعت بأن تظل - أبد الدهر - فـى مكان التابع وموقع التلميذ!!

وحسبنا ما تقدم فهو عندنا كاف لإثبات ما نريد أن ننتهـى إليـه مـن غايـة

تتمثل فى الحقيقة الثابتة التالية:

اللغة - أى لغة - صورة لأصحابها ومرآة لحياتهم، ووعاء لأفكارهم، ولهذا تتحدد صفتها رقيًا وانحطاطًا بالدرجة التى يحتلها أهلها فوق السلم الحضارى. إذا علوا علت، وإذا تدنوا تدنت، وإذا تقدموا تقدمت، وإذا تأخروا تأخرت!!

القصور قصورهم، والعَجْزُ عَجْزهم، فلا تَزِرُ لغتهم وِزْرَهُمْ ولا تحمل جريرة ضعفهم، ولا إثم تفريطهم.

إن قصة اللغة لهى قصة الحضارة الإنسانية. والحضارة لا تنعكس بوضوح فى شىء، مثلما تنعكس فى الكلام واللغة، بحيث يذهب بعض الكتاب إلى القول بأن كل ما قد يظهر فى لغة مجتمع من المجتمعات من نقص أو قصور، هو دليل قاطع على مدى تخلف ذلك المجتمع فى ركب الحضارة؛ فالخبرة الإنسانية المتراكمة على مدى الزمن تنعكس فى اللغة وتجد تعبيرًا لها فيها..[1] فاللغة مع أصحابها - كالمرآة لا تعكس إلا ما يواجهها، ولا تصوّر إلا ما يتراءى فيها.

(٣) التقدم والتخلف بين الأمم واللغات:

تبيّن لنا فيما تقدم أن الفكر واللغة شىء واحد، وأن اللغة مرآة لأصحابها وصورة ناطقة لفكرهم؛ وعلى هذا فليس من الصواب الحكم على لغة ما، بأنها متقدمة وعلى أخرى بأنها متخلفة، بل الحق عندنا وفى مذهبنا أن يلحق الوصفان كلاهما بالأمة، واللغة تتبع أمتها فى الحالين وتنحو نحوها فى السبيلين.

وليست هناك لغة - مهما كان أهلها بدائيين - لا تستطيع أن تعبر لأصحابها عن أغراضهم، فكل اللغات تحمل فى داخلها - كما يقول (فندريس) اللغوى الفرنسى الكبير - إمكانات التعبير لذويها عن مختلف حاجاتهم المادية والعقلية.

---

(١) الدكتور أحمد أبو زيد: لغة الحضارة، مجلة عالم الفكر، العدد الأول ١٩٧١م.

أما القول بأن لغة تقدر وأخرى تعجز، فما هو إلا فرية ظلوم كذوب مرجعها إلى دعاوى العصبية والعنصرية التى تقسم شعوب البشر أجناسًا بعضها منحط وبعضها راق، وتربط الأمرين باللغات، كيما يكون هذا (تسويغًا) زائفًا لاحتلال الأرض، ثم فرض لغة الغالبين على المغلوبين المقهورين حتى يمتد للأولين وجودهم العقلى والفكرى، وتضرب جذوره فى أعماق هذه الشعوب، فلا تقوم لهم من بعد قائمة، ولا يكون لهم بين الأقوياء كيان ولا مكان. وتلك قضية أخرى!!!

(٤) خصائص العربيّة:

لقد أردنا بما تقدم كله، أن نضع أساسًا فكريًا نظريًا نبنى عليه دليلنا فى نفى دعوى القصور عن اللغة العربية فى التعبير عن علوم العصر ومعارفه، واستيعاب مستحدثاته أو مخترعاته، معتمدين على الحقائق التى انتهى إلى تقريرها علماء اللغة المحدثون، كيلا نتهم بالتعصب أو الحماسة للسان القرآن ولو قد فعلنا ـ كما يفعل غيرنا مع ألسنتهم[1] ـ لكان هذا حقًا لنا، ما علينا فيه من حرج ولا جناح!!

ولكننا احتكمنا إلى دليل الواقع وبرهان العلم؛ إذ جعلنا القضية عامة تشمل جميع الأشكال اللغوية، التى عرفتها الجماعات البشرية، فإذا نفيت تلكم الدعوى على ذلك الأساس الموضوعى ـ عن سائر اللغات الإنسانية، إذ رجع الأمر كله فيها إلى البشر أنفسهم، فينبغى لها أن تكون أنْفَى عن لغة، لها ما لها من طواعية التعبير، وعذوبة المنطق وسعة البيان وهو ما نسعى الآن ـ بحول اللّه تعالى وقوته ـ إلى بيانه، وبسط القول فيه من جهتين:

-الخصائص التعبيرية فى العربية.

-قدرتها الواقعية كما دل عليها تاريخها الطويل.

---

(١) مثل مدام دى ستايل فى حديثها عن الفرنسية.

الجهة الأولى: الخصائص التعبيرية:

العربية ـ كما يشهد له المنصفون، لغة تملك كل مقومات التعبير عن أدق المعاني وأعمق الأفكار، في ثلاثة العناصر التى تتكون منها اللغات كافة، أعنى الأصوات والمفردات والجمل والأساليب.

١- الأصوات:

فأصواتها ممثلة فى نظام متكامل يستوعب أكثر الأصوات التى يمكن أن ينتجها جهاز النطق الإنساني؛ فليس فيها مخرج صوتى واحد ناقص، ومن هنا اشتملت على مجموعة صوتية لا توجد ـ بكمالها ـ إلا فيها، وهى أصوات الحلق وأصوات الإطباق، فهى ـ كما قال العقاد رحمة الله ـ لغة إنسانية ناطقة يستخدم فيها النطق الحى أحسن استخدام.

وعندى أن هذه الحقيقة تفسير لما نراه من سهولة فى نطق الحروف الأعجمية على التلميذ العربى الصغير وهو يخطو خطواته الأولى على طريق التعليم، على حين نجد أكابر المثقفين الأوربيين يعانون من صعوبة ومشقة ظاهرة فى نطق بعض الحروف العربية كالحاء والعين، إذا عالجوا قراءة نص من النصوص العربية.

٢- المفردات:

أما المفردات فهى غنية غنى واسعًا. وقد استطاع العرب القدماء أن يضعوا للفروق الدقيقة بين المعانى ألفاظًا تعبر عنها وتدل عليها. ويكفى أن نقلّب النظر فى واحد من كتب فقه اللغة العربية فى التراث القديم كالغريب المصنف لأبى عبيد القاسم بن سلام، ومبادئ اللغة للإسكافى وفقه اللغة للثعالبى، والمخصص لابن سيده، لنقف على صورة شاملة للعربية، كيف مثلت حياة العرب أصدق تمثيل، فتضمنت تصنيفًا دقيقًا مستوعبًا للموجودات من سماء وأرض ومطر ونبات وإنسان

وحيوان ...إلخ، وتصنيفًا مماثلاً للأخلاق والمشاعر كالمكارم والمثالب والفرح والحزن ... إلخ.

ونقول مع الدكتور محمد المبارك العالم اللغوى السورى: « إن مفردات اللغة العربية تدل على أن العرب صنفوا الوجود تصنيفًا شاملاً دقيقًا منطقيًا يدعو إلى الدهشة والعجب، ويدل على مستوى فكرى، قلما وصلت إليه الأمم فى مثل هذا الطور المبكر من تاريخ حياتها »[1].

ومع هذه الكثرة الغنية، نرى مفردات العربية تتميز بفصاحة ظاهرة فليس فى كلماتها الجارية فى الاستعمال ما يثقل على اللسان أو ينبو عنه السمع، ومن هذا القبيل ما نراه فى هذه اللغة من نزوع إلى الخفة وتحقيق التجانس بين أصوات الكلمة وذلك كما يقول أحمد بن فارس فى كتابه الصاحبى فى فقه اللغة "كقولهم ميعاد والقياس فيها موعاد لأنها من الوعد ولكن الأول أخف"[2].

٣- التراكيب:

وفى مجال التركيب نرى ميزتين ظاهرتين نشير إليهما ولا نحيط بهما، أولاهما الإعراب، والأخرى بناء الجملة:

أ. الإعراب:

الإعراب الذى احتفظت العربية وحدها ـ دون سائر اللغات ـ بكل مظاهره حتى اليوم. والذين يعرفون العربية ويحسنون ذوقها، هم الذين يعلمون علم اليقين أن ظاهرة الإعراب تمنح المتكلم بهذه اللغة، طاقة هائلة على تنويع كلامه، وتصريف جهاته، لأن حركات الإعراب دوالُّ المعانى. فهو يقدم ويؤخر، ويحور ويغير ويبادل

---

(١) الدكتور محمد المبارك فقه اللغة وخصائص العربية ص١٥٤ وما بعدها، بيروت ١٩٦٤م.

(٢) انظر الصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامهم ص١٢ وما بعدها.

بين مواقع التركيب آمنًا مطمئنًا، أن معانيه لن تتأثر بشيء من ذلك لأن علامات الإعراب تؤازره وتعينه، نرى هذا واضحًا فى قوله تعالى: ﴿ إنما يخشى اللَّهَ من عباده العلماءُ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات ﴾، وقوله تعالى: ﴿ ليس البِرَّ أن تولوا وجوهكم ﴾.

ب. بناء الجملة:

يقوم بناء الجملة العربية ـ كما نعلم ـ على صورتين رئيستين:

الجملة الفعلية: فعل + اسم (فاعل): انتصر خالدٌ.

الجملة الاسمية: أ – اسم + اسم مشتق: خالد قائدٌ منتصرٌ

ب– اسم + اسم جامد: خالد أسدٌ

ج– اسم + فعل: خالد قادَ الجيشَ

ومعنى هذا أن فى العربية صورًا أربعًا لبناء الجملة تقابلها واحدة تقريبًا فى اللغات الأوربية، وفى ذلك ـ بغير شك ـ توسعة تعطى مزيدًا من القدرة التعبيرية فى مجالات التعبير التى تستخدم فيها اللغة.

هذا إلى صفات نوعية يتميز بها الشكل اللغوى العام للأساليب فى العربية، لعل من أهمها الميل إلى الإيجاز، وتفضيله وعدُّه جوهر البلاغة ومناط المهارة فى التعبير؛ فالبلاغة الإيجاز كما يقال. ولهذا برع العرب فيه ونوعوا ضروبه فكانت لهم منه آثار رائعة وحكم بالغة على نحو لا نجد مثله فى أكثر اللغات.

إن الخصائص الذاتية فى العربية، هى التى أعطتها تفوقًا ظهرت به على لغات كثيرة، وقد زاد فضلها، وتمكن تميزها حين نزل الكتاب العزيز بها، فانتشرت فى الأرض، وامتد وجودها ـ على الرغم من الأعاصير العاتيات ـ حيًا قويًا متدفقًا، قرونًا من وراء قرون.

الجهة الثانية: القدرة الواقعية للعربية:

كانت غايتنا فيما تقدم من حديث، إثبات ما فى العربية من خصائص ذاتية، تجعلها جديرة بحق، أن تكون اليوم ـ كما كانت منذ مئات السنين ـ لغة العلم بجميع فروعه والتعليم فى مختلف ميادينه وألوانه.

ونريد الآن أن نستدل على ما نزعمه لها من قدرة شاملة على استيعاب علوم العصر ومعارفه بدليل من واقعها التاريخى الطويل.

ولهذا نرى أن نقف هنا وقفتين قصيرتين إحداهما أمام التراث، والأخرى أما تجارب العصر الحديث.

١- التراث:

غنى عن البيان ما للتراث العربى فى مجالات العلوم التجريبية المختلفة من قيمة، وأثر باق لا ينكره إلا جاحد، رانت على قلبه عمايات الغرض والهوى، لأن تاريخ هذه العلوم يسجل للعرب أنهم أساس البناء وقواعد الانطلاق فى أكثر ما بلغته النهضة الأوربية المعاصرة من تقدم باهر، يقول المستشرق "آربرى" إن اللغة العربية لغة حية، وحضارة العرب هى حضارة مستمرة، فهى حضارة الأمس واليوم والغد، عن طريق العرب عرفت أوربا الحضارة وحين كانت تغط فى سباتها العميق كان العرب يصنعون الحضارات، وكانت جامعاتهم تخرج كثيرًا من النابغين فى الأدب والعلوم والفنون والطب والهندسة.

والحق أن اللغة العربية "لغة حضارية" بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، ولهذا استوعبت فى مدى زمنى قصير نتاج الحركة العلمية المباركة، التى بدأها العرب مع ظهور الإسلام الذى يدعو إلى العلم ويغرى به ويحث عليه. وهكذا نشأت فى العربية "لغة علمية" منذ العهد الأول للإسلام، بدأت فى القرن الأول

للهجرة ثم أخذت تتطور وتزيد مع مضى الزمن، وما أن جاء القرن الرابع الهجرى حتى اكتملت وثبتت دعائمها، وتبادلها الباحثون فى المشرق والمغرب، و لم تختلف من قطر إلى قطر، فكانت لغة العلم واحدة فى قرطبة والقيروان، فى الفسطاط ودمشق، وفى بغداد وأصبهان(1).

إنها مقدرة تعبيرية هائلة فى هذه اللغة التى اتسعت لتستوعب موضوعات الخيال والعاطفة فى أدب رائق معجب - إلى موضوعات الطبيعة والفلك والكيمياء والصيدلة والطب وعلوم الرياضة.

ومن الحقائق التاريخية الثابتة، أنه - على مدى أكثر من ثمانية قرون (من القرن الثامن إلى القرن السادس عشر للميلاد) - لم يكن فى العالم بأسره إلا لغتان يكتب بهما العلم والفلسفة، وهما العربية فى الشرق، واللاتينية فى الغرب.

وقد حرصت اللاتينية أن تتغذى من التراث العربى، فترجمت كيمياء جابر ابن حيان (٧٧٦) وأخذت عن الرازى (٩٤٥) وعنيت برياضيات الخوارزمى (٨٤٤) وبصريات ابن الهيثم (١٠٣٩) وطب ابن زهر (١٠٦٢).

إنه تراث شامخ، له دلالته القوية وإيحاؤه العميق فيما نحن بسبيله، إن اللغة هنا لم تقف حاجزًا أمام هؤلاء العباقرة الأفذاذ، حين أرادوا أن يتجاوزوا حدود النقل والترجمة ليحلقوا فى آفاق الإبداع، فبلغوا مأملهم وأدركوا غايتهم؛ لقد بدأت الوثبة الكبرى بالترجمة التى بلغت أقصى آمادها فى عصر المأمون الذى كان أكثر الخلفاء العباسيين اهتمامًا بالثقافة فى مفهومها الشامل بصورة تقدمية باهرة، ومن ذلك عنايته بالترجمة، ففى عهده ازدهرت حركة الترجمة إلى العربية عن الثقافات الأخرى ولا سيما اليونانية؛ إذ ظهرت طبقة المترجمين، ووُجّهت البعثات للبحث عن

---

(١) من تقرير لمجمع اللغة العربية بالقاهرة.

المخطوطات الأجنبية، وعقدت الاتفاقيات للحصول على هذه المخطوطات.

ومعنى هذا، أن الترجمة المأمونية، كانت تسير وفقًا لخطة واضحة وبرنامج منهجي معلوم؛ ولهذا حققت في وقت وجيز ما حققته من نتائج كان لها أثرها الجليل في تشييد صرح الحضارة العربية الإسلامية التي أسس عليها الغرب حضارته المعاصرة.

ويدل هذا عندنا على أمرين عظيمين:

أحدهما: أن أسلافنا كانوا أكثر منا تقدمية وطموحًا وإدراكًا واعيًا لقيمتهم الحضارية؛ لأنهم لم يقنعوا مثلنا بالأخذ والنقل، بل تجاوزوا ذلك فتمثلوا ما ترجموه أو نقلوه من مختلف الثقافات؛ ثم مزجوه بما لديهم من علم؛ لكي يصنعوا من هذا المزيج الرائع حضارة زاهية امتدت لها السيادة العالمية لبضعة قرون.

والآخر: أن العرب يوم كان لهم "فكر علمي ذاتي مستقل" كانت لهم من عربيتهم لغةٌ علمية معطاء، أمدتهم بكل ما احتاجوا إليه من أدوات التعبير؛ وإن في تراثهم الشامخ لآية بينة وبرهانًا مبينًا على ذلك. وفي الوقت نفسه، يثبت هذا التراث ما نريد أن نصل إليه، فاللغة العلمية الخاصة، لا يمكن أن تأتي من غير فكر علمي ذاتي مستقل[1].

٢- تجارب العصر الحديث (عرض وتحليل):

في أكثر الجامعات العربية لا يزال تدريس العلوم التجريبية الحديثة كعلوم الطب والصيدلة والهندسة وما إليها يتم باللغة الإنجليزية أو اللغة الفرنسية كما هو الحال في بعض بلاد المغرب العربي.

---

(١) لمزيد من البيان لقيمة التراث العلمي عند العرب والمزايا التعبيرية في اللغة العربية ارجع إلى ما كتبه أستاذنا الدكتور عبد الصبور شاهين في كتابه القيم "العربية لغة العلوم والتقنية".

ويبدو أن الأمر سوف يبقى كذلك إلى مدى غير قريب، لأن الأصوات التى ارتفعت تنادى بعودة الوجه العربى واللسان العربى إلى الجامعات "العربية" فى هذه التخصصات - أصوات لطائفة كبيرة من صفوة العلماء والأدباء والمفكرين فى جميع أرجاء عالمنا العربى الحديث، ولقد بدأ هؤلاء الجلة من العلماء يجأرون بشكواهم، ويعلنون أساهم، منذ نحو قرن من الزمان. وبين الحين والحين تعقد المؤتمرات، وتنظم الاجتماعات والدورات، وتخرج التوصيات والقرارات - ومع ذلك لا يتغير شيء من الأمر، بل كل شيء باق على ما هو عليه.

والمجامع اللغوية تدخل المعركة وترفع أسلحتها وتصدر فى القاهرة ودمشق توصيات من أكبر علماء اللغة المعاصرين، ولا تكفى بذلك، بل تحمل مطبوعاتها فى كل عام ألوف المصطلحات فى مختلف العلوم والفنون والنتيجة هى: كل شيء باق على ما هو عليه!!

فلماذا هذا الإصرار العنيد من جامعاتنا ومعاهد التعليم العليا عندنا على اتخاذ موقف خَصيم لدود للعربية، فتبدوَ فى هذه الصورة الزريّة بعد أن تبوأت مكانة حضارية عالية لم ترتفع إلى مثلها لغة أخرى من لغات العالمين؟!

الحق أنّ هذا موقف غير صحيح وغير مقبول، فضلاً عن أنه غير حضارى[1]، ومرجعه فى رأينا إلى أمرين:

-أحدهما: عدم الإرادة.

-والآخر: عدم القدرة على العربية.

---

(١) سبق الحديث مرارًا فى قاعدة الحضارة، وأنها لا تكون إلا بلغة أصحابها الصانعين لها، نريد أن نقول: إن ارتباط الحضارة باللغة يعنى حرص الأمة على لغتها لكى يكون لها بين أصحاب الحضارات مقام معلوم.

فإذا تحققت الإرادة، وتوجهت العناية إلى التربية اللغوية السليمة منذ مراحل التعليم الأولى فلن تكون هناك مشكلة على الإطلاق. وهذا ما أيده برهان الواقع فى سوريا وفى عصر قبل الاحتلال على نحو ما يظهر فيما يلى:

أ. التجربة السورية:

تعد التجربة السورية فى تعريب الطب عملاً جليلاً وخطوة رائدة تبعث على الأمل وتدعو إلى التفاؤل، ولكننا نعجب حقًا أن تظل سوريا فى الميدان وحدها بالرغم من مضى نحو من سبعين عامًا على تجربتها الكبيرة، ومهما قيل فى هذه التجربة وسلبياتها، فسوف تبقى خطوة من خطوات الجهاد العظيم فى سبيل استعادتنا لذاتيّتنا واسترجاعنا لهويّتنا.

يقول الأمير مصطفى الشهابى فى كلمة له ألقاها عام ١٩٥٥م: « مضى على إنشاء كلية الطب بدمشق خمسٌ وثلاثون سنة، وهى ثابتة تعلم بالعربية وتبرهن على أن هذه اللغة لا تعجز عن مجاراة اللغات الأخرى، إذا ما تعاهدها أبناؤها وأخلصوا لها.

وكلمة الأمير الشهابى رحمه اللّه كلمة حقٍّ ينبغى أن يكون لها صداها المجيب لدى العلماء والباحثين فى عالمنا العربى اليوم، لأن هذا العالم يحتاج - أكثر من أى وقت مضى - إلى أن يكون له كيان قوى؛ ولن يكون له هذا الكيان إلا إذا شارك أبناؤه فى صنع حياتهم وحياة غيرهم بأيديهم وبثمرات عقولهم هم، وليس إلى ذلك من سبيل إلا أن تكون لهم شخصية عربية كاملة أصيلة.

ينبغى أن ندرك أن القضية ليست إلا أثرًا من آثار المخططات الموصولة التى تدبّرها قوى الاحتلال لفرض السيطرة الفكرية والعقلية على سائر الأمم والشعوب؛ لأن هذه السيطرة أبعد مدى وأبقى من السيطرة العسكرية أو السياسية.

من أجل ذلك ينبغى للجامعات العربية أن تسرع إلى الميدان الذى تقف

سوريا وحدها فيه؛ توازرها وتثبت أقدامها فى نضالها المجيد أن تبقى العربية لغة العلم والتعليم فى جميع الميادين؛ فذلك هو الطريق الوحيد أمام العرب ليعودوا سيرتهم الأولى أمة لها بين الأمم مكان كريم.

ب. مدرسة الطب المصرية:

بدأت مصر الحديثة تدريس الطب فى وقت مبكر، وكانت لغة التدريس منذ البداية هى العربية، وظلت كذلك زهاء ستين عامًا حتى جاء الاحتلال فأخرج العربية وفرض لغته قهرًا وإجبارًا كدأبه حين يحتل أرضًا أو يتمكن من أمة لأن اللغة ركيزته فى استدامة الاحتلال واستبقاء أثره فى السيطرة على الأمم والشعوب.

والحق أن التجربة المصرية - فى امتدادها الزمنى الطويل - دليل على أمرين:

أحدهما: أن الأمة، حين تريد تحقيق ذاتها، وتأكيد هويتها ثم تعمل من أجل ذلك، وتسعى له سَعْيَه - فإنها تبلغ مأملها وتدرك غايتها فى تحقيق ما تريد.

والآخر: أن قوى الاحتلال لا تترك فرصة أمام الشعوب المحتلة أو التى تنوى احتلالها لتحقق شيئًا مما تريد.

وإذا كانت هذه القوى الغاصبة مُدْرِكةً لأهميّة اللغة فى "صنع شخصيّة الأمة" وتأكيد ذاتيتها فقد كان أول أعمالها وأهمها عندها هو فرض لغة الاحتلال وطرد لغة البلاد أو تعقبها بالمطاردة كى تذوب "الأمة" من بعدها وتقنع بموقع التابع المقهور.

تلك دلالة الوقائع والأحداث التى جَرت بها "حركة التاريخ" وكما يقول الأستاذ فهمى هويدى فى واحدة من حلقاته البارعة عن قضية اللغة فى المجتمع المصرى فإن « حركة التاريخ والمجتمعات ... ليست عشوائية كما يتصور البعض، ولكنها كثيرًا ما تمثل انعكاسات أو استجابات للواقع المعيش .. وفى الموضوع الذى

نحن بصدده، فإننا نلاحظ أنَّ مصر حين بدأت نهضتها الحديثة فى عهد محمد على باشا الذى أنشأ مدرسة الطب عام ١٨٢٧م، حرصت على أن تقيم مشروعها النهضوى على أسس قويمة، لذلك كانت مدرسة الطب تدرس باللغة العربية، رغم أن أوائل أساتذتها كانوا من الفرنسيين والطليان والأسبان والألمان .. ولم يشأ محمد على باشا أن يكون التدريس بأى لغة أجنبية حتى التركية أو الألبانية .. وهو ما أدرك أهميته رئيس مدرسة الطب أنطوان كلوت بك الفرنسى، ويدهش المرء حين يعلم أنه بسبب من ذلك التوجه فإنَّ عدد المترجمات العربية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر بل فى نحو عشرين سنة منه بلغ ٢٦١ كتابًا، منها ٥٦ فى العلوم البحتة، و٩١ فى العلوم التطبيقية، وهكذا ظل التعليم العالى مُعَرَّبًا فى مصر طيلة ستين عامًا بجيدة، حتى فرض الإنجليز تعليم الطب بلغتهم عام ١٨٨٧م »[١].

ومعنى هذا أن تدريس الطب بدأ بالعربية واستمر كذلك زمانًا طويلاً حتى أكرهت الأمة على تبديل الإنجليزية بلغتهم، وهنا نسأل:

لماذا لم تتغير الصورة بعد زوال الاحتلال؟

الجواب صعب؛ لأنه يرجع إلى الأمّة نفسها؛ التى ذابت إرادتها وغابت فيما أراده الاحتلال وسعى إليه لقد تحقق للمحتل الأثيم كل ما أراد بل أكثر مما أراد كما سبق بيانه فى حديث التعليم باللغات الأعجمية[٢].

وهكذا أثبتت التجربة المصرية الموقوتة والتجربة السورية الممتدة أنَّ قضية "التعريب" ليست فى العربية، بل هى فى الأمة، وما تملكه من إرادة لتحقيق "ذاتها الحضارية" فى لغة علمية عربية تعرف بها وتنسب إليها.

لقد وجدت هذه اللغة فى مصر قبل الاحتلال، ثم قضى هذا الاحتلال

---

(١) الأهرام ٢١/٩/١٩٩٩م، ص١١.

(٢) انظر ص٤٤ وما بعدها.

عليها، لأنَّ نمو اللغة العربية وارتقاءها - فضلاً عن دلالته القومية والتاريخية ـ يمنع المحتل من تحقيق أغراضه أو إدراك غاياته في السيطرة الدائمة على الأمة، ولكن المجتمع العلمي في مصر لم يبذل الجهد المنشود لعودة العربية إلى ما كانت عليه، فظلت الإنجليزية هي لغة التعليم في أكثر العلوم التجريبية، على حين أن تجربة سوريا التي بدأت في سنة ١٩٢٠م لا تزال ماضية في طريقها بنجاح حتى اليوم.

وهذا دليل على أنَّ الأمر في مسألة اللغة يرجع أولاً وآخرًا إلى الأمة تريد لغتها أو لا تريد.

إنَّ حجج المنادين ببقاء العُجْمة العلمية في بلادنا حجج واهية ضعيفة، وأضعف ما فيها أنها تهمل خصوصية الأمة وذاتيتها الحضارية التي لا تتحقق إلا في اللغة ولا تكون إلا باللغة.

أما قضية المصطلحات وصعوبة نقلها إلى العربية فهي مشكلة يسيرة الحل، وقد اتخذت سبيلها في ذلك فعلاً بجهود مباركة موصولة من المجامع اللغوية وغيرها من المؤسسات العلمية العربية التي أعطت قضية اللغة ما تستحقه من عناية واهتمام، فما ينبغي أن نجعلها عائقًا يعوقنا عن السير الثابت الخطى في طريق الحضارة معبرين عن ذاتنا العلمية بلغتنا لا بلغة غيرنا.

فلهذا نسير إلى مشكلة المصطلح فيما يأتي من بيان !!

رأى في مشكلة المصطلح:

يدل استقراء التاريخ البشرى على أنَّ الحضارات التي تكوّنت في أنحاء مختلفة من الأرض، وأحقاب من الزمن كانت دائمًا تقوم على الأخذ والعطاء، وأنَّ المعرفة الإنسانية ناقصة غير كاملة، ولم توجد - في كل العصور ـ أُمَّةٌ تكتفي بما عندها، بل البشر جميعًا سواء في الحاجة إلى تكميل ما لديهم من جوانب النقص والقصور.

فإذا كان العرب اليومَ فى مرحلة الأخذ فقد كانوا بالأمس أصحاب العطاء، ولهذا ينبغى أن يزول عنهم الشعور بالضعف أو التأخر فى مواجهة ما يأخذونه أو ينقلونه عن غيرهم، بل يقفون موقف النِّدِّ الحضاريّ الذى يأخذ ليضيف، وينقل ليصنع، وهو حين الإضافة وحين الصناعة حريص على إظهار ذاته، وعلى إبراز مكانه، وتثبيت مكانته بين المتسابقين، ولا يتحقق ذلك إلا إذا استمسك بخصوصيَّته التى لا تظهر إلا فى لغته.

وحينئذٍ لا يعيبُ العربىَّ ولا ينقُص قَدْرَه ولا يُزْرى بقيمته أنْ تقابله مسمياتٌ لا أسماء لها فى لسانه، أو مصطلحات يتعذر نقلها إلى لغته، لكنَّ هذا لا يبيح له أنْ "يَسْتَعْجِمَ"، أو يهجر فى لغة العلم لسانَه من أجل أنَّه لا يعرف كيف يسمّى المسميات أو يعرّب المصطلحات.

والأمم التى تعطيه اليوم هى التى كانت تأخذ منه بالأمس، وقد واجَهَتْ ما يواجِهُه من عدم وفاء لغاتهم بمقتضيات النقل عن العرب، فما عَرّبت لغةَ العلم من أجل أسماء المسميات، أو عبارة المصطلحات، بل ترجمت ما أمكنها وتركت الباقى على عربيته وما أحسَّتْ حين فعلت، حَرَجًا ولا إثمًا؛ إذ كانت لهم أسوة حسنة فى شيوخهم العرب، الذين نقلوا عن اليونان والرومان والسريان وأهل بابل وشعوب الشام؛ كانوا لا يقفون أمام عبارة أعجميّة لا يجدون لها فى العربية مخرجًا. بل كانوا يتركون الأعجمىّ بعُجْمته إن لم يستقِمْ على ترجمة أو تعريب، ثم يمضون فى طريقهم بقوّة وثقة وثبات.

وقد كان حنين بن إسحاق شيخ المترجمين يستعمل المصطلحات العلمية بألفاظها الأعجمية ... ولكنه كان يتبعها بشرح معناها حتى يتحدد مدلولها فى العربية.

إنَّ مسلك ابن إسحاق وطبقته من المترجمين يظهرنا على الفرق بين أمّة تتبع

أمّة أو تقتفى أثرها، وأمّة تجدّ فى سعيها على الطريق لتصنع لها مكانًا بارزًا فى طليعة الأمم والشعوب .. كما يقفنا هذا المسلك فى الترجمة، على منهج سديد وأسلوب رشيد أعان أولئك الرواد على بلوغ المأمل وإدراك الغاية .. ولا شك أنّ الترجمة وسيلة من أقوم الوسائل وأنفعها فى صنع الحضارة التى لا يمكن أن تستغنى ــ حين بنائها ـ عن الاستفادة بتجارب الأمم، والتغذى بما سبقت إلى معرفته الشعوب.

على أنهم أدركوا أنهم يبنون "حضارة عربية إسلامية"، وإذًا لقد حقّ عليهم أن يَصُبُّوها فى اللسان العربى المبين. فما استعصى عليهم هذا اللسان، وما قَصُر فى إمدادهم ـ إبّانَ ازدهارهم الحضارىّ ـ بكل ما يحتاجون إليه من أدوات التعبير.

إنّ المصطلحات شيء ولغة العلم فى مجموعها شيء آخر، فإذا عزّ علينا نقل مصطلح ما إلى مقابل عربى، أو تعذّر إيجاد اسم عربى لمسمّىً أعجمىّ، فلنفعل مثلما فَعَل الأوّلون حين كانوا يلجأون بعد الترجمة أو التعريب إلى إبقاء اللفظ الأعجمى على حاله من العُجْمَة، دون أن يؤثر ذلك فى الصورة العربية العامة.

ويمكن أن نجمل القول فى مشكلة المصطلح بما يأتى:

١. عدم الوفاء بأسماء المسميات أو عبارة المصطلحات، ليس عيبًا فى اللغة، ولا نقصًا فى قدرتها التعبيرية فى مجال العلوم؛ لأنّ كلّ صناعة ترتبط فى أجزائها وعناصر تكوينها بمكان ظهورها وموطن نشاتها، ومن طبيعة الأمور أن نجد بعض النقص فى أسماء المسميات، أو عبارة المصطلحات الخاصة بمخترعاتٍ أو صناعاتٍ غير عربية.

٢. لغة التعليم شيء والمصطلحات أو أسماء المسميات شيء آخر، فلغة التعليم ينبغى أن تكون بلسان الأمة، فذلك هو الطريق إلى استعادتها لمكانتها بين سائر الأمم والشعوب، أما المصطلحات فيمكن أن تبقى بلغتها إذا لم يمكن نقلها كذلك فعل الأوربيون حين أخذوا من العرب، وهم ـ فيما فعلوا ـ على آثار العرب

مقتدون؛ فقد كان المنهج العربى فى علاج ما ينقل عن شعوب الأعاجم يتمثل فى الخطوات التالية:

أ - الترجمة، أى نقل العِلْم الأعجمىّ فى جملته إلى العربية.

ب- التعريب، وذلك حين تَقْصُر الترجمةُ عن نقل بعض الأسماء أو المصطلحات نقلاً كاملاً إلى العربية. ويراد به هنا: ترك اللفظ الأعجمى "بعجمته" مع إخضاعه ـ على قدر الطاقة ـ لقواعد اللغة العربية فى الإعراب والتصريف، مثل تلفاز وتليفون ونحو ذلك(١).

جـ- الخطوة الثالثة ترك الاسم أو المصطلح الأعجمى على حاله أعجميًّا.

وصفوة القول أن "مصطلحات" العلوم ما ينبغى أن تكون سببًا مانعًا من تعريب العلم والتعليم فى الجامعة وغيرها.

ذلك فرضٌ مفروض علينا نؤدّى أمانته إلى أجيال الخالفين كيما تبقى للحضارة العربية الإسلامية أصولها الثابتة، وفروعها الباسقة.

من أجل ذلك ينبغى أن لا نعبأ بالدعاوى الفارغة التى ترمى العربية بالعجز والقصور عن الوفاء بحاجات العلم الحديث من التعبير وما عجزت لغتنا وما قصرت، ولكن عجز أصحابها وعيّوا! يقول العالم الجليل الأستاذ الدكتور عبد الحليم منتصر وهو علم من الأعلام الكبار فى ميدان البحث العلمى الحديث:

« إن اللغة العربية قد أثبتت قدرتها على التعبير العلمى وعلى نقل المصطلحات العلمية الدقيقة إليها، وإنها قادرة على ملاحقة التقدم العلمى فى مختلف

---

(١) جاء فى مقدمة المعجم الوسيط فى تعريف المعرّب قوله: "هو اللفظ الأجنبى الذى غيّره العرب بالنقص أو الزيادة أو القلب"، وجاء فى مادة عرب "التعريب: صَبغ الكلمة بصبغة عربية عند نقلها بلفظها الأجنبىّ إلى العربية".

مجالاته ـ لولا هذا التعويق الذى يأتى عن طريق نفر من أبنائها لا يصبرون على أدائها، يتسهلون استعمال اللغات الأجنبية، فيظن شبابنا أن هذه العلوم مستوردة من الخارج، مع أنها بضاعتنا ترد إلينا ومع أننا نحن العرب أهل أصالة فيها ... »(١).

تلكم شهادة من خبير "ولا ينبئك مثل خبير" فقضية العربية اليوم ـ أولاً وآخرًا ـ هى قضية أبنائها، قضية أمتها التى ينبغى أن تعى ذاتها وتدرك أن صفتها الخاصة بها، لن تكون بغير لسان تستمسك به؛ يعبر عن ذاتها ويعرض على العالمين فكرها.

فإذا أضفنا إلى هذا كله ما كتب قديمًا وحديثًا فى هذه العلوم بالعربية استطعنا أن نجتمع الآن على كلمة سواء، وهى أن لغتنا قادرة، لأن حقّها أن تكون قادرة، فليس على الأرض لغة تعجز عن التعبير لأصحابها عما يريدون كما انتهى إلى ذلك علماء اللغة المحدثون.

وقادرة لأن واقعها أثبت لها هذه القدرة على امتداد حقبة طويلة من التاريخ تتجاوز الآن خمسة عشر قرنًا من الزمان.

وقادرة لأنها قبل ذلك كله لغة القرآن؟!

وما أصدقها كلمة قالها شاعر النيل حافظ إبراهيم رحمه اللّه يعرب فيها عن أساه وحزنه وكمده لما أصاب العربية من أهلها:

رجعت لنفسى فاتهمت حصاتى وناديت قومى فاحتسبت حياتى

إلى أن قال:

---

(١) من بحث له، قدم فى مؤتمر التعريب الذى نظمته الجامعة العربية فى الجزائر ١٩٧٣م، وعنوانه خصائص اللغة العربية فى التعبير العلمى وسوف نُثبت هذا البحث القيم كاملاً فى ملحق خاص بالكتاب؛ لعظم فائدته.

وسـعت كتاب اللّـه لفظًا وغـايـةً　　وما ضقت عن آى به وعظـات

فكيف أضيق اليوم عن وصف آلةٍ　　وتنسيق أسـماء لـمختـرعـات

وبعد فلعلنا نتفق على أنه ينبغى أن يـبدأ الآن عمـل عربـى كبـير مـن أجـل البقاء والمصير، بتحرير الشخصية العربية من ربقة الاحتلال العقلـى والثقـافى، لكـى تكون لنا "هوية ذاتية" ندافع عنها ونجاهد فـى سـبيل المحافظـة عليهـا، ولا سـبيل إلى ذلك إلا بأن نكون عربًا خالصين بيانًا وبنيانًا !!!

الفصل الثالث

الفصحى والعامية

الفصل الثالث

الفصحى والعامية

* **تـمهيد:**

إنها واحدة من كبريات القضايا التى تواجه المجتمع العربى كلّه فـى مسيرته الثقافية والحضارية بين شعوب العالم وأممه المختلفة وسوف نبحث فـى هـذه القضيـة المسائل التالية:

أولاً: أصل العامية وظروف نشأتها.

ثانيًا: اللغة العربية ولهجاتها قديمًا وحديثًا.

ثالثًا: الفصحى والعاميّة فى اللغات المختلفة.

رابعًا: المشكلة فى العربية.

خامسًا: الدعوة إلى العامية وحجج أنصارها.

سادسًا: ضرورة الفصحى للوجود العربى وللصلة بالمجتمع الإسلامى.

****

أولاً: اللغة العامية (أصلها وظروف نشأتها):

العامية - في أبسط تصور لها - صورة في اللغة، انحرفت عن بعض أصولها العامة واتخذت لها مسارًا مختلفًا، ولكنه ليس معارضًا أو مناقضًا لمسار الفصحى. فهي - كما يقول الرافعي - اللغة التي خلفت اللغة الفصحى في المنطق الفطري، وكان منشؤها من اضطراب الألسنة وخبالها وانتقاص عادة الفصاحة، ثم صارت بالتصرف إلى ما تصير إليه اللغات المستقلة، وعادت لغة في اللحن بعد أن كانت لحنًا في اللغة[1].

يريد الرافعي بهذا أن العامية بدأت باللحن، ثم نمت حتى صارت لُغَةً مستقلة، بمقوماتها الخاصة التي تقوم على الخطأ فبعد أن كانت تتمثل - فقط - في الخروج على قواعد اللغة والانحراف عن سننها، صارت تمثل منهجًا مستقلا يقوم على إطراح قواعد الفصحى، والبعد عن أصولها العامة.

وعلى هذا فاللحنُ عند الرافعي هو أصل العامية ومادتها، بل هو العامية الأولى؛ لأنه تنويع في الفصحى غير صحيح، بخلاف ما قد يشبهه من اللّهجات العربية المختلفة، ومعنى هذا الكلام: أن اللّهجات العربية في نشأتها، غير اللحن برغم ما قد يبدو بينها من تشابه؛ لأن اللحن هو سبب العامية والطريق إليها، ولكن اللّهجات القديمة ليست كذلك لأنها كانت قائمة منذ القرون الأولى قبل أن تظهر العامية، ثم يستفحل خطرها فيما بعد .. ولعلّ من المناسب هنا أن نعرض فيما يلي لمسألتين لازمتين:

١ . متى ظهرت العامية ومن أين أتت؟:

ليس هناك - فيما نعلمه - دليل على وقت محدد ظهرت فيه العامية، أو

(١) مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب ١/ ٢٣٦.

مكان معلوم خرجَتْ منه، والراجح لدينا ـ تبعًا لطبيعة الأمور ومنطق الأشياء أن هناك مرحلة سبقت ظهور العامية هذا الظهور المنتشر بقرون حدث فيها من الظواهر اللغوية ما يعد نذيرًا بالعامية أو تمهيدًا للطريق أمامها، لكي تزحف رويدًا رويدًا على بنية اللغة الفصحى، وإن كان هذا لا يمنع أن استعمال الفصحى في العربية قد امتد أكثر من غيرها، لظروفها التاريخية والثقافية الخاصة، بمعنى أن اللّهجات القديمة، لم تكن تعدُّ عامية بالمعنى الدقيق، وإنما كانت لهجات فصيحة، حمل بعضها بذور العامية أو بشّر بها، على نحو ما تحدثنا عنه قبلاً.

ومن جهة أخرى لا يمكن القطع بأن يكون هذا الأقليم أو ذاك، هو المكان الذى خرجت منه العامية أول مرة، وإنما حدثت مظاهر البعد عن الفصحى، هنا وهناك في كل بقعة ذهبت العربية إليها واستقرت عليها، وتزايدت هذه المظاهر مكونة لغة عامية فى كل مكان استوطنه العرب، ولذلك نجد للعامية صورًا كثيرة متعددة، على حين أن ليس للفصحى إلا صورة واحدة.

٢. اختفاء علامات الإعراب وعلاقته بظهور العامية:

ربط "يوهان فك" بين نشأة العامية واختفاء علامات الإعراب؛ إذ رأى أن التصرف بالإعراب هو "الفارق الذى يميز عند المثقفين العرب بين العربية الفصحى، وجميع القوالب والأساليب المولدة، حتى اللّهجات الدارجة واللغات العامية؛ لأن الواقع يدل على أن سقوط علامات الإعراب يمثل سمة من أهم سمات اللغة العامية.

فالعامية ـ إذن ـ استعمال فى اللغة، يتصف بصفات محلية أو بينية تبتعد به عن هيئة اللغة العامة التى تسمى لغة مشتركة أو فصحى. وفى العربية خاصة تسقط علامات الإعراب(١).

---

(١) إنما أردنا بهذا الكلام التنبيه على أن "العامية" ظاهرة عامة في جميع اللغات الإنسانية كما يظهر =

وإن ظهور العامية "فى أية لغة، لأثر طَبَعى للتطور الـذى يُصيب اللغة فى بعض ظواهرها، بسبب تأثرها بأوضاعها المتغيرة فى الأقـاليم أو البيئـات المحلية التى تستوطنها خارج أرضها الأولى[1].

ثانيًا: اللغة العربية ولهجاتها قديمًا وحديثًا:

فى اللغة العربية اليوم عدد كبـير مـن اللّـهجات تنتمى إلى أقـاليم الوطن العربى الواسع الممتد من المحيط إلى الخليج. وقد كان فيها أمس أيضًا لهجـات كثيرة، فى كل واحدة منها سمات كثيرة، ليست فى سائرها.

ولكن الفارق بين الحالين، أن اللّـهجات فى الأولى، كانت لهجـات عربيـة، تخضع لقاعدة الفصاحة العامـة، على الرغـم مما فيهـا مـن مظـاهر تخالف بهـا عـن الفصحى المشتركة.

أما الأخرى - أعنى اللّـهجات الحديثة - فقـد اتسـع خلفهـا وزاد مـن اللغـة الكبرى بعدها، وتَمثّل فى كل واحدة منها كثـير مـن حيـاة بنيهـا، فغـدت لهجـات مستقلة، متقاربـة حينًـا ومتباعدة أحيانًـا. وهـذه اللّـهجات الحديثـة هـى "العاميـة" اختلفت ألوانها وتعددت صورها وأشكالها.

غير أن هذا لا يعنى أن حال اللغة العربية فى القديم غيرُ حالها فى الحديـث؛ إذ تعددت هنا وتوحدت هناك. بل كانت كل قبيلة فـى المـاضى تتحـدث بلهجتهـا فيما بينها: فى بيوتها وأوديتها، فى أسـواقها ومراعيهـا، فـإذا اجتمعـت القبـائل فـى الموسم أو فى عكاظ، أو فى أحيان التلاقى والاجتماع، وحّد الجميع كلامهم فـى

= فيما بعد إن شاء اللّه وغاية الأمر أن للغة العربية فى عاميتها شأنًا خاصًا، يتعلق بعلامات الإعراب ووضعها فى الكلام.

(١) انظر ما كتبه فندريس حول هذه المسألة فى كتابه "اللغة ص٣١٥ وما بعدها".

"لغة سواء" لغة مشتركة منتقاة، تخلصت من العناصر المحلية المستكرهة، واسْتَصْفَتْ أفضل ما لديهم من كلام.

ومعنى هذا أن قد كان للعرب قديمًا لغة بها يعيشون، وأخرى بها ينظمون الشعر، ويرسلون الأمثال، ويلقون الخطب والمواعظ والحكم.

وهذا هو حال العربية اليوم؛ فالعرب يعرفون منها لغة واحدة ــ هي لغة القرآن العظيم ــ بهذه اللغة، ينظم الشعر، ويبدع الأدب، ويكتب العلم، تلقى المحاضرات والخطب.

وإلى جانب هذه اللغة الواحدة التي تستقر في أعماق الوجدان العربي بكل جماعاته، وشتى أوطانه .. هناك عدد من اللغات (نسميها لهجات) بعدد ما يعرف وطن العرب الآن، من دول وشعوب.

وما أحس الناس قديمًا أو حديثًا، بضيق أو حرج لوجود نظامين لغويين في حياتهم؛ لأنهم موقنون بأن لكل نظامٍ منهما موضعه ومجال استعماله، وما كان هذا "الازدواج" في يوم من الأيام عائقًا للعرب، عن الانطلاق في آفاق الفكر والعلم لو ملكوا الأدوات، وسيطروا على الوسائل، وأبعدوا في الغايات.

وحين كان للعرب فكر علمي مبدع، كانت لغتهم المعطاء تُمِدُّهم دائمًا بما يحتاجون إليه من قوالب التعبير، دون أن يعوقهم وجود اللّهجات ـ مع الفصحى ـ عن المشاركة المؤثرة الفعالة في بناء الحضارة الإنسانية، لقد عاشت البيئات الإسلامية العربية منذ القرون الأولى "بنظامين لغويين": نظام للثقافة والعلم والأدب، قوامه العربية الفصيحة، ونظام للتخاطب، قوامه تلك اللّهجات الدارجة التي تخلصت من الخاصة الرئيسية للفصحى، وهي الإعراب وعدت عليها عوادي الاختصار في أشكالها، والتحريف في كثير من صيغها وتسربت إليها من مختلف الجهات عناصر دخيلة وعامية، وظلت الحال على هذا المنوال طوال العصور: جماهيرُ

تنشأ على العامية فى حياتها، تمتلكُ ناصيتها بطريقة طبيعية. ومثقفون يشاركون الجماهير عاميتهم فى لسان التخاطب، ولكنهم فى المجال الثقافى، يحصلون الفصحى تحصيلاً، ويحفظون قواعدها حفظًا ويمرون بمراحل طويلة من التدريب، ويعالجون ما تزل به ألسنتهم وأقلامهم من أخطاء فى إعراب الألفاظ وضبطها أو دلالاتها، تختلف حظوظهم من القدرة على استعمالها تبعًا لعوامل النشأة والاستعداد الشخصى والمجال الثقافى الذى يتحركون فيه"(١).

تلكم هى الصورة التاريخية للعربية بين الفصحى والعامية، وهى صورة لا تبتعد كثيرًا عن صور اللغات الأخرى، على نحو ما يبدو لنا - بإذن اللّه - فى عرض المسألة التالية:

ثالثًا: الفصحى والعامية فى اللغات المختلفة:

هذه مسألة يستدعيها - كما قلنا - بحثُ سابقتها، وتتمثل فى السؤال التالى:

هل يوجد فى المعروف من لغات البشر الحضارية، هذا الانقسام إلى فصحى وعامية؟ الجواب: نعم...!

ذلك أن كل الأمم ذوات الحضارة، تستعمل قطعًا، لغة للحياة وأخرى للأدب والعلم، ومن غير الممكن أن نتصور أن "برنارد شو" كان يكتب بلغة "الشارع الإنجليزى" وأن "فيكتور هوجو" كان يكتب بلغة الشارع الفرنسى، أو أن "شوبنهور" كان يكتب بلغة الشارع الألمانى، فلكلٍّ من هؤلاء، لغته الخاصة بمجال ثقافته، تختلف حتمًا عن لغة العامة فى شعوبهم.

ومعنى هذا أن ما تعرفه العربية من "ازدواج لغوى" أو "ثنائية" فى استعمال

---

(١) من بحث للمغفور له الأستاذ الكبير/ محمد خلف اللّه أحمد عضو مجمع اللغة العربية مجموعة البحوث والمحاضرات دورة ٣٤ص ٢٥٢-٢٥٣.

اللغة ـ تعرفه سائر اللغات الإنسانية على نحوٍ أو آخر .. وتلك هى طبيعة الأشياء حقٌ الواقع الذى يعلو على كل جدل، لا يتوقف ثبوته على برهان.

فوجود لغة دارجة مبتذلة (نسميها عامية) يستعملها الناس فى الميادين المختلفة للحياة اليومية، إلى جانب لغةٍ راقيةٍ يستعملها الأدباء والشعراء والكتاب والعلماء ـ وجود هاتين اللغتين متجاورتين، أمرٌ بَدَهىٌّ ثابت لا نُكْرَ فيه، وهو شائع فى جميع اللغات البشرية.

يتحدث "جوزيف فندريس" اللغوى الفرنسىُّ الكبيرُ عما أسماه "العامية الخاصة" Argot فى فرنسا فيقول: "ويوجد من العاميات الخاصة بقدر ما يوجد من جماعات متخصصة. والعامية الخاصة. تتميز بتنوعها الذى لا يحد وأنها فى تغير دائم تبعا للظروف والأمكنة، فكل جماعة خاصة وكل هيئة من أرباب المهن، لها عاميتها الخاصة: فهناك عامية التلامذة ... إلخ[1].

ثم يتحدث عن الفارق بين لغة الكتابة (الفصحى) ولغة الحياة (العامية) فيقول: « تكوين اللغات المشتركة معناه فترة من التوقف فى تطور اللغة .. إذ تتبلور الصيغ والتراكيب وتتحجر، وتفقد طواعية الحياة الطبعيَّة ... والذى يحملنا على هذا الظنِّ أنها لغة اصطناعية، توضع بجانب اللغة الطبعيَّة. والبون بين اللغتين يكون ضئيلا فى بادئ الأمر، ثم يعظم مع الزمن حتى يأتى يوم يصير فيه هذا البون صدعًا عميقًا، ويمكننا أن نقارن خلق اللغات المكتوبة بتكون طبقة من الجليد على سطح نهر، فالجليد يستعير مادته من النهر، بل بعبارة أخرى: ليس الجليد إلا ماءَ النهرِ نفسه اتخذ صورة أخرى أو تشكل بشكل آخر، ومع ذلك فليس هو النهر؛ إذ لو رأى الجليد أحد الأطفال، ظنَّ أن النهر غير موجود وأن تياره قد توقف عن المسير، وهذا خداعٌ؛ فالماء لا يزال يجرى منحدرًا فى طريقه نحو السهل، وإذا تكسر الجليد

---

(١) اللغة ترجمة الأستاذ عبد الحميد الدواخلى والدكتور محمد القصاص ص٣١٥-٣١٦.

رأيناه ينبثق فجأة ويتلاطم مزمجرًا.

هذه صورة من تيار اللغة، فاللغة المكتوبة هى طبقة الجليد التى فوق النهر والماء الذى يتابع جريانه تحت الجليد الذى يحبسُه، هو اللغة الشعبية والطَّبيعية، والبرودة التى تنتج الجليد وتبغى احتجاز النهر هى مجهود النحويين والمربين، وأشعة الشمس التى تعيد إلى اللغة حريتها، هى قوة الحياة التى لا تقهر؛ تتغلب على القواعد وتحطم قيود التقاليد واللغة الفرنسية الحالية تبرر التشبيه السابق بصورة مرضية.

فالبون بين لغة الكتابة ولغة الكلام لا تزيده الأيام إلا اتساعًا »[1].

هذا كلام قاله لغوى كبير من رواد البحث اللغوى الأوربى فى مطالع القرن العشرين. وهو كلام قد نخالفه فى بعض أفكاره أو اتجاهاته، ولكنه يعنى لدينا أمرين كبيرين لهما ارتباط وثيق بما نحن فيه:

أول هذين الأمرين: أن انقسام اللغة إلى فصحى وعامية ـ أى إلى لغةِ كتابةٍ ولغة حياة ـ أمر حتم، لابدّ أن يحدث لأنه يخضع لظاهرة التطور اللغوى الذى يسرى على جميع اللغات.

والأمر الآخر: أن الفارق بين لغة الكتابة ولغة الحياة، أو بين الفصحى والعامية، يتسع أو يضيق على حسب الظروف الخاصة بكل لغة. ١

هذا هو تقرير (فندريس) لهذه القاعدة اللغوية العامة، وقد استمد تقريره من واقع الفرنسية، مع النظر إلى عدد من اللغات الأوربية التى تشبهها فى هذه الحقيقة الثابتة.

ومعنى هذا، أن اللغات الإنسانية متماثلة فى "طبيعة" الانقسام إلى صورتين متقابلتين للاستعمالات اللغوية.

---

(١) المرجع السابق ص٣٤٣-٣٤٤.

ومعناه أيضًا، أن العربية قد خضعت فى فصحاها وعاميتها لما خضعت له سائر اللغات. وإذن فلا جناح اليوم على العرب، أن تكون مسافة الخلف كبيرة بين الفصحى والعامية عندهم وذلك لسببين هما:

أولاً: أن ذلك ليس شأن العربية وحدها، بل هو ـ كما ظهر من كلام فندريس ـ شأن كثير من اللغات، ومنها الفرنسية.

ثانيًا: أن هذا يرجع إلى ظروف خاصة بالعربية فى عصورها المتأخرة، وهى عصور ضعف واضمحلال عام، صاحبهما انتشار الجهل وغلبة الأمية؛ فأدّى ذلك إلى تزايد نفوذ العامية واتساع رقعتها فى شتى مجالات الحياة، لدى عدد كبير من الطوائف والجماعات، حتى الذين أدكوا حظًّا من ثقافة أو تعليم.

ومن المؤلم هنا أن نجد طائفة من قادة العلم والدين يجنحون إلى العامية فى أحاديثهم مع قدرتهم الكاملة على الفصحى؛ لأن هذا الموقف تثبيت لدعوى أفضلية العامية، وحجة لأنصار نبذ الفصحى واطّراحها.

ومن هؤلاء الإمام الكبير الشيخ محمد متولى الشعراوى، الذى كان من الممكن أن تكون أحاديثه المؤثّرة الآسرة المنتشرة، وسيلة من أكبر الوسائل وأبعدها مدى وأعمقها أثرًا فى الإقبال على الفصحى وإلفها ونشر الوعى بها لدى جماهير الأمة العربية كلها.

رابعًا: المشكلة فى العربية ولماذا؟:

تبين مما تقدم، أن الذى فى العربية من الفصحى والعامية، ليس إلا صورة مما فى غيرها، فما كانت لغتنا فى هذا بدعًا من اللغات أو شذوذًا فى قانونها العام.

ولهذا سارت اللغة العربية ـ مثلما سار غيرها ـ سنين من بعد سنين، وقرونًا فى إثْر قرون، بهذه "الثنائية اللغوية"؛ تحمل فصحاها أعباء العلم والأدب، وتحمل

عاميتها أعباء الحياة؛ لا تعارض ولا تناقض ولا صراع، بل لقد استطاع العرب ـ على الرغم من ذلك ـ « أن ينشئوا ملكًا واسعًا ويقيموا مجتمعًا زاهرًا، وينشروا في العالم القديم حضارة زاهية، وصلت قديم الزمن بجديده، وكانت من عوامل نهضة الغرب في العصر الحديث »[1].

« وكان يمكن أن تستمر الحال في العصر الحديث على ما كانت عليه من ازدواج بين الفصحى والعامية، لولا أن الموقف تغير، وأن عوامل اجتماعية وثقافية وقومية جدّت عليه، فحولته إلى نضال حاولت فيه اللّهجات ولا تزال تحاول، أن تكسب لأنفسها ميادين جديدة، وان تنتقص الفصحى من أطرافها بل ذهب بعض أنصار اللّهجات في مرحلة ما، إلى تحدى الفصحى والمناداة بإحلال العامية محلها، لا في الحياة اليومية والآداب الشعبية فحسب، ولكن في نواح من الآداب المكتوبة أيضًا[2].

فالمشكلة عندنا ـ إذن ـ أن بعض الغربيين من شايعهم من المستغربين ـ قد أرادوا أن يستغلوا ظروفًا تاريخية مرت بها اللغة العربية في عهدها الأخير، فجعلت مسافة الخلف واسعة فيها بين الفصحى والعامية، بخلاف ما هو عليه في بعض اللغات الأوربية ـ أرادوا أن يستغلوا ذلك في "دعوة مشبوهة" إلى نبذ الفصحى واستبدال العامية بها في مختلف المجالات حتى مجالات العلم والأدب والتأليف في شتى الموضوعات.

وتلك دعوة خطيرة، وراءها ما وراءها من أغراض وغايات!!! وفيها ما فيها من آثار وخيمة على المسيرة الحضارية والثقافية للأمة كلها!!

---

(١) من بحث للمرحوم الأستاذ الكبير محمد خلف الله أحمد ألقاه في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، بحوث ومحاضرات دورة ٣٤ ص٢٥٩.

(٢) المرجع السابق ص٢٥٣.

وما كان قولهم ليترك أثرًا أو يدرك غاية، لولا أن دعا مثلهم إليه وأعانهم عليه قوم آخرون، ينتسبون إلى العرب ويعيشون بينهم. ولكن أرواحهم معلّقة بالغرب، فنهجوا نهج الغربيين وقالوا فى العربية مثل قولهم، وصاحوا فى المحافل والمجامع والمؤتمرات، أن بدلوا العامية بالفصحى، ثم اجعلوا العامية هى لغة العلم والكتابة، لأنها لغة الحياة.

تلك هى الأرجوفة التى أرجف بها المرجفون فى أرجاء كثيرة من وطننا العربى، منذ أواخر القرن الماضى، ولا يزال خَلَفٌ لهم فينا، بها يرجفون.

ومن أجل ذلك نتقدم إلى تحليل هذه المشكلة وبيان ظروفها فى اللغة العربية كما يظهر فى الفكرتين التاليتين:

١. التباعد بين الفصحى ولهجاتها فى اللغة العربية:

إن الحديث عن هذه المشكلة فى العربية خاصة، غالبًا ما يمتد لغايات وأغراض غير لغوية: احتلاليّة وسياسية ودينية، فلا محيص إذن عن كلمة تجلو وجه الحقيقة فيها، بما نطمئن عنده ونميل إليه من رأى نعتقد فيه الحقّ والسداد.

والحقّ فى رأينا وعلى مذهبنا أن ما نراه فى العربية من فروق أو خلاف بين الفصحى ولهجاتها، يمثل ظاهرة عامة فى كل اللغات التى اتسعت اتساع العربية وانتشرت انتشارها، مثل الإنجليزية والفرنسية، وغيرهما من اللغات التى تعدت حدودها، وامتدت خارج أرضها وذلك بحكم التأثير الضرورى لتغير الظروف وتبدل الأحوال فى أداء كل مجموعة بشرية للّغة التى يتكلمون بها.

ولهذا نجد فى كل اللغات نموذجًا راقيًا للعلم والأدب وسائر الشئون الجادّة فى الدولة التى تتكلم واحدة من هذه اللغات، هذا النموذج هو اللغة الفصحى أو المشتركة، ويقابله صور لغوية كثيرة ومنوّعة بعدد أقاليم كل دولة وتنوعها وهى التى نسميها لهجات!

تلك ظاهرة عامة، ما كانت العربية فيها بدعًا من اللغات ولا شذوذًا فيها[1]، ومع ذلك نجد كثيرًا من الناس ينظرون إلى الخلاف أو المسافة بين الفصحى واللّهجات فى العربية على أنه مشكلة من مشكلات هذه اللغة وسمة من سماتها، فلا يوجد إلا فيها. وفى ذلك بعد عن الحقيقة ومجانبة للصواب، أو تحريف متعمد يقصد به إلى "فك" الارتباط الوجدانى اللازم بين العرب ولغتهم ـ التى هى كذلك لغة دينهم ـ وتلك قضية أخرى؟!

٢. الفروق الموضوعية بين العربية وغيرها من اللغات الحضارية:

قد يقال: إن الخلاف أو البعد بين الفصحى ولهجات الخطاب، فى الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية أو غيرها. خلاف يسير غير ملاحظ فلا يكاد يُرَى أو يُحَسُّ لكنه فى العربية واسع وكبير.

فإذا افترضنا أن هذا صحيح فإنه لا يرجع إلى أمور ذاتية، فى بنية العربية أو بنية هذه اللغات فخالفتهنّ وخالفنها، أو تأخرت عنهن وتقدّمْنَ عليها. بل يرجع إلى ظروف وعوامل خارجية: تاريخية ودينية وثقافية أحاطت بكل لغة، فحددت مسيرتها، ومقدار ما لحقها من أشكال التطور ومظاهره.

ولقد حقت كلمة التطور على كل اللغات دون تمييز بين الفصحى فيها واللّهجات؛ ولهذا تقارب ما بين لهجات الخطاب والفصحى فى الفرنسية والألمانية وغيرهما من اللغات الحضارية المعروفة، وذلك أمر منطقى وبدهى؛ لأن الفصحى أو النموذجَ الأمثلَ فى هذه اللغات يلاحق لهجاتها فى التطور ويسايره على خطوط متوازية، فكل مرحلة فى التطور تقطعها اللّهجات فى كثير من اللغات المعروفة نجد أن فصحاها قد قطعت مثلها أو قريبًا منها.

---

(١) انظر ما قاله فندريس وتعليقنا عليه فى المسألة الثالثة، ص١٣٦ وما بعدها من هذا الكتاب.

ولهذا نجد الفروق اللغوية كبيرة وواسعة بين الإنجليزية الأدبية في العصور الوسطى والعصر الحديث وكذلك الفرنسية والألمانية والروسية وغيرها، وهذا يصدق أيضًا على لغة العامل اليومي في كلٍّ من هذه اللغات؛ لأن عوامل التطور فيها متساوية أو متقاربة بين النموذج الفصيح ولهجات الخطاب.

ومن أجل ذلك - فحسب - ضاقت المسافة في هذه اللغات بين فصحاها ولهجاتها.

أما العربية فشأنها مختلف!!

لأن عاملاً طرأ عليها، وحدثًا عظيمًا حدث في تاريخها؛ فغير وجهتها وحدد مسيرتها في إطار ديني لا تفارقه ولا يُفارقها؟!

لقد ظهر الإسلام، وشاء اللّه جلت حكمته أن ينزل كتابه العظيم باللسان العربي المبين؛ فكان هذا سبيلاً إلى أن ترتبط العربية بالإسلام برباط متين يمتد بامتداد الزمان، إذ هي لغة القرآن الكريم. وكان لهذا الارتباط آثاره الجليلة في العربية.

ومن أهم هذه الآثار: أن القرآن الكريم ثبت النموذج الأمثل فيها، وأعطاه أسباب القوة والبقاء والاستمرار، محتفظًا بصورته الشامخة التي حددت لغة القرآن معالمها، ورسخت دعائمها ووطدت أصولها.

ولذلك اختُصَّت العربية من دون سائر اللغات بأنها لغة محافظة، استطاعت أن تحتفظ بهيئتها أكثر من خمسة عشر قرنًا؛ فتضاءلت الفروق اللغوية بين العصور التاريخية المختلفة؛ ولهذا نقرأ أدب العصر الجاهلي، ثم نقرأ أدب العصور الإسلامية المتتابعة إلى العصر الحديث، فنجد أن اللغة واحدة أو تكاد، مع وجود فاصل زمني بين العصرين يبلغ في بعض الأحوال ألف عام أو يزيد، وليس ذلك إلا للعربية؟!

وتفسيره هين ويسير؛ إذ مرده إلى أن تثبيت القرآن الكريم للنموذج الأمثل

في العربية، جعل التطور يدور حول هذا النموذج يناله من هذا الطرف أو ذاك، فـي نسق تركيب، في اختلاف دلالة. لكنه أبدًا لا ينفذ إلى صميم النموذج؛ فيغير بنـاءه أو يبدل أسسه وأصوله!!

أما اللّـهجات فقد انطلقت خطواتها في التطور وتلاحقت، دونما حد يحـد، أو قيد يقيد. فانفصلت من الفصحى، وابتعدت عنها ثم تزايد مـع الزمـان تباعدهـا، واتسع مع المكان انفصالها!!

اللّـهجات تتغير وتختلف بتغير الزمان واختلاف المكان. والفصحـى مرتبطـة بالقرآن ثابتة سامقة باسقة؛ لا يغيرها تعاقب العصور ولا تبدل الأوطان!!

ويضاف إلى ما تقدم "ظرف" موضوعيٌّ آخـر خـاصٌّ بأمّة العربيـة ويتمثـل فيما أعقب الاحتـلال البغيـض مـن غلبـة الأميّـة، وشـيوع الجهـل، وانتشـار الفقـر. وتضاؤل فرص التعليم أمام السّواد الأعظم من الناس. وكـل أولئـك أمكـن للعاميـة، ووسّع من رقعتها، ومدّ في مساحة استعمالها.

وفي تلك الحقبة ظهر "الزجّالون" وسطع نجمهـم وعـلا صوتهـم، وطـارت كلمتهم، وعَمق تأثيرهم؛ فكانت لهم آثار بعيدة المدى في الاستعمالات اللغوية لدى أكثر الناس.

وقد حتم هذا أن يزداد الانفصال عن الفصحى ولانسلاخ منها لدى جماهير المتكلمين.

وهكذا ننتهي إلى أن مـا يُرى مـن اتسـاع بـين الفصحـى واللّـهجات فـي العربية في رأي فريق كبير من المعاصرين إنما يرجع إلى أمرين كلاهما خارج عنها:

الأول القرآن العظيم وأثره في تحديد النموذج الأمثل وتثبيـت صورتـه لهـذه اللغة الشريفة.

والآخر ظروف الأمة نفسها وما حدث فيها من تخلف وجهل وفقر تحت وطأة الاحتلال الأثيم.

من أجل ذلك ـ ومن أجله وحده ـ كان ما بين الفصحى واللّهجات في العربية، مخالفًا لما بين الفصحى واللّهجات في سائر اللغات.

فلماذا إذًا هذه "الأراجيف" يرجف بها المرجفون إذ يدعون ـ حينًا بعد حينٍ ـ إلى إنزال الفصحى في بلاد الضاد من عليائها، أو هجرها واستبدال العاميات بها؛ ولن تزول الفصحى، ولن تذهب من القلوب قداستها، ولن يتوارى في الأبصار والأسماع جمالها وجلالها، ما بقي على الأرض إنسان يتلو هذا القرآن!!

خامسًا: الدعوة إلى العامية وحجج أنصارها:

بدأت الدعوة إلى العامية، منذ أواخر القرن الماضي؛ إذ ارتفعت في الثلث الأخير منه "في بعض جنبات الوطن العربي، دعوة أجنبيةٌ المصدر في غالب الأمر، تصم الفصحى بالعِيّ، وتتهمها بالقصور والجمود، وتنسب إليها ما أصاب الشعوب العربية من تخلف، وتوسوس للعرب باصطناع ألسنتهم المحلية، لغات قومية لهم؛ بها يكتبون ويؤلفون، ويسجلون علومهم وآدابهم وسائر نشاطهم الفكري، وترددت أصداء هذه الدعوة في بعض مؤتمرات المستشرقين الدولية.

وسواء كانت هذه الدعوة ناشئة من قصور أصحابها عن فهم مكانة الفصحى في حياة العرب والمسلمين وتقاليدهم وتراثهم، أم من مآرب أخرى، تَمُتّ بسبب إلى سياسة إضعاف المقومات الأصلية عند الشعوب النامية التي تنشد حقّها في الحياة الحرة الكريمة، فإنها قوبلت في الأوساط العربية بالاستنكار والرفض وانتدب لتفنيدها بعض الثقات من علماء العربية وكتابها(١).

---

(١) بحوث ومحاضرات المجمع اللغوي دورة ٣٤ ص٢٥٣.

فى تلك الدعـوة إذًا بـذور الغايـة الخفيـة، وعلامـات مـن الغـرض المسـتور وسوف نضرب صفحًا عن الغايات والأغراض؛ لأن الحديـث عنهـا يتجـاوز حـدود الدراسة اللغوية الموضوعية، بل نستعرض الحجج التى يعتمد عليها دعاة العاميـة، ثـم نحاول مناقشتها بما ينبغى لها من موضوعية وأناة!!

تقوم الدعوة إلى العامية على طائفة من المزاعم، أهمها كما عرضها القـاضى أمين فكرى فى مؤتمر المستشرقين الذى انعقد فى السـويد والنرويج عام ١٨٨٩م:

« أن اللغة العربية المستعملة للتخـاطب اليوم فـى البـلاد التـى يتكلـم فيهـا باللسان العربى، قد صارت فى غاية البعد عن اللغة العربية الفصحيـة الأصيلـة حتـى صح أن تعد كلّ منهما لغة مستقلة عن الأخرى.

وأن اللغة العاميّة وافية بحاجات أهلها فى التفـاهم ولهـم أن يسـتعملوها فـى جميع أنواع المعانى عالية ودانية، علمية وأدبية وصناعية وشرعية وسياسـية ... ولهـم أن يستعملوها كتابة وتأليفًا، كم يستعملونها نطقًا.

وأن أمل التقدم ضعيف مادامت العامة تتعلم اللغـة الفصحـى (لغـة القـرآن) وأن الأمة العربية إذا بقيت علومها وآدابها مختزنة فى العبارة الفصيحة، كانت كأنها فى لغة أخرى غير العربية.

ولا يصل آحاد الأمة إلى حاجتهم من ذلك إلا بعد أن يصرفوا الجزء الأهـم من عمرهم فى تحصيل اللغة، فلو أن العلوم نقلت إلى اللغة العاميـة، وهـى لغـة الأب والأم وجميع الخلطاء، يتعلمها الصبى كما يتعلم المشى والأكل والشرب لكان عنـده من فضل الزمان ما يصرفه فى تحصيل تلك العلوم وهو فى أوائل الصبا »[1].

يظهرنا التأمل فى هذه الحجج كلها، على أنها تجتمع فى ثلاثة أمور:

---

(١) المرجع السابق ص٢٦٠ – ٢٦١.

١.المسافة اللغوية الواسعة بين الفصحى والعامية.

٢.عدم قدرة الفصحى على التعبير عن العلوم، ولهذا يجب أن تكون العامية هى لغةَ العلم والتعليم.

٣.عجز العوام عن فهم الفصحى.

وتلْك مزاعم أو دعاوى متهافتة لا تثبت أمام التمحيص ولا يملك أصحابها أن يقيموا عليها دليلاً، إلا دليل التعسف والاختلاق من أجل الهدم والتدمير أو العيب والانتقاص.

ولا خطر فى هذا ولا أثر له، إلا فيما قد يؤدى إليه من تعميق الشعور بغربة اللغة العربية عن أهلها، وغربة أهلها عنها. وهذا ينتهى إلى أن يبحث هؤلاء عن وسيلة غيرها للتفكير والإنتاج العلمى، وأخرى للعيش والحياة.

وعندى أن هذه الدعوى - وقد عرفنا أصلها الأجنبى - كانت تمهد الطريق إلى أن تكون وسيلة التفكير والعلم فى لغة غير العربية، لأن اصطناع العامية لغة للعلوم، أمر بعيد، بل هو من صميم المستحيل مع الاحتفاظ بصورة الوحدة الثقافية والفكرية فى الوطن العربى، أو فى أقاليم كل بلد من البلاد العربية على حدة.

وإذًا فلتدخل بلادنا لغة أخرى غير العربية، تكون هى أداة العلم، والطريقَ إليه. وهذا ما كان؛ فغدت لغةُ العلوم أعجمية: إنجليزية أو فرنسية أو ... أو ... بحسب دائرة النفوذ الاحتلالى التى يدور فى فلكها هذا البلد العربى أو ذاك.

إنها عاصفة "مصطنعة" أثيرت فى وجه العربية، بعد أن زحفت زحفًا مظفرًا على أكثر اللغات الحضارية فى العالم القديم والوسيط والحديث واستطاعت أن تحتل كثيرًا من مواقع هذه اللغات.

على أن "المنابع" الأجنبية لهذه الدعوة الجموح، تلقى ظلالاً كثيفة من الشك فى غاياتها وما تبتغيه من أغراض. ويكفى أن نعلم أن أصْلَ هذه الدعوة

ومبدأ أمرها يرجع إلى محاولات مستميتة قام بها "ويلمور" و"ولكوكس"، و"دنلوب" وكلهم إنجليزى جاء مع بنى قومه؛ ليحتلوا مصر وما حولها من بلاد العرب احتلالاً عسكريًا وسياسيًا واقتصاديًا وثقافيًا. وإنهم ليعلمون أن الاحتلال الثقافى ركيزة لازمة لاستمرار الوجود الأجنبى فى حياة الأمة، حتى بعد أن يتركوا الأرض، ويُصَفُّوا وجودهم العسكرى أو السياسى.

ولا سبيل إلى ذلك إلا بتفتيت اللغة القومية وتحويلها إلى أشلاء متناثرة، هى ما يسمى باللّهجات العامية، ثم عزل الفصحى عن أسباب الحياة والبقاء؛ فلا يكتب فيها أدب ولا يؤلف بها علم، لكى تموت - فى تقديرهم - بعد حين.

إنهم يدركون أن الكتابة باللّهجات العامية، أمر مستحيل، ولكنهم يدعون إليها ويروّجون لها؛ فإذا ما تم ذلك، ثم ظهر أن استمراره غير ممكن أصبح الطريق مفتوحًا أمام "لغة أجنبية" للأدب والعلم والكتابة والتأليف!!

هذا - فى حقيقة الأمر - هو غرضهم، وتلك هى غايتهم، ولا غرابة فى ذلك منهم؛ لأنه هدفهم الذى تركوا من أجله بلادهم.

ولا غرابة أيضًا، أن يدعو بدعوتهم عرب ومصريون لهم مذاهب أو اتجاهات انحازت بهم إلى موقف "عدائى" صريح ضد كل ما هو عربى وضد اللغة الفصحى بطبيعة الحال. وفى مقدمة هؤلاء: "اسكندر المعلوف" و"سلامة موسى".

أما "المعلوف" فكان يدعو إلى نبذ الفصحى والاستغناء عنها بالعامية السورية أو أى عامية يتفق عليها العرب؛ لأنها أدق فى معانيها وأسهل فى ألفاظها؟! وهو فى ذلك يؤيد "ويلمور" فى دعوته ويدافع عنه، ويعتمد على أقواله فى صياغة رأيه(١).

---

(١) انظر: تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها فى مصر للدكتورة نفوسة زكريا.

وأما "سلامة موسى" فقد تحمس حماسة شديدة لدعوة "ولكوكس" المهندس والأديب الإنجليزى الذى شغلته مصر ولغتها، وأصبح همومه مصرية أكثر مما هى إنجليزية، وكان أكبر همّ شغل "ولكوكس" ـ فيما يرى "سلامة موسى": « هو هذه اللغة التى نكتبها ولا نتكلمها؛ فهو يرغب فى أن نهجرها ونعود إلى لغتنا العامية فنؤلف فيها وندون بها آدابنا وعلومنا »(١).

فسلامة موسى يصدر فى رأيه عما صدر عنه "ولكوكس" فى رأيه، تحركه بواعثه ويَسْعَى إلى غاياته. وما نتصور أن تكون لهذه الدعوة "الإنجليزية" من غاية إلا غاية التمزيق والتفريق بين الأوطان العربية الإسلامية، بعزل كل واحد فى دائرة مغلقة عليه؛ إذ قد قُطِعَت أسباب التفاهم الموحد بين الجميع، لأن اللغة واحدة من أهم دعائم التواصل القومى، إن تكن أهم هذه الدعائم على الإطلاق.

على أن "العربية" تتميز بخصوصية، لا تَشْرَكُها فيها لغة عرفها البشر فى أى مرحلة من مراحل تاريخهم الطويل.

وتلك هى ارتباطها بالدين، وارتباط الدين بها؛ إذ وثقها القرآن الكريم وحفظ صورتها المثالية على العصور والأجيال. وحول هذا القرآن قامت نهضة علمية شاملة رائعة، فإن تترك هذه اللغة أو يَتَحَوّلْ عنها أصحابها إلى غيرها، فهذا يعنى ـ حتمًا مقضيًا ـ أن يترك القرآن وأن تنقطع الأسباب، كل الأسباب، بين المسلمين ـ عربًا وغير عرب ـ وبين تراث عظيم مجيد، كان من أهم أسباب تفوقهم وقيادتهم الرشيدة لأمم العالم فى عصر قوتهم، وما هو ببعيد .. ومعنى هذا كله أن تصير الأمة العربية فروعًا متطايرة، متناثرة هنا وهناك؛ لأنها بلا جذور ولا أصول!!

لكن هذه ليست قضية لهؤلاء؛ كلا بل هى قضيتهم. ولا قضية لهم سواها ـ

---

(١) المرجع السابق ص١١٦ وما بعدها.

قضيتهم أن يفتّتوا وحدة العرب ويمزقوا أوصالها تمزيقًا، فلا تعودَ إلى اجتماع أو وفاق.

ومن أجل ذلك لم يكتف "سلامة موسى" بترديد مزاعم "ولكوكس" وغيره من الإنجليز، بل زاد فكان هجومه على لغة القرآن أحد حدة وأضرى ضراوة؛ لأن هذه اللغة عنده غير صالحة للأدب المصرى، وأن "النَّكْبة الحقيقة" هى أن اللغة العربية لا تخدم هذا الأدب ولا تنهض به؛ لأن الأدب هو مجهود الأمة وثمرة ذكائها وابن تربيتها ووليد بيئتها؛ فهو لا يزكو إلا إذا كانت أداته لغة هذه البيئة التى نبت فيها[1] وأكثر من ذلك أن الفصحى تبعثر وطنيتنا المصرية وتجعلها شائعة فى القومية العربية فالمتعمّق فى اللغة الفصحى يُشْرَبُ روح العرب ويعجب بأبطال بغداد، بدلاً من أن يُشْرَبَ الروح المصرية ويدرس تاريخ مصر؛ فنظره متجه أبدًا نحو الشرق، وثقافته كلها عربية شرقية، مع أننا نحتاج إلى الاتجاه نحو الغرب والثقافة الغربية ... وليس من مصلحة الأمة المصرية أن ينزع شبابها نحو الشرق .. إلخ[2].

إن هذا الكلام دليل مبين على أن القضية هنا ليست قضية نوع اللغة التى ينبغى أن تسود؛ لأنها أفضل أو أنسب، وإنما هى شعور بالكراهة الخانقة، تجاه العربية الفصحى؛ لما تمثله من قيمة، وما تدل عليه من معنى فى أعماق الوجدان العربى الإسلامى؛ لأنها لغة القرآن!

إن صدور مثل هذا القول من مثل سلامة موسى، أمر مقبول أو ربما وجدنا له تفسيرًا فى مذهب الرجل أو اتجاهه العام.

ولكنه عجيب غريب، حين يكون مصدره بعض من يدخلون فى عداد العرب والمسلمين!!

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق.

إنه الداء الوبيل أصاب هذه الأمة فى كَبدهـا، فتحولـت بسيفها إلى عنقهـا ووجهت سهامها إلى صدرهـا، وجرحـت بيديهـا ذاتهـا، وأوهنـت بنفسـها قواهـا، وغدت الأمة الواحدة أممًا كثيرة متناحرة متنافرة.

ونترك الحديث عن هذه الصورة المؤلمة إلى مناقشة الأمور الثلاثة التى ذكرنـا آنفًا، أن مزاعم المرجفين بالعامية تجتمع فيها:

أما الأمر الأول وهو تبـاعد مـا بين العامية والفصحى فقد تحدثنـا عنـه، وفصلنا القـول فيـه، وفسـرناه[1] ورجعنـاه إلى أسبابه فـى المسـألة الرابعـة مـن هـذه القضية. والواقع اللغوى العربى يظهرنا ـ كما لاحظ القاضى أمين فكرى بحق ـ على أن لغة العامة فى الأقطار العربية، لم تبعد عن الفصيح بما تصير به لغـة مسـتقلة، فـإن المادة اللغوية واحدة تقريبًا وهيئات التراكيب ترجع إلى ما هو معروف فـى تراكيـب الكلام العربى، وما طرأ على المفـردات مـن تحريـف أو تغيير بنقـص أو زيـادة، لم يطمس الأصل الفصيح لأكثر الألفاظ المستعملة فى اللغة العامية.

وأما الأمر الثانى وهو عجز الفصحى أو قصورهـا فـى التعبـير عـن العلـوم التجريبية ـ فهذه دعوى متهاوية، يدحضها الواقع، ويردّها تاريخ عريض طويل لهـذه العلوم فى اللغة العربية.

والحقيقة الثابتة هنا، أن ما كتبه العرب باللغة العربية فى الطـب والكيميـاء والفلك والطبيعـة والرياضيـات، كـان أساسًـا استمدت منه أوربـا دعـائم نهضتهـا الحديثة على نحو ما تقدم بيانه مفصلاً فى الفصل الثانى من هذه الدارسة.

وأما الأمر الثالث: وهو أن عوام النـاس لا يفهمـون اللغـة الفصحى، فهـو زعم مردود كما سوف يثبت بعد قليل. ولكن دعاة العامية يُبْدِئـون فيـه ويُعِيـدون؛

(١) انظر ص١٣٨ وما بعدها من هذا الكتاب.

حتى يستقر فى أعماق الأجيال فكرة راسخة وعقيدة ثابتة والنتيجة واضحة لأنها بدهية ...

يقولون: مادامت الفصحى غير مفهومة، فما جدوى أن نكتب بها علمًا أو ننظم عليها شعرًا، أو نبدع فيها أدبًا؟!

وإن هذه الموضوعات كلها، يخاطب بها جماهير الناس فينبغى أن تكون باللغة التى يفهمها جميعهم، لكى تتحقق الفائدة منها، وليس أمامنا إلا لغة العامة منهم، إذ هى محور حديثهم ووسيلة تفاهمهم، لكى نستطيع أن نلحق بمواكب الحضارة أو ننطلق فى آفاق العلم الحديث.

وهكذا تكون الدعوة إلى العامية تشكيكًا صريحًا فى قيمة الفصحى، ومحاولة مكشوفة لإبعادها من مجالها الثابت الممتد، وهو مجال التأليف والكتابة العلمية أو الأدبية.

فماذا بعد هذا ؟!

ما هو إلا جيل أو جيلان، ثم تتحول الفصحى إلى لغة غريبة تختزنها ذاكرة التاريخ، ولا تعيها بصيرة الواقع، فأهلها - إن بقى لها أهل - لا يقدرون عليها كلامًا، ولا يطيقونها سماعًا، وما هو بعد ذلك إلا جيل أو جيلان، ثم تزول العامية العربية نفسها، بما يطرأ على أرض العرب من تغيرات سياسية أو اجتماعية تصطحب فى كثير من الأجيال احتلالاً ثقافيًا شاملاً، فتكون النتيجة المحتومة لهذه المقدمات كلها أن يتحول الشعب العربى إلى لسان أعجمى أو ألسنة أعجمية مختلفة، بعد أن ذاب كيانه وغابت هويته، وتلاشى وجوده منذ عهد بعيد!

العامة لا يفهمون! تلك حجة داحضة، وذلك زعم مكذوب!!

أولاً: لأن العامة يفهمون فى أكثر المواقف التى يكون مجال الحديث فيها

للفصحى وحدها، وإنه لظلم لجماهير الناس مبين أن نزعم عليهم عدم الفهم بغير العامية؛ « فكثيرًا ما نرى العامة فى الحواضر والقرى يتحلقون فى نواديهم ومحالهم حول قارئ يتلو عليهم من صحيفة ـ ولا سيما فى المناسبات المهمة ـ أنباء الحوادث الجارية أو خطب الزعماء وأحاديثهم عنها وغير ذلك. وإنهم ليتابعونه فى كل مرحلة بضروب من التعليق والتعقيب تدل على فهم صحيح لا شك فيه.

وهم إذ يستمعون للقرآن الكريم وخطب الجمعة والعيدين ــ لا يفوتهم أن يدركوا جملة المعانى وفحوى الآيات مع بلاغتها وسمو أسلوبها »(١).

وفى الماضى القريب كانت الأميّة الكاملة ظاهرة فاشية فى أرجاء المجتمع العربى ومع ذلك، لا تعدم فى كثير من الأحيان أن ترى أحد هؤلاء يحرص على أن يقرأ له أحد المتعلمين فى كتاب من عيون الكتب الأدبيّة، أو فى مجلة دينية متخصصة عالية الفكرة فصيحة اللغة(٢).

ثانيًا: أن الكتابة العلمية أو الأدبية غير ممكنة إلا باللغة الفصحى يقول الأستاذ العقاد فى ذلك:

« فإن ثقافة العلوم والآداب لا تستغنى عن لغة خاصة يُلاحَظ فيها طول

---

(١) من قضايا اللغة والنحو لأستاذنا الجليل على النجدى ناصف رحمه اللّه ص٤٥ وما بعدها.

(٢) لدىّ تجربة شخصية من عهد الصبا، تصلح مثالاً قويًا لقضيتنا هذه: كان جدى ـ رحمه اللّه ـ مشغوفًا بالعلم والأدب على الرغم من أنه أمى كامل الأمية، فكان يجلسنى الساعات الطوال ـ تحت مصباح الغاز ـ لأقرأ له كليلة ودمنة، وهى فى القمة العالية لغة وفكرًا. أو فى مجلة لواء الإسلام وكانت فى تلك الفترة مهرجانًا علميًا يشترك فيه كل شهر، كبار العلماء المسلمين الذين اشتهروا برصانة اللغة وعمق الفكرة، كالشيوخ: عبد الوهاب خلاف وعبد الوهاب حمودة، ومحمد الخضر حسين ومحمد أبى زهرة وغيرهم من الأعلام البارزين. وكان حرص جدى على هذا المجلس كل مساء، يعكس مقدار متعته بما يسمع وفهمه لجملة معانيه، وإلا لأدركه الملل، وتحول عنه بعد حين لكن هذا لم يحدث.

الزمن وامتداد المكان وتعاقب الأجيال. واللّهجة الشعبية بطبيعتها لهجة موقوتة متفرقة، موكلة بمطالب المعيشة اليومية، لا تيسر للعالم أن يكتب بها علومه وليس معقولاً أن يتعلم كل شئ فى المدرسة إلا أداة الفهم والتفاهم فلا تستحق عنده كلفة التعلم والاطلاع »[1].

يريد الكاتب الكبير بهذا، أن حاجة الناس إلى تعلم الفصحى لا يعيبها، ولا يبيح استبدال العامية بها فى مجالات لا تصلح فيها إلا الفصحى.

هذا من الجانب النظرى المجرد، فإذا انتقلنا إلى جانب الواقع، وجدنا مشكلة كبيرة لابد من حلها، قبل أى تفكير فى التحول إلى العامية وتتمثل هذه المشكلة فى السؤال التالى:

بأى عامية نكتب للناس؟

بعامية قُطْرٍ بعينه؟ فلن يرضى الباقون فإذا انتقلنا إلى داخل القطر، رأينا من صور العامية بعدد ما يعرف فى هذا القطر من الأقاليم، وأحيانًا نواجه فى البلد الواحد عدة عاميات، فأيها نأخذ وأيها نترك؟

لو حررنا هذه الدعوة الخطيرة، مما يمكن أن يكتنفها من أغراض، لوجدنا تطبيقها نوعا من المحال، بل ضربًا من الخيال.

ذلك أنه يقتضى تعديد اللغات الثقافية بين الأقطار العربية من العراق إلى المغرب، بل تعديد اللغات الثقافية فى القطر الواحد كما تتعدد صور الكلام فى مصر؛ بين رشيد والإسكندرية ودمياط فى الشمال، وبين أسيوط وقنا وأسوان فى الجنوب، إذ كان الصعيدى لا يتكلم فى معيشته اليومية كما يتكلم الرشيدى والإسكندرى وأبناء الشمال على الإجمال[2] وما أبعد هذا عن حدود الإمكان.

---

(١) بحوث فى اللغة والأدب ص٤٤ ومجلة المجمع اللغوى جزء ١١ ص٧٥.

(٢) انظر العقاد فى المرجع السابق.

رأى فى الحل:

إن حل المشكلة لا يكون بإلغاء الفصحى - كما يرجف دعاة العامية - وإنما يكون بالبحث عن جذر هذه المشكلة وأصلها الذى تقوم عليه، يقول الأستاذ الكبير على النجدى ناصف[1]: « والمشكلة فى صميمها مشكلة الجهل والفقر فإذا أردنا أن نحلّها حلاً حاسمًا، فعلينا العمل فى جد ودأب، على رفع مستوى الشعب العقلى والاقتصادى معًا ... ».

إن العامية صنيعة الجهل والاستعمار جميعًا، خلقها الجهل وشدّ أزرها الاستعمار وشيعته.

فحل مشكلة الازدواج أو "الثنائية" اللغوية فى العربية لا يتحقق بإلغاء الفصحى أو زحزحتها عن مكانتها؛ لتستوى العامية على عرشها فى الأدب والعلم؛ فذلك غير جائز وغير ممكن.

وإنما تحل هذه المشكلة بتعليم العامة وزيادة تثقيفهم حتى يرقوا إلى فهم ما لا يفهمونه من لغة القرآن.

على أن العامية ما كانت لتنتشر هذا الانتشار، ويصير لها هذا الموقع المستقل عن الفصحى، لولا الظروف الخانقة التى أحاطت بالوطن العربى من كل جانب، وفرضت عليه عزلة الجهل والتخلف والجمود، فحين نخرج من العزلة الفكرية ونحطم حواجز الجمود، وحين ننهض بأفراد الشعب ونرقى بما عندهم من العلم ونزيد ما لديهم من وعى - حين يتحقق لنا ذلك كله أو بعضه، سوف تضيق الفجوة بين الفصحى والعامية، كما حدث فى التاريخ الأول للعربية، وكما حدث فى لغات كثيرة معاصرة تقارب فيها ما بين لغة الحياة ولغة العلوم والآداب.

---

(١) من قضايا اللغة العربية.

سادسًا: ضرورة الفصحى:

هى خاتمة المطاف فى حديثنا هنا عن هذه القضية بين قضايا الوجود الثقافى والحضارى للأمة العربية الإسلامية بين غيرها من الأمم، وسوف نتحدث عن هذه الضرورة اللازمة فى جهات ثلاث.

١. العالم العربى.

٢. الصلة بالمجتمع الإسلامى.

٣. الصلة بالتراث.

(١) ضرورة الفصحى للعالم العربى:

لقد ظهر مما تقدم، أن استبدال العامية بالفصحى، أمر غير ممكن فى مجال كتابة العلوم والآداب، لأن للعامية مجالاً ضيقًا محصورًا، هو مطالب الحياة اليومية، ولهذا تتشكل فى عدة صور تختلف باختلاف البيئات الاجتماعية التى تعيش فى وطن واحد.

أما الفصحى فهى الصورة العامة الموحدة، الباقية الممتدة التى تتجاوز حدود الزمان والمكان. فإذا تركنا الأمور التى يمكن أن يُجَادل فيها أو يُختَلَف عليها وتأملنا الواقع العربى وما يحيط به من ظروف متشابكة معقدة، وجدنا أن الحاجة اليوم إلى وحدة حقيقة أشد من أى وقت مضى .. ومن البدهيات الثابتة أن "اللغة" من أهم دعائم الوحدة وأقوى أصولها ثباتًا ورسوخًا.

إن العالم العربى المعاصر تتزايد فى كل يوم حاجته إلى اللغة الفصحى، لإثبات وجوده القومى، وتحقيق ذاته العربية فى عالم، لم يعد يعترف بالدويلات أو المقاطعات الصغيرة. ولن تكون الشعوب العربية "عالمًا عربيًا" أمام سائر الشعوب الإنسانية بغير لغة واحدة، يعرفها العالم كله، ويسمع فيها صوت العرب ورأى

العرب، فى مختلف المواقف وشتى الأزمات .. وغير ممكن ـ طبعًا أن تنقل كلمة العربية إلى بقية الأمم فى أشتات اللّهجات العامية المتناثرة فى أرجاء هذه الأمة.

(٢) الصلة بالمجتمع الإسلامي:

من المميزات الثابتة للعربية، أنها لغة دين عظيم، كانت هى سبيله إلى الناس وسبيل الناس إليه.

ذلك أن القرآن الكريم، قد نزل ـ كما شاء اللّه جلّت حكمته ـ باللسان العربى المبين. معنى هذا أن العربية ليست مطلبًا للعرب وحدهم، بل هى كذلك، مطلب لازم للمسلمين فى شتى البقاع والأرجاء التى عرف الإسلام طريقه إليها.

إن الإسلام هو دين اللّه إلى الناس كافة، وإن محمدًا ﷺ هو رسول اللّه ورحمته للعالمين. ومعنى هذا أن الأمة العربية جزء من كيان عظيم هو الأمة الإسلامية التى تنتشر بلادها فى أجزاء كثيرة من العالم المعمور.

ولا غنى للعرب ـ بحكم الإسلام ـ عن الاتصال بغيرهم من المسلمين فى كل مكان، فذلك طريقهم إلى العزة والمجد، لأنهم حينئذ يمثلون أمام العالم كله أمة قوية متماسكة، يمتد وجودها إلى كل أركان الأرض وليس إلى هذا الاتصال من سبيل، إلا اللغة الفصحى التى يقرأ بها جميعهم كتاب اللّه.

من أجل ذلك ينبغى أن يحرص المسلمون من غير العرب على تعلم اللغة العربية لأنها وسيلتهم إلى قراءة القرآن ومعرفة أحكام الإسلام وهنا يظهر ما على العرب من واجب مقدس فى نقل لغتهم إلى المسلمين فى أنحاء العالم ولكنهم بطبيعة الحال لن ينقلوا اللّهجات المتباينة فى البلاد العربية، وإنما ينقلون اللغة الموحدة التى نزل بها القرآن الكريم[١].

---

(١) سبق التعرض لهذه القضية من جميع جهاتها فى الفصل الأول من هذا الكتاب.

(٣) الصلة بالتـــراث:

من الثابت المعلوم فى الحضارات الإنسانية، أن كل أمة ذات حضارة تحرص على تراثها، وتعمل جاهدة على حمايته واستبقائه ممتدًا بامتداد عصور التاريخ. وكلما أبعد تراث الأمة فى القدم كان ذلك دليلاً على أصالتها ورسوخ أقدامها على طريق الحضارة.

المحافظة على التراث ـ إذن ـ لا تعنى النظر إلى الخلف أو الجمود على الماضى، بل هى دليل على قوة الانطلاق فى السعى إلى الأمام، لأنه انطلاق تحدوه الثقة بالنفس، والاعتداد بالذات وهو أمر ضرورى فى استحثاث الخطى على متابعة المسيرة الحضارية للأمة؛ إذ الحضارة التى تركن إلى جذورها من تراث أصحابها، أقوى وأبقى من الحضارة التى أنشأها أهلها إنشاء ليس له أصول فى تاريخهم القديم.

من أجل ذلك يكون الحرص على التراث ضرورة حضارية حيوية فى حياة جميع الأمم والشعوب، هذه حقيقة ثابتة لا تقبل إنكارًا ولا تحتمل جدلاً، ولنتأمل ما يلى؛ ففيه بعض الدليل على ما نقول:

فى منتصف العقد الخامس من هذا القرن (١٩٤٧) دارت فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة مناقشة حامية حول اقتراح عبد العزيز فهمى أن يكتب بالحروف اللاتينية بدلاً من العربية. وقد قوبل هذا المقترح بالاستنكار الشديد والرفض القاطع وليس هذا مهمًا لنا الآن، وإنما يهمنا تأمل ما جاء على لسان عالم تركى اشترك فى أحاديث التعليق على اقتراح عبد العزيز فهمى، وأشار إلى تطبيق هذه الفكرة فى تركيا منذ عهد كمال أتاتورك، ونص على أن كتابة التركية باللاتينية قد نجحت ولكنها عزلت الأمة التركية عن تراثها الإسلامى.

وهذا هو ما نريد أن نتبينه من عرضنا للمثل المتقدم.

إن الدعوة إلى العامية لا يتوقف خطرها على استبدال لغة بلغة، أو إحلال اللّهجات العامية الكثيرة المفترقة، محل الفصحى الواحدة، ولكنه يتجاوز ذلك إلى أثر أعمق، وخطر أدهى وأمرّ ...! وذلك هو عزل الأمة عن تراثها، ثم إلقاء هذا التراث في غيابات النسيان. ولعل أخطر ما في هذا المصير الوخيم هو الانتهاء إلى حالة، لا نقدر فيها على قراءة القرآن، أي لا نستطيع فهم الإسلام.

ومعنى ذلك أن تضيع صفة "الأمة" من العرب، إذ تصبح بلا لغة وتصير بلا دين!

فهل يراد لنا ـ بالدعوة إلى العامية ـ أن ننتهي إلى هذا المصير؟

ما أظن أحدًا يقبله أو يوافق عليه، إلا مدخول العقيدة أو مدخول العروبة.

وتلك أيضًا قضية أخرى!

وبعد:

فإن الفصحى هي لغة كتاب الله، وهي في الوقت نفسه لغة العروبة وجامعة ما بين العرب، ووسيلة المسلمين في كل مكان إلى الإسلام والقرآن، على حين أن العامية دعوة للشعوبية ونداء بالإقليمية؛ إذ لا وحدة لها، ولا سنة بين أنواعها المتعددة حتى في الإقليم الواحد.

فهل تستويان مثلاً ....؟؟ معاذ الله.

الفصل الرابع

التعليم

الفصل الرابع

التعليم(١)

تمهيد:

مشكلة أخرى من مشكلات العربية، أو قضية من قضاياها الكبيرة في العصر الحديث.

إن للتعليم اللغوي هدفًا تحرص عليه وتسعى إليه جميع الأمم؛ لما للغة من مكانه سامية وأثر عميق، في بناء الحضارة الخاصة بكل أمة. هذا الهدف أن يتقن المتعلمون لغتهم القومية فيتمكنوا منها ويسيطروا عليها، حتى تصبح على ألسنتهم وأقلامهم، وسيلة طيعة للتعبير عن الأفكار، ووعاء شاملاً للمعارف والخبرات!

ولكن التعليم في البلاد العربية ـ مع التسليم بأن أهدافه المرسومة قريبة من ذلك ـ يمضي إلى غاية مخالفة، ويسير في اتجاه غرض مضاد؛ فلا الألسنة سلمت، ولا الأقلام استقامت، ولا اللغة ظلّت كما كانت وسيلة العرب في نقل علومهم ومعارفهم إلى العالمين.

إن قيمة أي "نظام تعليمي" تحددها النتائج العلمية التي ينتهي هذا النظام إليها في خاتمة مطافه ونهاية مراحله. ومن البدهيات المعلومة أن نظام التعليم اللغوي لا هدف له إلا أن يخرج الطلاب عارفين باللغة التي يتعلمونها معرفة طيبة شاملة أو شبه شاملة. فإذا لم يحقق النظام التعليمي هذه الغاية فهو نظام فاشل، أو ـــ ينبغي أن يراجع، فيُقَوَّم بالتصحيح أو التغير.

---

(١) أطْلَقْنا اللفظ هنا فلم نقيده بتعليم اللغة لأمرين أحدهما أن القضية ترتبط بالعملية التعليمية كلها والآخر: بيان مسئولية سائر المعلمين في بقية المواد، عن المشكلة وأثرهم فيها.

فماذا فعل النظام التعليمى الخاص باللغة العربية فى مصر؟ أو فى سائر الوطن العربى؟!

إن الأهداف "المحددة" والغايات المرسومة لهذا النظام تجعل منه نظامًا "مثاليًا" فريدًا لتعليم اللغة ولكن يبدو أن واضعى منهجه ومُحدِّدى أصوله قد اقتصروا على الغايات النظرية فقط و لم يعبأوا بالوسائل العلمية؛ لأن الواقع اللغوى العربى اليوم ــ كما نقرؤه أو نراه أو نسمعه ـ يقوض كل ما رفعه علماء اللغة العربية من أركان، أو ثبتوه من قواعد وأصول!

وحسبنا دليلا على انعدام التناسب بين الغاية والوسيلة، أو لنقل بين مناهج التعليم، وواقع اللغة كما هى بين أيدى أهلها. وحسبنا فى هذا أن نقرأ ما حدده "التربويون" من هدف لتعليم اللغة فى المرحلة الابتدائية، وهى أولى الخطوات التى يخطوها التلاميذ على طريق التعليم.

فى هذه المرحلة يدرس التلميذ كثيرًا من فروع اللغة العربية كالمحفوظات والخط والإملاء والتعبير وقواعد النحو، « ويستهدف المنهج من تدريس هذه الفروع أن تنتهى بالتلميذ عند خاتمة المطاف، إلى تمكينه من القراءة، والحديث والكتابة، بطلاقة واضحة فى الإعراب والأسلوب، ودقة فى التعبير والأداء، إلى استطاعته تذوق ما فى الأدب من جمال يستمتع به، وتفاعله من بيئته ومشاركته غيره فى التفكير فيما حوله بقدر ما تسمح سنه ومواهبه ... إلخ »[١].

تلك هى غاية تدريس اللغة فى أولى مراحل التعليم كما حددتها المناهج التى وضعها كبار علماء التربية فى مصر وغيرها من البلاد العربية.

فإذا كانت هذه الغاية ـ على الرغم من بعد منالها وجلالة قدرها ـ هى غاية

---

(١) فن التدريس للتربية اللغوية للأستاذ/ محمد صالح سمك، ص٩٨ وما بعدها.

مناهج اللغة فى المرحلة الابتدائية وحدها، فكيف تكون إذن فى المرحلتين التاليتين وهم الإعدادية والثانوية؟

إن الخيال وحده هو الذى يستطيع ـ وفقًا لما تقدم ـ أن يتصور ذلك الهدف البعيد العظيم الذى تسعى إليه "الخطط المكتوبة على الورق" لتعليم اللغة، فى هاتين المرحلتين وفى غيرهما من مراحل التعليم العام وحسب المخططين أن أهدافهم لو تحققت، لكان لدينا علماء لغة، لا مجرد عارفين بلغتهم أو مثقفين فيها.

وكفى بما تقدم دليلاً !!

غير أنا نضيف إليه ـ زيادة فى البيان وتأكيدًا للبرهان ـ ما قاله رجال التربية فى فرع آخر من فروع تعليم اللغة وهو دروس التعبير؛ إذ حددوا خصائص مشتركة لكل من التعبير الشفوى والتحريرى، تتمثل فى المهارات الآتية:

١. الوضوح والتحديد والسلامة فى الفكرة التى يريد التلميذ أن يعبر عنها.
٢. عدم تكرار الكلمات بصورة متقاربة.
٣. الصدق فى تصوير المشاعر والدقة فى تحديد الأفكار ووصف الأشياء.
٤. تماسك العبارة وعدم تفككها.
٥. خلو الأسلوب من أخطاء النحو والصرف ومتن اللغة.
٦. تسلسل الأفكار وتتابع الأساليب، فى نظام منطقى مقنع.
٧. البعد عن استعمال الكلمات العامية والحذر من الوقوع فى الأخطاء الكلامية الشائعة[١].

ويختص التعبير الشفوى باشتراط النطق الجيد الصحيح والأداء المقنع المؤثر الذى ينطلق دون لجلجة أو لعثمة ... إلخ[٢].

---

(١) السابق ص٤٩١.

(٢) انظر المرجع السابق.

هذا هو ما حدده واحد من كبار المشتغلين بالتربية علمًا وتعليمًا، وما قاله ليس إلا مثلاً لما يقوله سائر العلماء التربويين فى هذا المجال. وهم جميعًا قد عرضوا علينا "تصورًا مثاليًا" لما ينبغى أن تنتهى إليه خطط تعليم اللغة فى المراحل المتعاقبة. وهذا بغير شك أمر جميل وعظيم ولكننا نتأمل الواقع نبحث عما تصورته الخطط أو المناهج "المرسومة" فلا نظفر بشىء!!

إن الواقع يقرر هنا فيما يخص التعبير « أن تدريب الطلاب عليه لم يحقق لهم الغاية من دراسته، على الرغم مما يبذله المدرسون من جهود كبيرة وطاقات عظيمة القيمة، فطالب المدرسة الثانوية بعد تخرجه فيها إما أن يلتحق بالجامعات والتعليم العالى، ونراه فى هذه الحالة عاجزًا عن تدوين مذكراته وتلخيص محاضراته، فضلاً عن ذلك يشيع فى كتابته كثير من الأخطاء النحوية والإملائية واللغوية والأسلوبية، مع رداءة الخط وسوء الترتيب والتنسيق، وإما أن يسلك سبيل العمل والسعى فى الحياة العامة، وهو فى هذه الحالة يبدو متخلفًا فى التعبير الوظيفى ــ بله الإبداعى ـ إذ يعجز عن كتابة برقية، أو بطاقة دعوة أو رسالة فى شأن من الشئون العامة أو تلخيص تقرير، أو إعداد كلمة تلقى فى مناسبة من المناسبات أى أنه ليس بقادر على التعبير عن حاجاته تحريرًا أو شفويًا كتابة أو كلامًا بلغة صحيحة خالية من الخطأ. ومن الواجب أن تبحث هذه المشكلة وأن تُقتَرَح لها الحلول »(١).

يدل هذا الكلام الذى قاله أحد خبراء التربية بعد تجارب وبحوث ميدانية كثيرة ومنوعة ـ على حقيقة باهرة لا حيلة لنا الآن فى التسليم بها مهما كانت قسوتها أو مرارتها وتلك هى: **أن أهداف مناهج التعليم اللغوى شىء، والواقع الذى يعيش فيه العرب شىءٌ آخر ... !!**

ومعنى هذا أن هناك "شرخًا" أو صدعًا خطيرًا فى بناء هذه المناهج، لابد

---

(١) الأستاذ/ محمد سمك المرجع السابق ص٤٩٦.

أن نصل إلى موقعه، ثم نبحث عن الوسائل الكفيلة بإصلاحه واجتنابه فيما بعد.

وفي رأينا أن واضعي المناهج اللغوية - كما ذكرنا من قبل - لم يهتموا إلا بالغايات؛ أي أنهم رسموا في خيالهم غايات جليلة، وحددوا أهدافًا جميلة، ثم لم ينظروا بعين النقد والتمحيص في الوسائل التي اصطنعوها وصولاً إلى أهدافهم أو غاياتهم؛ لقد كان حقًا أن يطرحوا على أنفسهم هذا السؤال:

أتصلح هذه الوسائل لتحقيق أهداف المنهج وغاياته، أم تعجز عن ذلك وتقصر دونه ؟؟

يبدو أن شيئًا من هذا لم يحدث، وأن نظرة كهذه لم تتم، فظلت الفجوة واسعة، والهوة كبيرة بين الوسيلة والغاية وبين المنهج والهدف. وتفاقم الخطر وتعاظم الداء إلى درجة غدا معها الإصلاح اليوم مستحيلا أو ضربًا من المستحيل.

وكفى بالحساب دليلاً!!

إن التلميذ العربي المعاصر، يقضي في التعليم - قبل الجامعة - أكثر من عشرة أعوام، وعلى امتداد هذه المرحلة، يتعلم لغته في دروس مختلفة وفروع كثيرة ... فإذا أتم تعليمه الجامعي في معهد متخصص كدار العلوم - استمرت دراسته اللغوية أربعة أعوام أخرى، لتكون عدة السنين بضع عشرة سنة. وتلك مدة طويلة تكفي وزيادة لإتقان ثلاث لغات، لا لغة واحدة هي لغة الدين والوطن، والآباء والأجداد، والعشيرة والصحاب!

فهل أتقن العربيةَ طُلاَّبُها ؟؟!!

لدى أعضاء الامتحان لطلاب السنة النهائية في دار العلوم وغيرها من أقسام اللغة العربية في الجامعات المختلف - لدى هؤلاء جواب مبين عن هذا السؤال!!

وفى الاستماع إلى المذيعين والمذيعات فى الإذاعة المسموعة والمرئية وكثيرٌ منهم تخرجوا فى أقسام اللغة العربية - فى الاستماع إلى هؤلاء أيضًا جوابٌ مبينٌ عن هذا السؤال. وفى هذا الصدد أذكر أنى ذات يوم، شاهدت فى الإذاعة المرئية مذيعة تلقى بعض الأنباء؛ فما نطقت كلمة واحدة صحيحة على امتداد الوقت المرير، الذى تلقى فيه أنباءها المملة. كما أذكر أنى سمعت يومًا من إذاعة القرآن الكريم أحد المذيعين يقدم برامج فترة الظهيرة والمساء ويعلق عليها، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ **وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب** ﴾ بأخطاء فاحشة تغير المعنى وتفسد العقيدة(١) وهذا فى إذاعة ينبغى أن تكون أشد الإذاعات حرصًا على اللغة وسلامتها؛ لأن ذلك سبيل إلى فهم القرآن الكريم الذى هو مادتها وجوهر كيانها متميزة عن غيرها من الإذعات.

فإذا انتقلنا إلى المجالات الأخرى غير اللغوية، وجدنا صورة شائهة ومسخًا كريهًا للغة العربية، عند أكثر العاملين فى هذه المجالات ومنهم مسئولون كبار فى مواقع خطيرة بين مواقع المسئولية المؤثرة. ولا يحدث هذا ـــ فى الواقع المعاصر إلا عند العرب مع لغتهم العربية.

* * *

---

(١) قرأ المذيع الآية الكريمة بالبناء للمعلوم، وهى بالبناء للمجهول وإلا فسد المعنى، لأن التعمير بمعنى تحديد عمر الإنسان طولا أو قصرًا - فعل من أفعال الله وحده عز وجل.

أولا: الوسيلة والغاية في المناهج المعاصرة للغة العربية:

تبين لنا من عرضنا المتقدم، أن مناهج تعليم اللغة العربية، تسعى إلى غايات كبيرة وأهداف جميلة حقًا، ولكن هذا وحده لا يكفي، أي أن النظر إلى الأهداف أو الغايات دون عمل على تهيئة الأسباب الموصلة إلى الهدف أو المحققة للغاية - مثل هذا يكون "حرثًا" في البحر، لا ينبت زرعًا، ولا يؤتي ثمرًا. وإن مناهج اللغة العربية منذ أوائل النصف الثاني من هذا القرن تسير في هذا الطريق المسدود؛ أهداف جميلة رائعة، وغايات بعيدة ناصعة، ولكن الذي يتحقق منها نَزْرٌ يسير، بل هو دون النَّزْر اليسير.

وسبب ذلك وأساسه فيما نرى، أن الوسائل نفسها قاصرة عاجزة عن تربية الثقافة اللغوية الشاملة عند أبناء العربية على اختلاف مذاهبهم وتنوع مجالاتهم.

إن اللغة - في كل أمة - هي وعاء الحضارة، وقوام القومية؛ فينبغي أن يتساوى أبناء الوطن الواحد جميعًا، في حد أدنى من المعرفة والإتقان للغة هذا الوطن في شتى الميادين. ومن أجل ذلك لا نرى طبيبًا أو مهندسًا أو كيميائيًا أو اقتصاديًا، في أي بلد من بلاد الدنيا، لا يعرف لغته معرفة قادرة متمكنة، بحجة أنه ليس من أهل الاختصاص.

فلننظر إذًا في "الوسائل" التي يعتمد عليها منهج التعليم اللغوي في البلاد العربية لنعرف موطن دائها وسبب قصورها عن تحقيق الهدف المنشود.

تتمثل هذه الوسائل في الفروع التي قسمت اللغة إليها في تدريسها للطلاب بمختلف مراحل التعليم، ومن هذه الفروع:

أ. القواعد (نحو - صرف - بلاغة ... إلخ).

ب. الأدب (تاريخ أدب - نصوص).

جـ. القراءة.

د. دروس التعبير.

ولا يتسع المقام هنا لمناقشة جهات القصور فى هذه الفروع وغيرها، مما تشتمل عليه مناهج تدريس اللغة العربية فى بلادنا، ومن أجل هذا نكتفى بالحديث عن اثنين فقط من الفروع المتقدمة وهما: **تدريس القواعد، وتدريس الأدب.**

(أ) تدريس القواعد:

كثير من الناس يتهمون قواعد النحو العربى بأنها سبب رئيسٌ فى مشكلة اللغة العربية؛ لأنها بصعوبتها وتعقيدها، تصدُّ طلاب اللغة عن سبيلها وتحول بينهم وبين فهمها، فضلاً عن تذوقها واكتساب الملكة فيها. وهذا خطأ عظيم!!

لأن قواعد اللغة العربية ليست مُختَلَقة ولا مخترعة وإنما هى - فى بداية أمرها - وصف للغة وتصوير لواقعها، كما استعملها العرب الأولون. فلا عيب إذن فى القواعد ذاتها، بل فى تعليمها فى غير وقتها، وعلى غير وجهها.

أما أن تعليمها فى غير وقتها، فذلك أننا نبدأ دراستها فى المرحلة الأولى أو الابتدائية، وهى مرحلة لا يكون الطفل فيها قد بلغ فى النضج درجة تمكنه من فهمها والإحاطة بأحكامها ومبادئها التجريدية، بله استخدامها أو الإفادة منها، فى صحة الكلام وسلامة التعبير.

لكن أصحاب المناهج عندنا يأبون إلا أن "تُحْشَى" الأذهان الصغيرة والعقول الغضة بأقصى ما يمكن حشوها به من معلومات لغوية، حتى ما تعجز عَنْ مجرد إدراكه أو تصوره حقيقته.

منذ نحو خمسة وعشرين عامًا، كان كتاب النحو المقرر على الخامسة الابتدائية يشتمل على موضوعات معقدة يصعب على الكبار أمرها، فما بالنا بالأطفال الصغار؟! ومن هذه الموضوعات فما أذكر:

النعت الحقيقى، الذى يدفع إلى خواطر الصغار ببعض التساؤلات التى لابدّ أن تتداعى فى مثل هذا المقام:

ما معنى النعت؟ ما معنى أنه حقيقى؟ وهل هناك نعت غير حقيقى؟ فما هو؟ وما الفرق بينهما؟ ... إلخ.

وليس شرح هذه الحقائق أو إجابة التساؤلات، بالأمر اليسير مع الكبار، فماذا عسى أن يكون مع الناشئة مع الفتيان والفتيات، وهم لا يزالون من مرحلة الطفولة فى الصميم؟!

ومن عجيب الموافقات هنا أن أتلقى ـ وهذه المسألة تتداعى إلى خاطرى ـ سؤالاً من أحد الخريجين عن النعت الحقيقى والفرق بينه وبين السببى فى القاعدة والاستعمال.

فسبحان اللّه قضية استعصى أمرها على من بلغ نهاية الطريق، ندفع بها إلى من لم يقف بعد على بداية الطريق؟!

وأما أن القواعد تدرس على غير وجهها، فذلك أن دراستها تتم لذاتها، معزولة عن لغتها، فى أمثلة مصنوعة أو مقطوعات متكلفة؛ لا ماء فيها ولا حياة، وهذا يؤدى ـ طبعًا ـ إلى أن يلجأ التلميذ إلى الاستظهار دون وعى؛ فيكون مصير محفوظه أحد أمرين: أن تنعدم فائدته وتضيع ثمرته، أو أن يهوى فى غيابة النسيان.

لقد كان حقًا على واضعى المناهج اللغوية أن يراعوا حقيقة أن تربية ملكة اللغة، وإيقاظ الحس بها عند الناشئة هو الغاية الكبرى وراء تعليم أية لغة. ولكن هذه الغاية لا تدرك بدروس القواعد على النحو الذى تدرس عليه، وإنما تدرك بمعايشة اللغة نفسها، قراءة وحديثًا وسماعًا[1].

---

(١) سوف نعرض إن شاء اللّه لما نتصوره طريقًا قويمًا إلى تلك الغاية فيما بعد.

إن معرفة اللغة وإتقانها، يتوقفان على نوع من المهارة العمليّة، تكتسب بالصبر عليها والمرانة المتابعة فى استخدامها واستعمالها على الوجه الصحيح، وهى فى ذلك تشبه رياضة السباحة؛ فلو قرأ أحد الناس مائة كتاب فى قواعد السباحة ـ وهو فى بيته أو فوق مقعده على الشاطئ ـ لما استطاع يومًا أن يسبح، وإنما يستطيع ذلك ويقدر عليه، مَنْ يُلْقِى بنفسه إلى الماء يغالبه ويجاذب موجه، ويدافع الغرق فيه، حتى يعرف بالممارسة العمليّة كيف يكون سباحًا.

وكذلكم اللغة: إنها واقع حى، ولا سبيل إلى هذا الواقع إلا بالعيش فيه.

من أجل ذلك ينبغى أن نعيد النظر فى وضع "القواعد"[1] فنؤخر تقريرها على التلاميذ مرحلتين أو مرحلة على الأقل، ثم نجعلها موصولة باللغة نفسها، فى نصوصها الأدبية البليغة الموجودة فعلاً، ليست المصنوعة، أو المفصلة "بالمقاس" على المناسبات أو المسائل.

لقد لجأت بعض الدول الغربية منذ مطلع هذا القرن إلى إلغاء درس القواعد فى المدرسة الابتدائية.

وفى المدرسة الثانوية، اقتصرت الدراسة على ما يسمى "النحو الوظيفى" **Functional Grammer** أى القواعد النحوية التى تحقق فائدة فى التعبير والفهم[2].

غير أن ما انتهى إليه الغرب هنا، منهجًا فى دراسة اللغة قويمًا ـ ليس إلا صورةً مما نهجه العرب القدماء فى تعليم لغتهم لأبنائهم؛ حيث كانوا يرسلونهم إلى منابع الفصاحة والنقاء اللغوى من البادية؛ ليتلقوا اللغة ويفقهوا أصولها

---

(١) هى ما يشمل مسائل النحو والصرف والبلاغة جميعًا.

(٢) انظر ما كتبه الدكتور/ محمد رضوان عن ذلك فى بحوث مؤتمر تطوير تعليم العربية. الخرطوم ١٩٧٦ ص٤٠١.

وطرائق استعمالها متابعة وسماعًا، قبل أن يتوجهَ مَنْ يَتَوَجَّهُ منهم إلى دراسة النحو ومسائله؛ لأن هذه الدراسة بعيدة عن متناول الصبيان والناشئة ويقول الجاحظ في رسالة بعنوان "رياضة الصبي": وأما النحو فلا تشغل قلبه منه إلا بقدر ما يؤدى إلى السلامة من فاحش اللحن، ومن مقدار جهل العوام، فى كتاب إن كتبه وشعر إن أنشده وشيء إن وصفه، وما زاد عن ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به، ومذهل عما هو أَرَدُّ عليه منه[1]، من رواية المثل والشاهد والخبر الصادق والتعبير البارع[2].

فما نقوله إذن، منهج نهجه العرب الأقدمون وطريق اختاروه، ثم استحسنه بعض الأوربيين فجعلوه أساسًا لدراسة لغاتهم فى مدارسهم. ولعمرى أن ذلك فى تعليم اللغة، هو منهج الصواب وسبيل الرشاد.

(ب) الأدب:

لا ريب أن دراسة الأدب من أهم العناصر التى تبنى عليها العملية التعليمية فى أية لغة؛ إذ هو السبيل إلى تذوّق اللغة ونمو الإحساس بها، وتمكين الملكة فيها، ومن أجل ذلك ينبغى أن تكون دراسته قائمة على هذا الأساس، ومنطلقة إلى هذه الغاية وتلك هى إحكام الصلة بين اللغة وأبنائها؛ وعيًا بهذه اللغة وحبًا لها وحرصًا عليها.

غير أن المناهج الدراسية الأدبية فى اللغة العربية، لم يلتفت فيها إلى الوسائل الكفيلة بتحقيق الهدف الجليل من تدريس الأدب وتاريخه. فظل منهج التدريس إلى عهد قريب منحصرًا - أو يكاد ـــ « فى دراسة تفصيلية تاريخية للعصور الأدبية،

---

(١) أردّ عليه أى أنفع له.

(٢) رسائل الجاحظ بتحقيق الأستاذ/ عبد السلام هارون جـ٢ ص٣٨.

وتراجم بعض الشعراء الكتّاب والخطباء، ثم دراسة بعض النصوص الأدبية بطريقة تقوم على تفسير الألفاظ وإجمال المعانى والإشارة إلى ما يتضمنه النص من تشبيه أو استعارة أو كناية، أو محسنات بديعية ... إلخ »[1].

ولكن درس الأدب ليس « عملية آلية، تعتمد على غرس المعلومات الأدبية واللغوية، وإنما تعتمد أساسًا على وصل الطلاب بما أبدعته قرائح المفكرين والكتاب والشعراء »[2] والتمرس بذلك حتى تتكون الملكة الأدبية واللغوية، وهى وحدها الهدف الذى ينبغى أن تسخَّر له الوسائل التعليمية.

ولكن المخططين لإعداد المعلمين « لم يواجهوا هذه المسئولية فى معظم البلاد العربية بما تستحق من وعى ورعاية، فلا يزال معلم اللغة العربية الذى أُعِدّ بالأسلوب التقليدى هو الذى يقوم بتدريس الأدب، ومن ثم فهو – فى معظم الأحوال - لا يؤديه كما ينبغى أن يكون »[3].

وهكذا انعدمت الثمرة وغابت الفائدة من تدريس الأدب الذى كان ينبغى أن يُربِّىَ عند التلاميذ ملكة أدبية تصلهم بلغتهم وتحببها إليهم. ولو وقف خطر المنهج القديم عند هذا الحد، لكان أمره هينًا وخطبه يسيرًا، ولكنه - بتلك الصورة – يؤدى إلى أن يعطِّل التلميذ عقله، ويفقد ذاتيته العلمية، إذ يصب فكره الأدبى فى قوالب محفوظة وأحكام عامة، ينتقل بها بين شاعر وشاعر أو كاتب وكاتب؛ "فما يقال عن شاعر مثلاً، يكاد يكون هو بنصه وفصه الذى قيل فى سواه ... يسمع الطالب عن كل أديب: أنه مشرق الديباجة واضح العبارة متين الأسلوب دقيق المعانى بديع الخيال رائع التصوير ... وهكذا !! كأنَّ جميع الشعراء قد صبوا فى

(١) بحوث مؤتمر تطوير تعليم اللغة العربية ص٣٩٩.

(٢) السابق.

(٣) السابق ص٤٠٠.

قوالب واحدة وصنعوا على شاكلة واحدة، لا يختلف فيها اثنان إلا في الأسماء وتواريخ الميلاد وأماكن النشأة والمربّى".

« ... ومثل هذه المناهج القديمة وطريقتها، لا يمكن أن تنمي في الطالب أي ذوق أدبي »[1].

هذا هو ما يقرره فريق من علماء التربية المعاصرين في حكمهم على مناهج اللغة في بلادنا. غير أن ما قالوه ليس إلا أمثلة - فقط لبعض جهات القصور في هذه المناهج، وكل ذلك في رأينا، أدلة واضحة وبراهين مبينة على أن وسائلنا في دراسة اللغة لا تتفق وغايتنا منها، ويكفي أن ننظر إلى جماعة من معلمي العربية اليوم، فنسمعهم يقرأون أو يتحدثون؛ لنعلم أن أكثرهم لا يعلمون.

"و لله الأمر من قبل ومن بعد" !

* * *

(١) فن التدريس للتربية اللغوية ص٧٠٦ وما بعدها.

ثانيًا: المعلمـون:

عنصر من أهم عناصر المشكلة اللغوية؛ وأبعدها مدى وأعمقها أثرًا. غير أنـا لا نعنى بهم معلمى العربية وحدهم، وإنما نضم إليهم كل من يتولى وظيفة التدريـس فى المدارس العربية، فكل واحد من هـؤلاء عليه واجـب مقـدس فـى ربـط الناشئة بلغتهم، وزيادة ثقتهم بها، وبقدرتهـا علـى التعبـير عـن مختلـف الأفكـار، فـى شـتى الميادين.

من أجل ذلك نتحدث عن المعلمين كافة ـ لغويـين وغَـيْرَ لغويـين ـ حديثًـا يبين أثر هؤلاء فى زيادة "حجم" المشكلة أو فى حلها وإزالة أسبابها.

ذلك هو حديث السطور التالية:

(١) معلمو العربية:

من مُعاد القول، وفُضول البيان أن نتحدث هنا عن مكانة معلم اللغة وقيمـة الوظيفة التى يؤديها إلى مجتمعه.

إن المعلم ـ عامة ـ يتولى أجـلّ الأعمـال التـى يمكـن أن يقـوم بهـا فـرد فـى جماعة، ولقد صدق أمير الشعراء حقًا فى قوله:

قُم للمعلم وَفِّه التبـجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا

ولكن معلم اللغة ـ خاصة ـ يحتل بين المعلمين المقام الأسمى والدرجة العليـا، فإذا كانت وظائف المعلمين هى أكرم أعمال المجتمع، فإن تعليم اللغة، هو بحق أكـرم وظائف المعلمين فمعلم اللغـة ـ لا ريـب ـ صفـوة الصفـوة وقـائد القـادة، وفـاضل الفضلاء بين العاملين.

إن المعلم اللغوى لا يعلم "مادة" كسائر المواد، وإنما يعلم اللغة، وهى ـ كمـا

اتفق عليه المربُّون ورواد التعليم - وعاء يصب فيه جميع المواد، ويستوعب الحقائق والخبرات الإنسانية تفكيرًا وتعبيرًا[1].

إن مكانة معلم اللغة، من مكانة العمل الجليل الذى يؤدّيه، وهو تدريس لغة قومه للناشئة ونقلها إلى الأجيال، وهو عمل له شأن خاص متميز « فى أى برنامج تربوى فى نظام التعليم القومى .. وإنه لأمر لا يحتاج إلى توضيح أن الطفل ما لم يتأت له إلمام معقول بلغته القومية،وسيطرة على استخدامها فى التفكير والتعبير فمن المستحيل أن يصيب أى تقدم فى أى مادة دراسية أخرى »[2].

ولقد كشفت التجربة عن الارتباط الوثيق بين التخلف الدراسى فى المرحلة الابتدائية، والعجز فى اللغة العربية وحين يعالج التخلف فى اللغة، فإن الطفل يخطو خطوات سريعة موفقة نحو التحسن فى المواد التى كان متخلفًا فيها، إذا تيسرت له أدوات الفهم والتعبير[3].

ومن الحقائق الثابتة التى انتهت إليها تجارب التربويين أيضًا «أن الطفل إذا لم تتح له فرصة تعلم العربية السليمة الدقيقة، فإنه عرضة لتعلم العربية الرديئة الركيكة، بل أنه عرضة لاكتساب عادات رديئة فى التفكير نظرًا لما بين اللغة والفكر من ارتباط وثيق. ومعنى هذا أننا حينما نعد معلم اللغة العربية القومية فإننا لا نعد مجرد معلم لمادة دراسية، وإنما نعدّ "المعلم الأساسى" الذى تقوم على أكتافه العملية التعليمية كلُّها.

تلك هى مكانة معلم اللغة فى البناء الحضارى للأمة وهى مكانة تستمد قيمتها الرفيعة - كما رأينا - من قيمة عمله؛ لأنه يحمل أمانة حماية اللغة ونقلها

---

(١) انظر بحوث مؤتمر تعليم اللغة العربية ص٣٩٣.

(٢) السابق.

(٣) انظر ما كتبه الدكتور/ محمد محمود رضوان فى المرجع السابق.

سليمة إلى الأجيال الخالفة، وإذا كانت اللغة وعاء لمعارف الأمة وخبراتها، فإن هذا يقتضيها مزيدًا من العناية فى إعداد معلميها "بتزويدهم" بزاد وفير من الثقافة العريضة العامة، فى كل ناحية من نواحى المعارف الإنسانية المتطورة »[1].

لكن هذا التصور المثالى للمعلم اللغوى، بعيد بعدًا كبيرًا عن الواقع المشاهد فى البلاد العربية.

إن معلم اليوم، ليس إلا تلميذ الأمس، وهذا ـ كما نعلم ـ قد تعلّم فى ظروف غير مواتية، وسط أعداد هائلة من الطلاب؛ يختطف المعلومات اختطافًا، دون أن يجد الفرصة الكافية للتدريب واكتساب المهارات العمليّة فى الاستعمالات اللغوية. هذا إلى أنه قد تعلم فى ظلال المناهج التى سبق عَرْضُنا لها، وتبين لنا كيف تَقْصُر عن تحقيق الهدف، أو إدراك الغاية المرجوّة منها، ومقتضى هذا أن معلم العربية بما هو عليه الآن ـ جزء رئيسٌ فى مشكلتها؛ لأن فاقد الشىء لا يعطيه، وهو قد ظل منذ دخل المدرسة الابتدائية إلى أن تخرج فى الجامعة بعيدًا عن ذوق اللغة أو اكتساب ملكتها، فلم يسلم له قلم ولم يصح منه لسان، ولم يستقم لديه بيان؛ فكيف يعهد إلى مثل هذا بأمر اللغة؟

وماذا عسى أن يعلمه للتلاميذ ؟!

لقد كتب أحد مستشارى اللغة بوزارة التربية والتعليم تقريرًا عن مناهج الدراسة التى يؤخذ بها الطلاب الذين يعدون ليكونوا أساتذة للغة العربية وجاء فى هذا التقرير:

« إنَّ ما يدرس فى هذه المناهج لا يبنى أساسًا على ما يواجه المدرس فى عمله الميدانى؛ فمثلا لا يُدَرّس فى الكليات المتخصصة الخطّ العربى ولا قواعد

---

(١) انظر المرجع السابق.

الإملاء كما أن هناك تركيزًا فى كثير منها على فلسفة النحو، والنقد الأدبى، دون النحو ذاته، أو الأدب ذاته؛ ولذلك يضطرب كثير من المدرسين فى أساسيات اللغة والأدب والقواعد، على حين أنه درس كثيرًا من النواحى البعيدة الصلة بالميدان »[1].

هذا كلام قاله متخصص فى التربية اللغوية، وهو يؤكدّ ما أشرنا آسفين إليه منذ قليل وهو: أنّ أكثر من يُعلّمون العربية اليوم، لا يعرفونها، فكيف يُعلّمونها؟

هذه هى القضية، وتلك هى المشكلة التى ينبغى أن تتضافر الجهود، وتتسابق الهمم، وتُخلّص الغايات فى حلّها وتجاوز آثارها المدمرة، على الوجود الحضارى للأمة العربية المعاصرة؛ لأنها قضية الذات، وقضية الكيان !

(٢) معلمو المواد الأخرى:

لا شك أن هؤلاء أيضًا جزء كبير فى مشكلة اللغة فى العصر الحديث.

إن العربية ليست لغة معلميها وحدهم، وإنما هى لغة جميع العرب، وإنها من جهة أخرى ليست مادة تدرس كبقية المواد وإنما هى وعاء يستوعب هذه المواد جميعًا.

هناك قول إنجليزى معروف بين رجال التربية الإنجليز وهو:

"كل من يدرّس باللغة الإنجليزية فهو مدرّسٌ للغة الإنجليزية" ومعنى هذا القول المعبر ببساطة: أن كل مشتغل بمهنة التعليم فى البلاد الإنجليزية، مسئول مسئولية كاملةً، عن سلامة اللغة الإنجليزية مهما كانا التخصص أو الميدان الذى يعمل فيه أصلاً.

---

(١) بحوث تطوير تعليم اللغة العربية ـ الخرطوم ١٩٧٦ ص٤١٣.

إن هؤلاء ما قالوا قولهم هذا، إلا لإدراكهم ما للُغة من أثر عظيم ممتدد في المحافظة على الكيان الحضاري والثقافي للأمة؛ فما ينبغي لنا أن نكون أقل من الإنجليز غيرة أو حرصًا؛ فنغفل عن هذه الحقيقة، ونهمل لغتنا أو نفرط فيها هذا التفريط الفريد الذي لم تساوِنا فيه أمة من الأمم التي عرفها التاريخ.

وعلى هذا، فمعلم التاريخ والجغرافيا والطبيعة الكيمياء والرياضيات. كل أولئك مسئول عن سلامة اللغة، وعلى كل منهم - كم قلنا آنفًا - واجب مقدس في التربية اللغوية لتلاميذهم، وإذا كنا نفرض على المعلم اللغوي أن يتزود بالثقافة العامة في مختلف ألوان المعرفة، فلا أقل من أن يُطَالَب معلمو المواد الأخرى بحد أدنى من الثقافة اللغوية، يمكنهم من التعبير الصحيح بلغة فصيحة عن مسائلهم العلمية في مجال تخصصاتهم.

ولن تستقيم ألسنة التلاميذ، إذا كان معلم اللغة وحده هو الذي يبني، وغيره من معلمي المواد الأخرى يهدمون ويقوضون.

إنها لصورة شائهة لأمتنا أن يظنّ المثقفون فيها بأن سلامة اللغة ليست واجبة إلا على معلميها وحدهم، مع أنها مسئولية قومية عامة، ويشترك فيها كل من يشتغل بالعلم من أبناء هذه الأمة.

وليس هذا بعسير على ذوى الهمم الوثابة والعزائم الصادقة، وقد احتوت صحائف التاريخ المعاصر على أمثلة مضيئة تحققت في طائفة من الغيوريين الذين أهمهم أمر العربية وشغلتهم قضاياها، وليسوا من معلميها ولا من العلماء العاملين في حقلها.

ويكفي هنا أن نشير إلى الأعمال اللغوية القيمة التي تركها العالم الجليل الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين وهو رحمه الله طبيب كبير، يعد واحدًا من أعظم الأطباء الذين عرفهم طبُّ العظام في التاريخ الحديث. وهناك أيضًا رسالة

طبية (دفعها إلىّ أحد طلاب الجامعة) كتبها منذ نصف قرن تقريبًا مدرس للكيمياء والطبيعة بالإسكندرية اسمه الأستاذ محمود أحمد خليل، وعنوانها: "فى سبيل اللغة" رسالة فى الترقيم والحكاية والخطاب والأسلوب النزيه.

وهذا كله دليل فى رأينا على أن ما نقوله ممكن، بل هو واقع فعلاً. وهو فى الوقت نفسه، يؤكد ما ندعو إليه، من وجوب اشتراك جميع المثقفين العرب، فى حَمْل أمانة لغتهم؛ حماية لوجودهم وتحقيقًا لذاتيتهم، وتثبيتًا لكيانهم الحضارى بين حضارات العالمين !

لقد عرضنا فيما تقدم لبعض ملامح مشكلة التعليم فى اللغة العربية، باعتبارها واحدة من أهم مشكلات هذه اللغة أو قضاياها فى العصر الحديث. وقد ظهر أن لتلك المشكلة أركانًا ثلاثة.

١.مناهج قاصرة غير واعية، لا تحقق هدفها، ولا تصل إلى غاياتها. ويتمثل قصورها فى الاعتماد الكبير على القواعد النحوية، أو فلسفة النظريات الأدبية، دون الاهتمام باللغة ذاتها، والعمل على تربية ملكتها من خلال نصوصها البليغة وأدبها الرفيع.

٢.معلم غير كفء؛ نتيجة للظروف غير المناسبة التى تم إعداده فيها.

٣.حصر الاهتمام باللغة أو المسئوليّة عنها، فى معلم العربية وحده، على الرغم من أنها مسئولية أولى العلم والمثقفين من أبناء الوطن دون استثناء.

* * *

ثالثًا: الحـل:

كل ما نستطيعه فى هذا الحيز الضيق أن نعرض بعض المقترحات، نُشير إليها الآنَ فقط فى خطوط عريضة، ندعو بها أولى الأمر وذوى الغيرة اللغوية أن يجدّوا ويخلصوا السعى إلى سبيل تخرج به لغة القرآن من أزمتها العصرية الخانقة.

وما نقترحه يتمثل فيما يأتى:

١. إلغاء دروس القواعد مطلقًا من المرحلتين الأوليين، على أن يستبدل بها نصوص تختار بعناية متدرجة مع أعمار التلاميذ؛ كى يتمكنوا من تذوق اللغة واكتساب ملكتها وبذلك - وعن طريق التدريب على الاستعمال الصحيح - يدركون الصواب، ويستشعرون الخطأ، ولو لم يعرفوا لهذا أو لذاك سببًا أو تفسيرًا.

٢. قراءة القرآن الكريم هى أقوم الطرق إلى اللغة العربية؛ ولذلك نرى أن تفرض أجزاء من الكتاب العزيز، يحفظها تلاميذ المدرسة الابتدائية والإعدادية كل عام، فى حصص مستقلّة علىأن يعهد بذلك إلى شيخ من شيوخ القراءة - وهم كثير - فى كلّ بلد والحمد لله - حتى يُلقّن التلاميذ قواعد القراءة وفنّ الأداء. وليكن ذلك بدلاً من بعض حصص القواعد الملغاة فى الاقتراح السابق، إن تعذّر تخصيص وقت جديد.

٣. العناية بإعداد المعلم، وإعادة النظر فى المناهج التى يدرسها فى المعاهد المتخصصة، بما يربى لديه جانب المهارات العملية، ويرتبط بهذا حتمًا ضرورة العلم على إحاطة معلم اللغة بأقصى درجات العناية والتكريم، ودفع الظلم الطويل الذى أوقع المجتمع عليه.

٤. تقرير مادة "الثقافة اللغوية" على كل مراحل التعليم وفى كل معاهده بلا

استثناء؛ لأن العربية قضية أبناء الوطن جميعًا، وليست قضية معلمي اللغة وحدهم. فإذا كانت هذه الثقافة اللغوية واجبة على سائر المثقفين، فإنها أوجب على معلمي المواد الأخرى كالطبيعة والكيمياء وما إليها، حتى يتعاون الجميع على حماية اللغة والمحافظة على سلامتها وتثبيت حبّها والثقة بها في أعماق وجدانات التلاميذ.

٥. ألا تعتمد المعاهد اللغوية المتخصصة[1] على ما يعرف اليوم بمكتب التنسيق، الذي يرسل إلى هذه المعاهد أعدادًا هائلة من الطلاب، أكثرهم غير مؤهلين للدراسة اللغوية؛ لأن اللغة "مهارة" تحتاج في اكتسابها إلى قدرة ذهنية خاصة لفهم نظرياتها، وتمثل أصولها. كما تحتاج إلى "عقلية رياضية منطقية" تعين صاحبها على التطبيق السليم لما عرفه من قواعد وأحكام في استعمالاته اللغوية المنوعة.

من أجل ذلك ينبغي أن يكون للقبول في كليات اللغة ومعاهدها نظام خاص بها؛ فلا يدخلها إلا طالب راغب فيها، مستعد لها، أُوتِيَ مَلَكَةَ اللغةِ، وعُرِفَ بها، ودلّت عليها درجات نجاحه في سنوات دراسته، فإن لم يَكْفِ ذلك أو لم يكن ممكنًا، فليعقد "امتحان قبول" جاد وأمين، ولا يَدْخُل أيًا من هذه المعاهد إلا مَنْ يجتازه بنجاح.

وعلى الدولة هنا واجب محتوم، أن تقدم الحوافز المغرية للطلاب النابهين؛ ليقبلوا على دراسة لغتهم، فتجزل العطاء وتضاعف الجزاء لكل طالب متفوق يتقدم إلى واحد من معاهد اللغة بإرادته وصادق رغبته؛ تشجيعًا لغيره من المجدين أن يلحقوا به ويفعلوا مثله.

---

(١) تمثل هذه المعاهد في بلادنا: كلية دار العلوم وكليات اللغة العربية بالأزهر وأقسام اللغة العربية في كليات الآداب والبنات والتربية.

الفصل الخامس

الكتابة العربية

الفصل الخامس

الكتابة العربية

أولا: الكتابة العربية: أصلها وتطورها:

تعد الكتابة العربية واحدة من المسائل التاريخية التي كثرت الأقوال حول نشأتها أو مصدرها الأول، ثم مراحل تطورها من بعد ذلك. ومن هذه الأقوال أقوال تكاد تحسب من قبيل الأساطير، فبعض يجعل الكتابة توقيفا وحيًا، وآخر ينسبها إلى أشخاص يصعب إثبات وجودهم، فضلا عن عملهم. وغير هؤلاء وهؤلاء يرجع كتابة العرب إلى أصل نبطي.

كان البلاذرى فى "فتوحه" هو أول من عرض للقضية، والذى ظهر من كلامه، أنه يجنح إلى أن الخط العربى جاء من الشمال، عبر الحيرة والأنبار عن طريق ثلاثة نفر من بولان (قبيلة من طيىء)، هم: مرامر بن مرة، وأسلم بن سدرة، وعامر ابن جدرة، هم الذين "وضعوا الخط، وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية فتعلمه منهم قوم من أهل الأنبار، ثم تعلمه أهل الحيرة من أهل الأنبار ..

وكان بشر بن عبد الملك، أخو أكيدر بن عبد الملك ــ صاحب دومة الجندل ـ يأتى الحيرة فيقيم بها الحين ... فتعلم بشر الخط العربى من أهل الحيرة، ثم أتى مكة فى بعض شأنه، فرآه سفيان بن أمية، وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة يكتب[1] فسألاه أن يعلمهما الخط، فعلمهما الهجاء، ثم أراهما الخط فكتبا ... ثم إن بشرًا وسفيان، وأبا قيس أتوا الطائف فى تجارة فصحبهم غيلان بن سلمة الثقفى، فتعلم الخط منهم، وفارقهم بشر، ومضى إلى ديار مضر، فتعلم الخط منه ناس هناك، وتعلم الخط من الثلاثة الطائيين أيضا رجل من طابخة كلب، فعلمه رجلا من أهل

(١) (يكتب) هو تتمة رآه: مفعولا ثانيا أو حالا.

وادى القرى فأتى الوادى يتردد، فأقام بها ، وعلم الخط قومًا من أهلها"[1].

يعرض علينا البلاذرى فيما سبق صورة تاريخية لكيفية انتقال الخط إلى العرب، والحق أنها مقبولة ومعقولة، لمعرفة الكتابة، والتسلسل فيها ـ كما عرضه البلاذرى ـ منطقى لا غبار عليه: ثلاثة رجال فكروا أن يكون للعرب خط، فوضعوا هجاء قاسوه على هجاء السريانية، ثم علموا ذلك بعض الناس، وهؤلاء علموا غيرهم وغيرهم علّم آخرين ... وهكذا!

هذا ـ ولا ريب ـ أساس صحيح لفكرة تعرف أمة من الأمم على فن من الفنون أول مرة. ولكن هنا أمرين كبيرين، ربما رأى بعض الباحثين أنهما ينقضان هذا الأساس ويهدمان ما ينى عليه، ذانك هما:

١. حقيقة هؤلاء الثلاثة: ما هى؟!

٢. أن حكايتَهم تقتضى اقتطاع الخط العربى من السريانى، وليس الأمر كذلك.

أما الأمر الأول:

فقد رأى بعض الدارسين أن هذه الأسماء « لم تكن أسماء رجال، وإنما هى نعوت تطلق على الأشخاص من باب التكريم والتعظيم وهى نعوت سريانية، ظن الأخباريون أنها أسماء أشخاص ...»[2].

والحقيقة أن هذه الأسماء الثلاثة «إنما هى معان تقديرية لكل واحد منها معنى يدل عليه، ويعرفه الناس فى تلك العهود البعيدة: فاسم مرامر بن مرة هو من جملة (مارا مارى برمارى) ومعناها: (سيد السادة بن السيد)، وتعنى شيخ شيوخ العلم ابن حامل لواء العلم .. واسم أسلم بن سدرة، تصحيف لعبارة

---

(١) فتوح البلدان: ص٤٥٦ – ٤٥٧، وانظر: الوزراء والكتاب ص٦.

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام ٧/ ٦٦.

(شليما برسدار) وتعنى: (التام العلم، الخطاط)، واسم عامر بن جدرة، تصحيف أيضًا لعبارة (عمرايا برجدار) ومعناها (العماد الحاذق أو الماهر)، وقد وجد الأخباريون السريان يطلقونها على الكتاب والخطاطين الحاذقين، فظنوها أسماء رجال»[1].

ولكن هذا الكلام ـ لو صح ـ ينفى "تعيين" الأشخاص، ولا ينفى "ذواتهم" أعنى أنه إن صح كونه دليلا على نفى أن هذه الأسماء حقيقية لمن اخترعوا نظام الكتابة العربية، فإنه لا ينهض دليلا على "نفى" أن هناك أشخاصا قد فعلوا ذلك.

وسواء بعد أن تكون هذه الألفاظ أسماء أو تكون معانى وأوصافًا؛ لأن هذا أو ذاك لن يغير من الحقيقة شيئًا؛ إذ كونها معانى، لا يخرجها عن ارتباطها الضرورى بأشخاصٍ أى أشخاص !!

وأما الأمر الآخر:

فهو ما يلزم عن نسبة "الخط العربى" إلى هذه الطريق، من كونه مأخوذًا من الخط السريانى، وقد انتهت بحوث العلماء فى ذلك إلى «أن الخط العربى لم يتأثر أو يقتطع من الخط السريانى، على ما بينهما من فروق وتشابه»[2].

ويسوق الدكتور جواد على فى موسوعته الكبيرة عددًا من الأدلة يؤيد بها عدم "إمكان" معرفة الكتابة العربية من طريق الحيرة، ومن أهمها دليلان:

١- اكتشاف كتابات جاهلية قديمة، تنتمى إلى بلاد الشام، أصحابها عرب تقترب عربيتهم من عربية القرآن الكريم وكانت الكتابة التى عرفت بكتابة "أم الجمال" هى أقدم هذه الكتابات (٢٥٠م)، ثم "النمارة" (٣٢٨م)، ثم زبد (٥١٢م)[3].

٢- عثر فى أعالى الحجاز على كتابات نبطية من عهد القرن الأول للميلاد، فإذا

---

(١) السابق ٧/ ٦٦، ٦٧.

(٢) د. صلاح الدين المنجد. تاريخ الخط العربى ص١٢ وما بعدها.

(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام ٧/ ٦٢.

أضفنا إلى هذه الكتابات النصوص التى أشرنا إليها، وما ذكره بعض أهل الأخبار أن أصل الأبجدية العربيــة مـن مدين، ومـن أن يهـود يثرب كـانوا يكتبـون بالعبرانيـة، يقصدون بذلك قلم بنى إرم ... ومن أن القلم النبطى المشتق من قلم بنـى إرم كـان شائعًا معروفًا فى بلاد الشام التى كان يستعمل سكانها الأصليون قلم بنى إرم - حقّ لنا القول: إن هذا القلم العربى الأول الـذى استعمله أهـل مكـة، وكتـب بـه كتبـة الوحى، هو قلم ولد من هذا القلم، وإن صلته بأعلى الحجاز وبلاد الشام، أقرب من صلته بالحيرة والأنبار»[1].

وهذا جيد، لولا أنه مبنى على "فهم" المعاصرين لقول المؤرخين العـرب فـى صنيع الثلاثة الطـائيين: قاسـوه علـى هجـاء السـريانية"، إذ فهمـوا أنـه يـترتب عليه "اقتطاع" الخط العربى من السريان، ولا يلزم ذلك عندى !!!

إن القياس على السريانية، لا يعني الأخذ منها حتما، إذ يجوز ـ فـى رأينـا ـ أن يكون هذا "القياس" انتفاعًا بفكرة، لا نقلا لنظام. ولو أمكن هذا ـ وهو ممكـن ـ لساغ لنا القول: إن الرهط المذكورين وضعوا النظام الكتابى العربـى، على نحـو مـا فعل علماء السريانية، حين أسسوا النظام الكتابى للغتهم.

وقد يؤيد "فكرتنا" هنا أن ابن خلدون جعل الخط مـن جملـة الصنـائع التـى تُرتَبطُ وجودًا وعدمًا، أو تقدمًا وتأخرًا بالحضارة والبداوة، ثم عرض لبعـض الأقـوال فى نشأته، فقال: « ... ويقال إن الذى تعلم الكتابة من الحيرة هو سـفيان بـن أميـة، ويقال: حرب بن أمية وأخذها من أسلم بن سدرة، وهـو قـول ممكـن، وأقـرب ممـن ذهب إلى أنهم تعلموها من إياد أهل العراق، وهو قول بعيد، لأن إيادًا - وإن نزلـوا ساحة العراق - لم يزالـوا علـى شـأنهم مـن البـداوة، والخـط مـن جملــة الصنـائع الحضرية ..»[2].

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام ٧/ ٦٣.

(٢) المقدمة ص٣٧٦ من ط دار الشعب.

فليس بعيدًا - إذن - أن يكون لأولئك الثلاثة "عمل ما" في اختراع الخط العربي، ولكنه لا يؤدي إلى أن هذا "النظام" تقفية على آثار السريان!

وربما كانت عبارة صبح الأعشى من أقوى ما يؤيد فهمنا هذا، فهو يقول: «أول من وضع الحروف العربية ثلاثة رجال من بولان ... اجتمعوا فوضعوا حروفًا ... ثم قاسوها على هجاء السريانية»(١).

فعبارة القلقشندي قوية الدلالة على أن وضع الحروف مقطعة وموصولة سبق النظر إلى الهجاء السرياني، وهذا هو ما نرى "إمكانه" توفيقا بين متعارض الروايات والأخبار.

ولكن جهود العلماء المعاصرين قد انتهوا إلى أن الكتابة العربية، قد أخذت من الكتابة النبطية، بل هو آخر شكل من أشكال هذه الكتابة(٢) وهذا ما رجحته الدراسات المقارنة(٣) وما أثبته التمحيص العلمي من «أن العرب أخذوا طريقتهم في الكتابة من بني عمومتهم من الأنباط الذين كانوا قبل الإسلام ينزلون على تخوم المدينة في حوران، والبتراء، ومعان، والذين كانوا يجاورون العرب الحجازيين في تبوك، ومدائن صالح والعلا، في شمال الحجاز، وضح ذلك تمام الوضوح مما عثر عليه المنقبون في تلك الجهات من النقوش النبطية القريبة الشبه بأقدام النقوش العربية المعروفة»(٤).

هذا رأي نؤيده ولا نعارضه، وبخاصة أنه يساند ما نراه في الدراسات العربية، وأصالتها بوجه عام؛ لأن مقتضى الرأي هنا أن الخط العربي يرجع إلى "أصل

---

(١) صبح الأعشى ٣/ ٨.

(٢) تاريخ الخط العربي ص١٢.

(٣) السابق.

(٤) دراسات في تطور الكتابة الكوفية د.إبراهيم جمعة ص١٧ وما بعدها.

عربى" فقد "كان الأنباط من العرب، أغاروا فى العصر الهلينى على البلاد الأرمية فى فلسطين وجنوب الشام، ثم دخلوا شرق الأردن، فكانوا فى شمال الجزيرة العربية وجنوب الشام"[(1)].

وقد كانت التجارة التى ازدهرت لدى الأنباط ـ سببًا فى إحساسهم بضرورة الكتابة، فكتبوا بالحروف الآرامية، وظلوا يتكلمون لهجة من لهجات العربية[(2)]، أما كيف اصطنعوا لهم خطًا خاصًا بهم فيبدوا أن ذلك قد تم عن طريق محاولة تصوير الحروف الآرامية فى البداية، إذ كانوا بداة، لا حضارة لهم. فلما أمعنوا فى الحضارة طوروا الخط الآرامي، وولدوا منه الخط النبطى ... ثم مضى هذا الخط بسرعة فى طريق التحسن، وصارت له صفاته الخاصة، فهو يشبه الآرامية بما فيه من تربيع، ويبتعد عنها بما ظهر فيه من ميل إلى الاستدارة. وما زال التطور فى هذا الخط مستمرًا حتى نرى أنه أخذ يبتعد شيئًا فشيئًا عن الخط الآرامى، ويشبه أكثر فأكثر الكتابة العربية الجاهلية التى ظهرت فيما بعد، كما تدل على ذلك النقوش التى وجدت فى أم الجمال (٢٥٠م) ونمارة (٣٢٨م) على نحو ما سبقت الإشارة إليه قبل قليل ... «فلما جاء القرن الخامس للميلاد، كانت الكتابة النبطية فى طريق الزوال؛ لتبعث روحها فى الكتابة العربية الجاهلية، كما نرى فى نقوش زبد (كتب سنة ٥١٢ بعد الميلاد) وحران بحوران (كتب سنة ٥٣٦ بعد الميلاد) ويعد ـ عند المستشرقين ـ النص الوحيد من بين هذه النصوص المكتوبة بقلم نبطى، وبلغة عربية سليمة، يمكن عدها من هذه العربية التى نزل بها القرآن الكريم ... وخطه قريب جدًا من الخط الإسلامى القديم، بل يكاد يكون هو نفسه، ولهذا

---

(١) تاريخ الخط العربى ص١٣، وقد قدم الأستاذ الدكتور/ صلاح الدين المنجد لمحة طيبة عن تاريخ الأنباط شملت نحو ست صفحات من كتابه الكبير، انظر ص١٢ - ١٩.

(٢) السابق ص١٩.

كانت له أهمية كبيرة عند الباحثين فى تطور الخط العربى الإسلامى »[1].

وعلى هذا فإن الكتابة النبطية، كتب بها الأنباط، كما كتب بها العرب الشماليون بعد زوال مملكة الأنباط - عدة قرون، ولقد كانت متطورة، « انتهى بها التطور إلى الكتابة العربية الجاهلية»[2]. وقد يجوز هنا أن نقول: إن « الصورة الأولى للخط العربى الجاهلى، لا تبعد كثيرًا عن صورة الخط النبطى فى آخر مراحله»[3].

لقد دعت أسباب كثيرة للاتصال المباشر بين عرب الحجاز والأنباط الذين كانت ديارهم طريقًا للحجازيين إلى الشام، ولا طريق لهم سوى هذه الطريق، «فهذا الاتصال الحضارى الدائم بين عرب الحجاز خطهم من الأنباط فضلا عن تشاركهم فى كثير من الأمور كاللغة والمعتقدات ... إلخ »[4].

وهكذا يكون الخط العربى حلقة فى سلسلة، تسلسلها يبدأ من الخط الآرامى، ثم الخط النبطى، ثم الخط العربى.

وهذا كلام راجح مقبول، ويزيد فى رجحانه عندنا أنه يرجع بالخط العربى إلى "أصل عربى" كما قلنا، وفكرة الأصالة فى الدراسات العربية فكرة راسخة، نعتقدها، ونجادل عنها، ونؤمن بها إيمان اليقين! وناقشنا إذ ناقشنا فى مسألة الطائيين الثلاثة. لأنا رأينا هناك، غير ما نراه هنا، بل قلنا ما قلناه، محاولة لفهم نص قديم على نحو يمكن به التوفيق بين نسبة "شىء" فى اختراع الخط إلى هؤلاء، وكون جذره ضاربًا فى أصول كتابة الأنباط !!

ويمكن حمل الخبر الذى تظاهرت على إيراده المصادر القديمة كالبلاذرى

---

(١) السابق ٧: ٢٧٩، وانظر تاريخ الخط العربى ١٩.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

(٤) انظر تاريخ الخط العربى ص١٩.

والجهشيارى، ورجحه ابن خلدون كما رأينا ـ يمكن حمله على أن هجاء السريان إنما لفت هؤلاء إلى "النظام" الذى يجعلون عليه ما وضعوه من حروف، فهم وضعوا، ثم قاسوا كما قال فى صبح الأعشى وليس بعيدًا فى رأينا أن يكون ما وضعوه من حروف، قد احتذوا فيه حروف الأنباط[1].

إن ارتباط الخط العربى بالنبطى، ربما كان حقيقة تاريخية لا نمارى فيها ولا نخالف عن أمرها، ولكنا ـ فى الوقت نفسه ـ لا نجد هذه الحقيقة مانعة من أن يكون لثلاثة بولان فى اختراع الخط "عمل ما"، كما قلنا من قبل. وهذا ـ عندنا ـ أولى من ردّ خبر نقلته مصادر لها شأن وبأصحابها ثقة !!

ولعل شيئًا مما دعانا إلى هذا الموقف قد دعا واحدًا من كبار المتحدثين فى المسألة إلى قريب مما قلناه، وانتهينا إلى الرجحان فيه، فالدكتور جواد على، يعرض عددًا من الأدلة التاريخية والعلمية على الصلات الوثيقة بين العرب والأنباط وأن هذه الصلات ترجيح، بل تأكيد لاشتقاق القلم العربى من أخيه النبطى، ثم يستدرك بعدها بأن هذا لا يمنع من وجود صلات أخرى بين العرب وأهل الحيرة والأنبار، يقول الدكتور جواد:

«غير أن ما نقوله عن صلة قلم أهل يثرب ومكة، واشتقاقه من قلم النبط الذى شاع استعماله فى أعالى الحجاز بعد الميلاد، ومن قلم النبط فى بلاد الشام، ومن قلم بنى آرم الذى هو الأصل والأم ـ لا يمنعنا من القول بأخذ بعض رجال مكة الكتابة من أهل الأنبار أو الحيرة، فقد كانت بين الحيرة وجزيرة العرب صلات وتجارة وروابط، وقد كان رجال من أهل الحيرة يقصدون مكة، وكان رجال من أشراف مكة وتجارها يقصدون الحيرة لمآرب مختلفة ... وقد كانت الكتابة شائعة

---

(١) للأستاذ الدكتور/ عبد العزيز الدالى كلام ينحو فيه هذا النحو ولكنه ينظر إلى السجع فى أسماء البولانيين فيجعله سببا للشك فى خبرهم، انظر كتابه "الخطاطة" ص٢٣.

معروفة بين أهل الحيرة، بل يظهر من روايات الأخباريين، أن كثيرًا من صبيان الحيرة، وصبيان مواضع أخرى، كانوا يحسنون الكتابة»(١).

«فانتشار الكتابة بين عرب العراق أمر مسلم به ولا شك فيه، واتصال أهل مكة بأهل الحيرة وأهل الحيرة بأهل مكة أمر مسلم به كذلك، فلا يستبعد إذن أن يكون بعض أهل مكة والمدينة، قد تعلموا الكتابة من أهل الحيرة، وأن هؤلاء قد علموا غيرهم من قريش وغير قريش ...»(٢)، وهكذا يكون وجود بعض الأفراد يعدون أصلا لاختراع الخط العربى أمرًا ممكنًا إن لم يبلغ أن يكون حقيقة واقعةً.

ثانيًا: الإعجام والشكل:

يقصد بالإعجام تمييز الحروف بالنقط، وبالشكل تمييز الكلمات بالحركات.

وسوف نعرض لهما بهذا التحديد مناقشين بعض الآراء التى أثيرت حول أول من اخترعهما من العلماء.

(أ) الإعجام:

ينسبه كثيرون إلى نصر بن عاصم أحد تلاميذ أبى الأسود الدؤلى غير أن القلقشندى ذكر فى صبح الأعشى أن الإعجام موضوع مع وضع الحروف، فهذا هو الظاهر الذى تدل عليه النصوص والأخبار، «إذ يبعد أن الحروف ... مع تشابه صورها كانت عرية عن النقط إلى حين نقط المصحف»(٣)، «وقد روى أن الصحابة رضوان اللّه عليهم جردوا المصحف من كل شىء، حتى من النقط والشكل ...»(٤).

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام ٧: ٦٣-٦٤.

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام ٧: ٦٤.

(٣) انظر الجزء الثالث ص١٥١.

(٤) السابق.

فالقلقشندى يرى أن الإعجام أسبق مما يذكره المؤرخون من نسبته إلى نصر بن عاصم أو غيره من رجال الطبقة الأولى. وقد استدل على رأيه بدليلين:

١- استبعاد أن تعرى الحروف عن النقط ـ منذ البداية ـ مع تشابه صورها.

٢- ما فعله الصحابة حين جمعوا القرآن.

لكن هذا الذى ذكره القلقشندى يتعارض فى رأينا مع الثابت لنصر بن عاصم، إذ يمكن فهم عمله على أنه تكميل "الإعجام" وتثبيت صورته على ما هى عليه فى أيدى الناس إلى اليوم.

ومن المعقول جدًّا أن تكون الصورة الأولى لهذا الإعجام مختلفة قليلا أو كثيرًا عما نعرفه الآن! وإذا كانت الوثائق والنقوش التى عثر عليها، لا تقدم الدليل على مراحل التطور فى الإعجام، فإن كلامنا عن إثبات "عمل" لنصر بن عاصم فرض قوى يركن إلى دليل الواقع ويحتكم إلى طبيعة الأشياء، ويعتمد فى الوقت نفسه على نصوص أوردتها المصادر العربية القديمة.

روى أبو أحمد العسكرى «أن الناس غبروا يقرأون فى مصاحف عثمان رضى اللّه عنه نيفًا وأربعين سنة إلى أيام عبد الملك بن مروان. ثم كثر التصحيف وانتشر بالعراق، ففزع الحجاج إلى كتّابه وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المشتبهة علامات فيقال إن نصر بن عاصم قام بذلك فوضع النقط أفرادًا وأزواجًا، وخالف بين أماكنها بتوقيع بعضها فوق الحروف، وبعضها تحت الحروف. فغبر الناس بذلك زمانًا لا يكتبون إلا منقوطًا»[1].

هذه الرواية ذات قيمة كبيرة فيما نحن بسبيله من بيان عمل نصر بن عاصم، ذلك أنها رواية واحد من ثقات المتقدمين الذين عاشوا فى عصر من أزهى

(١) شرح ما يقع فيه التصحيف ص١٣، والنقط هنا معناه الإعجام.

عصور النهضة العلمية العربية، وهو القرن الرابع الهجرى - عهد الأزهرى وابن جنى وابن فارس والفارابى والجوهرى وغيرهم من أعلام التراث العربى فى عهوده الرائعة.

على أن فى تلك الرواية قيمةً مهمةً أخرى ترجع إلى تحديد المراد "بالنقط" الذى قام به نصر بن عاصم.

تمثل عمل هذا العالم الجليل - كما أظهرته رواية العسكرى - فى أمرين:

١- أنه وضع النقط أفرادًا وأزواجًا!

٢- أنه خالف بين أماكن هذه النقط، فبعضها فوق الحروف، وبعضها تحتها! وهذا هو التفصيل:

"لتمييز الدال من الذال تهمل وتعجم الثانية بنقطة واحدة علوية. وكذلك الراء، والزاى، والصاد، الضاد، والطاء، والظاء، والعين، والغين"، وأما السين والشين "فإعجام الثانية بثلاث نقط، لأن لها ثلاثة أسنان، فلو أعجمت بنقطة واحدة، لتوهم متوهم أن الجزء الذى تحت النقطة نون، والباقى حرفان مثل الباء والتاء ..."

وأما الباء والتاء والنون والياء، فلم تجعل واحدة منهن مهملة كالعادة بل أعجمت كلها، لأن الاشتباه يقع فيها من وجهين:

أولهما: أنه إذا اجتمع ثلاث منها يشتبهن بالسين والشين.

وثانيهما: أنها ليست زوجية كالدال والذال والعين والغين، بل هى خمسة أحرف، فإذا أهمل أحدها فربما توهم متوهم أنه حرف تسوهل فى إعجامه، وحينئذ تكون أطراف الشك أربعة، وهى كثيرة.

أما الجيم والحاء والخاء فليس فيها ما فى الخمسة المتقدمة، ولذلك أهملت الحاء وأعجمت الجيم والخاء من تحت ومن فوق.

أما الفاء والقاف فقد اختلف النقل فيهما عن نصر بن عاصم، ذهب المشارقة إلى إعجام الفاء بنقطة واحدة علوية، والقاف بنقطتين علويتين أيضًا، على حين قال أهل المغرب بواحدة سفلية للفاء، وأخرى علوية للقاف، وكلا القولين لا وجه له عند الأستاذ حفنى ناصف رحمه اللّه، إذ القياس إهمال الأول وإعجام الآخر والصواب إعجام الفاء من أسفل والقاف بنقطتين من أعلى، ليتم التمييز بين هذين الحرفين ثم بينهما وبين العين والغين.

الترتيب الجديد للأبجدية:

ذلك أمر من أخطر الأمور التى استحدثها نصر بن عاصم بعد انتهائه من الإعجام على النحو الذى تقدم بيانه، وهو إعادته لترتيب أحرف العربية بما يتفق والصورة الأخيرة للحروف، وهكذا خالف ابن عاصم عن ترتيب (أبجد هوز) القديم، فاصطنع ترتيبًا جديدًا ضمت فيه الأحرف المشتبهات بعضها إلى بعض، وتلك هى الصورة التى سار عليها من بعد ذلك الخالفون: أ، ب، ت، ث، ج، ح، خ ...إلخ.

(ب) الشكل أو نقط الإعراب:

١. أبو الأسود الدؤلى:

أكثر الروايات على أن نقط المصحف بمعنى "شكلِه" وضبطه بالإعراب من عمل أبي الأسود، فقد ذكرت هذه الروايات أن أبا الأسود سمع قارئًا يقرأ ﴿أن اللّه برىء من المشركين ورسوله﴾ بجر اللام، فقال ما ظننت أن أمر الناس صار إلى هذا فطلب إلى زياد بن أبيه كاتبًا لقنا يفعل ما يقول، فأتى بكاتب من عبد القيسى، فلم يرضه، فأتي بآخر ...

فقال إذا فتحت فمى بالحرف فانقطه نقطة فوقه على أعلاه، فإن ضممت

فمى فانقط نقطة بين يدى الحرف، وإن كسرت فاجعل النقطة تحت الحرف. فإن أتبعت شيئًا من ذلك غنّة، فأجعل مكان النقطة نقطتين.

هذه هى الرواية التى تناقلتها المصادر القديمة، ونسبت إلى أبى الأسود الدؤلى أنه نقط المصحف بهذا المعنى "العلمى" الذى بدا أمامنا الآن ومن الواضح أن عمل أبى الأسود؛ متصل بما استقر بعد على أنه "حركات الإعراب" ومن الواضح أيضًا أن هذا العمل يختلف كثيرًا عن العمل الذى قام به أحد تلاميذه، وهو نصر بن عاصم، الذى اتجهت همته إلى نقط الإعجام على نحو ما مر بنا منذ قليل.

والحق أن ما نسب إلى أبى الأسود حقيق ـ بأوليته وبساطته ـ أن ينسب إلى ذلك العهد الذى أظل الرجل، وقد كان رحمه اللّه ـ بما رُزق من عقل وما أوتى من علم وما وهب من ملكة ـ جديرًا بأن يوفق إلى اختراع هذا الضبط الأولى البسيط الذى كان سبيله إلى النحو، أو كان النحو سبيله إليه.

ولكن بعض الروايات تنسب إلى أبى الأسود "نقط الإعجام" وتنسب إلى نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر "الشكل" أو "نقط الإعراب"، وهو غير صحيح؛ لأن نقط أبى الأسود ـ كما نقلته المصادر المختلفة ـ كان مرتبطًا بالضبط الإعرابى، ويدل على ذلك أمران:

أولهما: ما استهل به الخبر السابق الذى كاد يتواتر من قول أبى الأسود ـ وقد رأى فساد الألسنة ـ «أرى أن أبدأ بإعراب القرآن»(١).

أما الأمر الآخر: فهو المسلك العملى لأبى الأسود بعد ذلك، إذ طلب من الكاتب أن يضع علامات معينة، تُبَيِّنُ فتح الفم أو كسره أو ضمه.

---

(١) كتاب النقط للدانى ص١٢٩.

ولقد كان هذا دليلا على أنه يريد أن يربط بين الحركة العضوية للفم، والعلامة التى يريد أن يضعها بإزاء هذه الحركة، ولا ريب أنه إدراك ملهم، غدا فى رأينا، أساسًا بنى عليه الخالقون تسميتهم للحركات فى العربية: فتحة وضمة وكسرة.

هذا عمل يرتبط بالإعراب بمفهومه الاصطلاحى الذى تحدد بعد، أما عمل نصر بن عاصم، فهو من وادٍ آخر، يرتبط بهذا الوادى، أو ينتهى إليه ويصب فيه، ولكنه غيره على كل حال.

وقد دلت الروايات المختلفة ـ وأقدمها فيما علمنا رواية أبى أحمد العسكرى(١) ـ على طبيعة عمل ابن عاصم الذى ظهر لنا أنه وضع النقط أفرادًا وأزواجًا، وخالف بين مواقعها؛ ليميز بين الحروف المتشابهة على نحو ما مر بيانه من قبل. والفرق بين العملين لا يحتاج إلى جلاء.

وصفوة القول، أن أبا الأسود قد هُدى إلى وضع علامات بالنقط للتعبير عن الحركات، وأنه جعل علامة التنوين إضافة نقطة إلى نقطة الحركة كما دلت النصوص. ولكنه ميز نقطه أو علاماته بأن جعل كتابتها بمداد يخالف لونه مداد الحرف.

٢. الخليل بن أحمد:

يعتبر عمل الخليل هو الخطوة الآخرة فى ضبط الكتابة العربية؛ إذ هدى فيه إلى طريقة محكمة، ذلل ما فى النظام الكتابى ـ بصورته التى انتهت إليه ـ من صعوبات، ومن أجل ذلك، قفّى الخالفون ــ إلى اليوم ـ على أثر الخليل، واتبعوا سبيله؛ لأن أبا الأسود قد أقام نظامه على "النقط" بلون مختلف كما قلنا، ومن بعده

---

(١) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ص١٣.

جاء نصر بن عاصم فأسس إعجامه على "النقط" أيضًا، ولكنه ترك **اختلاف اللون** لنقط الشكل، كما رأى شيخه.

أما نقط الإعجام التي وضعها أو أتم ما وجده منها فقد جعلها بلون مداد الكتابة. ولما أن جاء العصر العباسي رأى القوم - تيسيرًا وتخفيفًا - أن يجعلوا الكتابة وإعجامها وشكلها بمداد واحد، فلا يستطيع من يكتب أن يجد في كل وقت لونين من المداد، وقد أدى هذا إلى صعوبة أخرى هي اختلاط نقط الشكل بنقط الإعجام، وحينئذ أيقنوا أن لا بدّ من "عمل" جديد يزيل الصعاب، وينهج السبيل.

وقد تصدى للأمر ونهض به رجل اللغة وعبقري العرب: الخليل بن أحمد وأبدع إبداعًا ملهمًا، في طريقة فذة استوحى فيها معرفته الصوتية وخبرته اللغوية العميقة الشاملة، **فكانت علاماته "علامات" هاديات في نظام الكتابة من لدن عهده - رحمه الله وصنع له وأثابه - إلى يوم الناس هذا.**

من المعلوم المقرر - عند جمهور العلماء - أن أبا الأسود وضع نقط الحركات الثلاث والتنوين ليس غير، أما الخليل فقد كانت له - كما سبقت إليه الإشارة - إحاطة بالجوانب المختلفة للدراسات الصوتية، وقد استعان ذلك، واستهداه فيما وضعه من رموز وعلامات. وتجلى "إبداع" الخليل من جهتين:

أولاهما: ما أضافه إلى "علامات" أبي الأسود من رموز تعبر عن بعض الظواهر الصوتية الخاصة باللغة العربية.

والأخرى: ما غيره في رموز الحركات بما يعبر عن صلتها بحروف المد.

وهكذا هدى الخليل إلى «أن يصوغ شكل الأصوات صياغة دقيقة، مما جعله يدخل على النقط أو الإعجام علامات للروم والإشمام والتشديد والهمزة المتصلة والمنقطعة. واخترع علامات الضبط التي لا نزال نستعملها إلى اليوم، إذ أخذ من حروف المد صورة مصغرة للدلالة عليها، فالضمة واو صغيرة في أعلى الحرف

لئلا تلتبس بالواو المكتوبة»[1]، والفتحة ألف صغيرة فوق الحرف، والكسرة رأس ياء صغير تحته، فإذا كان الحرف منونًا، كرر الحرف الصغير فكتب مرتين فوق الحرف أو تحته[2].

هذه هي الرموز التى أبدعها الخليل ابن أحمد للحركات في اللغة العربية، على أساس من معرفته الصوتية التى أدرك بها ما بين هذه الحركات و "مدها" من صلة فالفتحة والضمة والكسرة، أجزاء من الألف والواو والياء.

ولم يقف الخليل عند هذا، بل وضع للسكون الشديد ـ وهو ما يصاحب الإدغام ـ رأس شين بغير نقط (ســ) وللسكون الخفيف ـ وهو ما لا إدغام معه ـ رأس خاء بلا نقط هكذا (حـ) ووضع للهمزة رأس عين (عــ) ... ولألف الوصل رأس صاد (صــ) توضع فوقها دائمًا، مهما كانت الحركة قبلها، وللمد الواجب ميمًا صغيرة مع جزء من الدال هكذا (مد).

فكان مجموع ما وضعه الخليل ثماني علامات نعرضها ورموزها فيما يلي:

العلامة	رموزها	العلامة	رموزها
١- الفتحة	(ـَـ)	٥- الشدة	(ـّ)
٢- الضمة	(ـُـ)	٦- المدة	(مد)
٣- الكسرة	(ـِـ)	٧- الصلة	(صـ)
٤- السكون	(ـْـ)	٨- الهمزة	(ع)[3]

(١) المدارس النحوية ص٣٣.

(٢) حياة اللغة العربية ص٩٦ وما بعدها.

(٣) حياة اللغة العربية ص٩٧.

وهي ـ كما نرى ـ حروف صغيرة، بينها وبين مدلولاتها مناسبة ظـاهرة[1].

وها هنا تظهر قيمة الإضافـة الجليلـة، التـى أضافهـا هـذا العبقـرى العظيـم إلى عمـل أسلافه فى تحديد رموز الشكل الإعرابى، وفى وضع علامات للكتابة بوجه عام!

غير أننا لا نقر للأسـتاذ البـاحث العلامـة حفنـى نـاصف ـ بما رآه مـن أن «علامات أبـى الأسـود، كـانت مجرد اصطـلاح لم يبن على مناسبة بين الـدوال والمدلولات»[2]؛ لأنا نرى هذه المناسبة متبدية رائعة فى عمل أبى الأسود رضى اللّـه عنه. وما كان اختياره لموضع العلامة فوق الحرف، أو أمامه، أو تحته إلا دليـلا علـى إدراكه لهذه المناسبة التى ربطها ـ كما أشـرنا إليـه ـ بحركـة الفـم، وقـد قسـم هـذه الحركة العضوية تقسيمًا يعبر بعض التعبير عن الخصائص الصوتية للحركات الثلاث.

هذا إلى أن جعله النقطة رمزًا أو علامة ـ يتناسب وأوّليّة فكرته وغير بعيد ـ فى رأيى ـ أن يكون صنيعه أساسًا بنى عليه الخليل، وسبيلا اتخذه إلى إبداع رمـوزه وعلاماته الباقيات.

٣. العلامات بعد الخليل:

لم "تجمد" علامات الخليل فى "إطار" صورتها التى صوّرها، بل استـحدثت أنواع من التغيرات، نشدانًا لليسر وابتغاء للسهولة.

وقد قام أتباع الخليـل وتلاميـذه بجهـود مشـكورة تجاه تلـك الغايـة وذلـك بحذف جزء من رأس الياء فى الكسرة فصار هكـذا (ــــَـ)، وحـذف رأس الميـم مـن علامة المد، وأجازوا فى الضمتين أن تكتبا هكذا (ٌ) أو تـرد الثانيـة علـى الأولى، هكذا (ٌ) وأن توضع كسـرة الحرف المشـدد فوقه تحت الشـدة (ــّـِ) أو تكـون تحت الحرف مع وجود الشدة فوقه، وفى الهمزة المكسـورة أن توضـع مـع كسـرتها

---

(١) السـابق.

(٢) حياة اللغة العربية ص٩٧.

تحت الألف، هكذا (إ) أو تكون الهمزة فوق الألف والكسرة تحتها، هكذا (أِ)[1].

وبعد، فقد كان الإعجام والشكل أمرين لازمين لكتابة لغة لها نظامها الخاص، كاللغة العربية، أو كما قال بعض السلف بحق: «ينبغي للكاتب أن يعجم كتابه، ويبين إعرابه، فإن متى أعراه عن الضبط، وأخلاه عن الشكل والنقط، كثر فيه التصحيف وغلب عليه التحريف»[2].

ولا ريب أن الأولين قد أدركوا ذلك، فأدوا أمانته وقاموا بحقّه، إذ تركوا في الكتابة نظامًا، اتخذه الآخرون إمامًا، ولم يبتغوا عنه حولا ثم خلف من بعدهم خَلْفٌ "معاصرون" لم يحاولون أن يتموا عملا، أو يكملوا بناء، بل طعنوا وعابوا سنينًا بعد سنين أن غيروا، واستبدلوا بهذه الأحرف العربية حروفًا من عند اللاتين أو الجرمان، وما بلغت إليها مأملا، ولا أدركت غاية، وظلت الكتابة العربية كتابة عربية يشهد لها المنصفون بأن نظامها من أقوم النظم الكتابية وأهداها سبيلا ... !!!

ثالثًا: انتقال الكتابة العربية إلى لغات غير عربية:

اعتمدت لغات كثيرة في كتابتها على الكتابة العربية التي زحفت مع الإسلام واللغة العربية، دليلا من الواقع، وبرهانًا متجددًا على ما احتله النظام العربي في الكتابة من مكانة تعلو بها على كثير من النظم الكتابية المعروفة في العالم كله.

لقد انتشر الخط العربي انتشارًا واسعًا في بلاد كثيرة وعند شعوب مختلفة في آسيا وأفريقيا، ويقدر عدد الشعوب التي تستعمله بأكثر من ثلثمائة مليون نسمة[3].

---

(١) حياة اللغة العربية بتصرف ص٩٧-٩٨.

(٢) صبح الأعشى ٣: ١٤٩.

(٣) هذا الإحصاء منذ نحو ٢٢ عاما، إذ ورد في بحث للأستاذ الدكتور/ إبراهيم مدكور رئيس مجمع اللغة العربية في مجلة المجمع مارس ١٩٧٣م.

فالفارسية والأفغانية (البشتو) وسائر اللغات الإيرانية التى يتكلم بها اليوم تستعمل الخط العربى، كما تستعمله لغة الأردو.

ولغة الملايو تُكتَب بحروف عربية منذ القرن السادس عشر، وكانت التركية تستعمل الخط العربى حتى ٣ نوفمبر ١٩٢٨م، يوم قضى كمال أتاتورك باستعمال الأبجدية اللاتينية.

وفى الحزام الأفريقى، الذى يشمل اللغات السودانية ـ الغينية، ثلاث لغات تستعمل الخط العربى كثيرًا وهى:

أ. الكانورى (من المجموعة النيلية ـ التشادية).

ب. الهوسا (من المجموعة النيجرية ـ التشادية).

جـ. الفلانية (من المجموعة السنغالية ـ الغينية).

والمسلمون المتعلمون الذين يتكلمون لغات غير مكتوبة فى هذه الأرجاء يكتبون باللغة العربية، إذا أرادوا الكتابة العلمية أو المراسلة.

كذلك يستعمل البربر الخط العربى فى كتابة لهجاتهم، ولكنهم يضيفون نقطًا إلى حروف معينة للدلالة على حروف لا توجد فى العربية، ولا شك أن هذا وحده دليل عظيم على مقدار استمساك هؤلاء الناس بالخط العربى وإصرارهم عليه.

وهناك نصوص صومالية دينية وسياسية كُتِبَت بالخط العربى كما أن هناك قبائل تسمى قبائل الجلا تعيش فى المنطقة الممتدة من وسط كينيا إلى الجزء الأوسط من الهضبة الحبشية. هذه القبائل لغتها غير مكتوبة، ولكن المسلمين منهم يكتبون لغتهم بالخط العربى.

هذا الانتشار الواسع للخط العربى دليل ـ أى دليل ـ على أن هذا الخط قد استمد من لغته العظيمة، صفة "العالمية" بأصدق ما تكون.

رابعًا: مكانة الكتابة العربية بين الكتابات الإنسانية:

أشرنا فى آخر الفقرة السابقة، إلى أن نظام الكتابة العربية يعد من أفضل النظم الكتابية فى جميع اللغات. وما كان هذا الكلام مبالغة أو عصبية للعربية واعتزازًا بها، بل هو كلام يعتمد على الحقيقة، ويركن من الواقع إلى البرهان المبين، ذلك أن العيوب فى النظام العربى للكتابة أقل كثيرًا من العيوب التى فى أكثر الكتابات المعروفة للناس، حتى يومهم هذا ؟!

فى علم اللغة الحديث يقرر العلماء أن الكتابة القويمة، ينبغى أن تتوفر فيها الشروط الآتية:

١. أن يكون النظام الكتابى للغة ما، ممثلا للنظام الصوتى لهذه اللغة، ومعنى هذا أن تكون الرموز الكتابية رموزًا للحروف (Phonemes) وحدها أما الأصوات التى تندرج تحت كل حرف فلا يوضع لها رموز خاصة.

٢. أن ترتبط رموز الكتابة بالوحدات الصوتية، بأن يكون لكل وحدة صوتية رمز واحد يدل عليها، فلا يستعمل رمز مركب (Diagraph) للوحدة الصوتية الواحدة. ومن جهة أخرى لا يستعمل رمز مفرد لصوت مركب (Diaphone). ولا يستعمل رمز معين للدلالة على وحدة صوتية مرة، ووحدة ثانية مرة أخرى.

٣. أن تكون الرموز الكتابية بسيطة الصورة قدر الإمكان، بحيث لا يصعب كتابتها، ويترتب على ذلك ضرورة الابتعاد عن العلامات الإضافية فى الرموز.

٤. أن تتساوى الوحدات الصوتية والرموز الكتابية، فلا يهتم النظام الكتابى ببعض الوحدات، فيمثلها برموز ويغفل بعضها فيسقطه من حساب الرموز.

وقد أثبتت الدراسة المقارنة، تحقق معظم هذه الشروط في الكتابة العربية وخاصة الشرط الأول الذى وفته هذه الكتابة حقّه أكمل الوفاء.

فنرى صوت النون مثلا، ينطق بعدة أصوات من مخارج مختلفة، فهو فى مثل (أنا) ينطق فى اللثة، وفى مثل (ينفع)، يخرج من ملتقى الشفة السفلى والأسنان العليا. على حين أن اللسان يخرج فى أثناء النطق بهذا الصوت فى كلمة مثل ينذر أو ينظر ... وهكذا.

وقد عبرت الكتابة العربية عن هذه الأصوات كلها، برمز واحد وهو النون (ن)، موجهة عنايتها إلى "الحرف" فى عمومه، دون الأصوات فى خصوصها. وتلك درجة عالية فى دقة التعبير الكتابى، لا مرية فى ذلك ولا جدال.

وإن اللغات الغربية، لتحسد اللغة العربية على هذه الدقة فى الكتابة. ولا يخفى علماء الغرب إعجابهم بالعربية، حين يوازنون بينها وبين الكتابة الإنجليزية أو الفرنسية فى هذا المجال.

وفى تقرير قدمه مجمع اللغة العربية وكلية الألسن، إلى هيئة "اليونسكو" الدولية، ثبت أن "الإيجاز" طبيعة فى اللغة العربية، وأن نظام الكتابة فيها، قد عبر عن هذه الطبيعة تعبيرًا جيدًا، ولهذا نجد أن السطر الواحد ـ مكتوبًا أو مطبوعًا ـ يستوعب من الكلمات العربية أكثر مما يستوعبه من كلمات بلغة كالفرنسية مثلا. ويكفى للتدليل على هذا أن نترجم فقرة من نحو أربعة أسطر أو خمسة بأى لغة إلى اللغة العربية، لنرى صدق هذه الحقيقة التى لا يحتاج صدقها إلى تدليل، لأنها تركن إلى حقائق علمية واقعة، ترجع إلى خواص العربية فى التعبير عن المعانى المختلفة مقارنة بغيرها من اللغات. ولننظر فى الأمثلة التالية:

١. اللغات الأوروبية تعرف الحركات المزدوجة مثـل "ee - oo" فـى "Door" أو "Meen" والعربية تعبر عن مثل هذا بحرف واحد مثل "جميـل"، "يسير" ومثـل "سور" و "بوق".

٢. تنتشر الحروف الصامتة التى تكتب ولا تقرأ، ولا يوجد ذلك فى اللغـة العربيـة إلا فى اللام الشمسية، والواو الملحقة بعمرو.

٣. تستغنى الكتابة العربية بعلامة التشديد عـن تكرار الحـرف ولا نظير لهـذا فـى اللغات الأخرى.

هذه الأمثلة وردت بين أمثلة عديـدة فـى تقرير عـن اللغـة أعدتـه مؤسسـة علمية، لا شك أنها من أفضل الهيئات صلاحية لإبداء الرأى فى مثل هذا الموضـوع، الذى يرتبط بمعرفة اللغات، والخبرة المحيطة بها، وتلكم هى كلية الألسن.

على أن هناك ميزة أخرى عظيمة الأهمية فـى الكتابـة العربيـة، وتلـك هـى إيجازها، وقلة ما تسـتهلكه مـن حيز أو مسـاحة علـى الـورق وذلـك يرجـع إلى أن أساسها يقوم على حرف هو ذاته قليل الحجم، فإذا اتصل فى الكتابة، اختزل نصفه، وربما تركب مع الحرف الآخر فوقه أو تحته، ولا ريب أن هناك اختصـارًا هـائلا فـى الكتابة تتميز به الكتابة العربية تميزًا واضحًا لا خفاء فيه.[١]

كل ما قدمناه لا يعنى أن هذه الكتابة خالية مـن العيـوب فهـذا شـىء غـير ممكن، ولكنا نقول ما سبق أن أومأنا إليه من قبل، حين قررنا أن العيوب فى الكتابـة العربية أقل كثيرًا من العيوب فى غيرها، وأنها بذلك تعد واحدة من أفضل الكتابات التى كتبت بها لغة من اللغات ؟!

ذلك أن العيوب فيها محدودة يمكن حصرها فى جهات معينة مثل:

---

(١) ارجع إلى مجلة اللغة العربية ٢٦: ١٨، ٣٤.

١- استعمال بعض الرموز الكتابية فى عدد من الوظائف اللغوية كما نرى فى الألف والواو والياء. فالألف تكون للمد وزائدة بعد واو الجماعة، وللوصل، وقاعدة لهمزة القطع.

والواو تكون صحيحة فى "وعد"، وللمد فى "يقوم"، وزائدة فى "عمرو"، ولتكتب عليها الهمزة فى لؤلؤ.

والياء تكون صحيحة فى "يعلم"، ومدًّا فى "جميل"، ورمزًا للألف التى أصلها الياء فى "هدى" وقاعدة للهمزة فى بئر.

وهذا عيب كبير فى نظام الكتابة بغير شك، ولكنه - فى رأينا - خاضع لظروف أو اعتبارات ترجع فى أغلب الظن إلى رغبة الاختصار والإيجاز، بعدم الإكثار من رموز الكتابة.

ومع التسليم بهذا، نرى أن الكتابة العربية قد سلمت من عيب واضح فى الكتابة الإنجليزية على سبيل المثال، إذ لا ترى فيها ما نراه فى كتابة هذه اللغة من وجود رمز مركب لصوت مفرد أو وحدة صوتية واحدة مثل:

(ough - ph - gh - ch)

٢- تعاب الكتابة العربية أيضًا باختلاط الصورة بين بعض رموزها وبعض، كما نرى فى مجموعات: (ب، ت، ث، ن، يـ) فى أول الكلام أو وسطه، وفى (س ، ش) فى (ص ، ض) وفى (ط ، ظ)، وكان سببًا من مظاهر التصحيف والتحريف فى الماضى.

ولا ريب أن هذا عيب ولكن التغلب عليه ليس صعبًا ولا مستحيلا، إذ يكفى لذلك أن نوجه العناية إلى المعلمين، بحسن إعدادهم، والحزم فى توجيههم لتدريب التلاميذ عند المراحل الأولى على الدقة والحرص حين كتابة هذه الحروف المتشابهات.

٣- ومما تعاب الكتابة العربية به مع ما تقدم، خلوها من رموز أساسية للحركات، تكتب فى صلب الكلمة برغم أنها جزء أساسى فى بنيتها غير أن هذا يرجع - فيما نرى - إلى الطبيعة العربية التى أثرت بغير شك فى هذا الاتجاه، أو أمثلته ودعت إليه.

فالفطرة العربية النقية فى العصور الأولى، كانت تمكن العربى من النطق الفصيح القويم، اعتمادًا على دلالة السياق وحدها، كما كانت الملكة القوية لديهم تغريهم بذلك، وتساعدهم عليه.

ومجمل القول هنا، أن الكتابة العربية، نظام إنسانى وهى - من أجل ذلك - تشتمل على صفات حسنة وأخرى سيئة، ولكن الحسن من صفاتها يجعلها بحقّ من أفضل ما عرفه الإنسان من نظم فى كتابة اللغة.

ملحق

خصائص اللغة العربية فى التعبير العلمى

بحث للأستاذ الدكتور

عبد الحليم منتصر

قدم هذا البحث إلى مؤتمر للتعريب عقد فى الجزائر سنة ١٩٧٣م

تقديم وبيان:

لما كانت قضية "التعبير العلمي" في العربية، من أهم القضايا التي تواجه الأمة كلها؛ فقد رأينا أن نقدم ـ في هذا الملحق ـ طرفة نفيسة من طرف البحث العلمي الجاد، لواحد من الأعلام الكبار من ميادين العلم التجريبي، وهو الأستاذ الدكتور/ عبد الحليم منتصر، الذى قدم بحثه إلى مؤتمر منبثق عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، التابعة لجامعة الدول العربية. وعقد في الجزائر سنة ١٩٧٣م.

وسوف يرى قارئ البحث، أن الباحث الكبير رحمه الله، قد انتهى إلى تقرير ما انتهت صحائف "اللغة الباسلة" إلى تقريره، وهو أن العربية لغة العلم كل العلم؛ كانت كذلك بالأمس وينبغي أن تكون كذلك اليوم وغدًا، وإلى آخر الزمان إن شاء الله.

إن الدكتور عبد الحليم منتصر ـ عليه رحمة الله ـ يؤكد حقيقة ثابتة، نؤمن بها، ونجادل عليها، ونجاهد فيها ولهذا ألحقنا بحثه بصحائفنا لكي يطمئن قارئها أننا نركن فيما نذهب إليه مما تعرضها الصحائف عليه إلى برهان العلم وحق اليقين؛ لأن الرجل عالمٌ في هذ الميادين ثقة خبير، ولهذا أهميته وقيمته، "ولا ينبئك مثل خبير".

وبالله التوفيق ،،

كاتب الصحائف

****

بسم الله الرحمن الرحيم

خصائص اللغة العربية في التعبير العلمي

تمهيد:

منذ أكثر من أحد عشر قرنا من الزمان وفي عهد الخليفة المأمون على التحديد تقاطر المترجمون على بيت الحكمة في بغداد، ينقلون الذخائر العلمية التي تركها الإغريق والفرس والهنود والسريان والقبط وغيرهم إلى اللغة العربية وشجع الخليفة العالم هذه الحركة العلمية العارمة فكان يولي العلماء عطفه ورعايته كما فتح لهم خزائن المال، يغدق عليهم منها، استحثاثًا منه لهم على نقل هذا التراث إلى اللغة العربية وكذلك تم نقل هذا التراث الضخم في الطب والفلسفة والمنطق والأخلاق والسياسة والفلك والرياضيات والتشريح والنبات والحيوان وما إليهما من علوم لم يكن للعرب بها عهد.

وليس من شك في أن تلك كانت نقطة بدء رائعة للانطلاق وغدت بغداد مركز إشعاع علمي حضاري تاهت به على حواضر ذلك العصر ودانت الحضارة الإنسانية لبغداد المأمون وغدا الخليفة المأمون رمزًا للملك العالم، وجمع حوله جمهرة من العلماء علا بهم بلاطه وزين ملكه بمن نقلوا له روائع أبقراط وفيثاغورث وأفلاطون وأرسطو وبطليموس وجالينوس وديسقوريدوس وإقليدس وأرشميدس وغيرهم من علماء أثينا والإسكندرية.

وعرفت الأمة العربية طب أبقراط وفلك وبطليموس وهندسة إقليدس وقرأوا مجسطي بطليموس، وأصول إقليدس وجامع أورياسوس ومئات بل ألوفًا من كتب أرسطو وجالينوس وثاون وهيرون وغيرهم من رواد العلم في العصرين الإغريقي والإسكندري.

ووسعت العربية الجو مطريا والاسطرونوميا والميتافيزيقا والاريثماطقيا والماثيماطيقا ومصطلحات التشريح والهندسة والفلك والطب والرياضيات وما إليها واستمرت الحركة العلمية فى النمو والازدهار وشملت الحواضر العربية كلها من بغداد إلى دمشق إلى القاهرة إلى مراكش إلى الأندلس فى الجامع المنصور والجامع الأموى والجامع الأزهر وجامع القيروان وجامع قرطبة وفى بيت الحكمة ودار الحكمة ودار العلم.

فكانت هذه وتلك تؤدى ما تؤديه الجامعات ومعاهد العلم فى الوقت الحاضر، وكانت منازل العلماء وقصور الخلفاء والأمراء والمساجد ودور الكتب تزدان بمجالس العلم والأدب وامتدت الامبراطورية العربية والإسلامية من حدود الصين شرقًا إلى حدود فرنسا غربًا.

وأكب علماء المسلمين على التأليف بلغة سليمة حتى كانت أعمال العالم منهم تعد لا بالآحاد ولا بالعشرات ولكن بالمئات، وتاه هذا العصر بعشرات ومئات من العلماء العرب يقرنون إلى أعاظم العلماء فى كل عصر وآن. وها هى ذى تأليفهم ومخطوطاتهم تزدان بها الكتب والمتاحف، مما يعد بمئات الألوف مما يحتاج تحقيقه وعرضه إلى جهود من أولى العزم من العلماء وليعكفوا على دراستها وتحقيقها وعرضها مخلصة.

وقد أنصفنا بعض مؤرخى العلم حين قالوا أن الحضارة الإنسانية مدينة للعلماء العرب فى كل فروع المعرفة وأنه كان لابد من ظهور ابن الهيثم والصوفى والبيرونى والكندى لكى يتسنى ظهور جاليلو وكيلر وكوبورنيق وأنه لولا أعمال العلماء العرب لاضطر علماء النهضة الأوربية أن يبدأوا من حيث بدأ هؤلاء ولتأخر سير المدنية عدة قرون وأنه لو لم يعوقنا المغول والترك والاستعمار لكانت هذه النهضة التى تفاخر بها أوروبا تكون من نصيب الأمة العربية وتكون لغتها هى العربية وتتقدم عليها فى التاريخ عدة قرون.

ولا شك أن القارئ لمؤلفات ابن سينا وابن هشام والبيرونى وجابر والخوارزمى والرازى وابن النفيس والزهراوى والصوفى وابن يونس وابن العوام وغيرهم، ليتملكه الإعجاب والإكبار بأسلوبهم العلمى الأخاذ ولغتهم العربية السليمة التى كتبوا بها فى الفلك والرياضيات والضوء والهندسة والجبر والطب والكيمياء. لقد طوعوا العربية لمصطلحات هذه العلوم الطبيعية المختلفة حتى قال المنصفون أن الينبوع الأول للعلوم الطبيعية إنما تفجر فى العصر العربى الإسلامى الذى ازدان بأمثال من ذكرنا.

ولكن الأيام دول كما يقولون فضعف أمر الأمة العربية بعد أن قدمت لأوروبا زاد نهضتها العلمية عن طريق الأندلس التى سطعت فيها الحضارة العربية الإسلامية عدة قرون وعن طريق صقلية التى دانت لحكم العرب بضعة قرون، وعن طريق الحروب الصليبية ثم عن طريق الإمبراطورية العثمانية فى شرق أوروبا وظلت كتب من ذكرنا من العلماء العرب هى المراجع المعتمدة فى جامعات أوروبا طيلة قرون وأنشئت الجامعات الأوربية على غرار جامعة الأزهر العتيدة وترجمت الكتب العربية إلى اللغة اللاتينية واللغات الأجنبية الأخرى وسطعت شمس الحضارة العلمية على أوروبا فى حين انحصرت عن الأمة العربية.

وفى أوائل القرن الماضى بدأت الاتصالات بين بعض الدول الأوربية وبعض البلدان العربية كان هدفها الأول حربيًا استعماريًا، لم يكتب لها فيها نصر ولم تحقق أغراضها منه، ولكنما تحققت اتصالات علمية كان من نتائجها نقل العلوم الحديثة إلى البلدان العربية وإنشاء بعض المدارس الحديثة وإرسال البعثات العلمية إلى أوروبا.

وعاد هؤلاء المبعوثون ليقودوا نهضة علمية حديثة ومنذ أوائل القرن الثامن عشر أنشئت فى مصر مدارس الطب والهندسة والمعلمين وغيرها من مدارس وشارك

علماء من أساتذة هذه المدارس من الأجانب والمصريين في ترجمة أمهات الكتب العلمية إلى اللغة العربية في الطب أو الهندسة أو الزراعة أو الصيدلة أو الكيمياء وما إليها من علوم وفنون.

وكان الحكام يلزمون طلاب البعثات بنقل هذه العلوم إلى اللغة العربية وأن تكون اللغة العربية لغة التدريس في هذه المعاهد.

وفي أخريات القرن الماضي عاد الاحتلال ينشر ظلّه الثقيل مرة أخرى وشيئًا فشيئًا جعل لغة التدريس هي الأجنبية، ولم يكتف بأن يكون ذلك في المعاهد العليا وحدها ولكن عم ذلك في المدارس الابتدائية والثانوية فاستقر في أذهان الكثيرين أن هذه العلوم مستوردة هي الأخرى من الخارج وأنه لم يكن لنا بها عهد، وتناسى الكثيرون أنها بضاعتنا ترد إلينا وأن العلماء العرب هم واضعو أسس هذه العلوم وهم مبتكرو كثير من أجهزتها وأدواتها، بل ومصطلحاتها أيضًا.

ومنذ أوائل القرن العشرين عادت للغة العربية مكانتها في التدريس في المدارس الابتدائية والثانوية، كما أنشئت في مصر الجامعة الأهلية وكانت مقصورة على كلية الآداب كما أنشئت معاهد عليا كثيرة، وفي أواسط عشرينات هذا القرن، أنشئت الجامعة المصرية الأميرية وكانت تتكون آنئذٍ من أربع كليات هي: الآداب والحقوق والطب والعلوم، وكانت العلوم هي وحدها التي أنشئت إنشاء في ذلك التاريخ لم تكون متحولة عن معهد أو مدرسة أخرى، وضمت إليها بعد ذلك كليات أخرى.

ثم أنشئت في أوائل الأربعينيات جامعة الإسكندرية ثم جامعة عين شمس في سنة ١٩٥٠م وتتابعت الجامعات في مصر بعد ذلك في أسيوط وطنطا والمنصورة والزقازيق كما تتابع الجامعات في كثير من البلدان العربية في العراق: في بغداد والموصل، وفي سوريا: في دمشق وحلب، وفي الأردن: في عمان، وليبيا،

والجزائر، والمغرب، والكويت، السعودية، للمحافظة على سلامة اللغة العربية وجعلها مسايرة للنهضة العلمية.

ومن أسف أن الغة العربية لا تزال وئيدة الخطو لتكون لغة التدريس فى الكليات العلمية خاصة باستثناء جامعة دمشق.

وقد آمن الكثيرون أن التدريس إنما كان بلغة أجنبية ضرورة مؤقتة لم يكن معدى عنها وأنهم ليرقبون اليوم الذى يعم فيه اتخاذ العربية لغة العلم. فالعربية لم تقصر عن اللحاق بركب العلم إنما قصر أبناؤهم.

وفى أوائل الثلاثينيات صدرت فى مصر مجلة علمية باللغة العربية وفيها دعوة صريحة لتحقيقة هذا الهدف، وكان العدد الأول يحمل استفتاء بين كبار أعضاء هيئة التدريس وكلهم يجمع على تحقيقة ذلك الهدف.

وتكونت جماعة أطلقت على نفسها اسم جماعة أنصار اللغة العربية كان هدفها تحقيق هذا العلم وتدريب أعضاء هيئة التدريس والطلاب معالجة الموضوعات العلمية بلغة عربية سليمة، يتناولون فى محاضراتهم ومقالاتهم أحدث الموضوعات العلمية من كيميائية وجيولوجية وطبية وصيدلية ونباتية وحيوانية ورياضية وهندسية وطبيعية بلغة عربية لا عجمة فيها.

لقد حدث كل ذلك آنئذ فى كلية العلوم بالجامعة المصرية وكان للإنجليز فى ذلك الوقت سلطان ودولة، لا فى السياسة فحسب بل فى العلم والتعليم كذلك.

ومع ذلك فقد توافر لدى الكثيرين من أبناء العربية من القوة والشجاعة ما جعلهم ينادون بتعريب العلم. وإنى لأسجد لله شكرًا أن عشت حتى أرى فجر هذا اليوم يبزغ وما أشك فى أن ضحاه قريب ما دمنا نحمل هذه القلوب القوية والعزمات الفتية، وما دام أبناء العربية، فى أرجاء الوطن العربى يستهدفون وحدته

ورقيه وقوته ليكون وطنًا كريمًا يسعد أبناؤه وشرفون بالانتساب إليه.

وها هم العلماء العرب يتزايد عددهم يومًا بعد يوم يحاولون أن يعيدوا مجد أسلافهم من أمثال من ذكرنا وها هم أولا يعقدون المؤتمرات الطبية والصيدلية والهندسية والعلمية فى كل أرجاء من أرجاء الوطن العربى من أقصى شرقيه إلى أقصى غربيه تحت راية لغة الضاد ـ ليعلن عن حيويته الكامنة وليقود الإنسانية مرة أخرى إلى رحاب العلم والرفاهية والسلام وأنه على ذلك لقدير، ما اتخذ من العلم هاديًا وإمامًا، وما رفع راية لغة الضاد تجعلها من مقومات ثقافته وحضارته، بل وكيانه. ولا مراء فى أن أولى مراتب الثقافة علم المرء بلغته، وقدرته على التعبير والإبداع العلمى فيها فى كل مرفق من مرافق الحياة.

ولا مراء فى أن مجمع اللغة العربية بالقاهرة ـ وقد عاصرته زهاء ثلاثين عامًا ـ أعظم خدمة لتعريب العلم إذ خصص جانبًا غير يسير من وقته وجهده لترجمة المصطلحات العلمية إلى اللغة العربية بعد أن جند لها الخبراء من الأساتذة المتخصصين.

كان يجتمع بهم أعضاء المجمع فى لجان واجتماعات تُعقَدُ بصفة منتظمة لهذا الغرض ثم يعرض ما تقرره اللجان على أعضاء المجمع مجتمعين فى صورة مجلس، ثم تعرض مرة أخرى على هيئة المجمع فى صورة مؤتمر حين يعقد المجمع مؤتمره السنوى؛ ليناقش ويقرّ ما أنجزه المجلس من أعمال طيلة العام فكان المصطلح والتعبير العلمى بهذه الخطوات جميعًا كفيلا بصقله وحسن صوغه.

وقد أقر مجمع اللغة العربية ألوف المصطلحات والتعبيرات العلمية فى مختلف فروع العلم، نشر منها حتى الآن نحو خمس عشرة مجموعة تضم بضع عشرات من ألوف المصطلحات، فضلا عن عدد غير قليل منها يتضمنه المعجمان اللذان يصدرهما المجمع، وهما الوسيط والكبير.

وقد ذهب فريق من المشتغلين بهذه المسألة إلى أنه لابد من إيجاد جذور عربية للكلمات والمصطلحات المراد ترجمتها والتعبير عنها، وأنه لا ينبغى أن تدنس العربية بعجمة أو لكنة، وإنما تبقى مصفاة مطهرة.

وقد يبدو هذا الرأى وجيهًا لولا أن هناك استحالة فى تنفيذه أو الأخذ به على أية صورة.

فالمصطلحات العلمية فى تزايد مستمر بل إنها تتكاثر كما يتكاثر الإنسان والنبات والحيوان، فيزيد عددها يومًا بعد يوم وسنة بعد أخرى حتى أضحى مجرد مشكلة تعترض الفنيين والمتخصصين وأضحت دور النشر تخرج علينا كل حين وآخر بمعاجم تتفاوت حجومًا وأشكالا، وتختلف فى لغاتها وطرائقها، فمنها ما يُصَوِّرُ بلغة واحدة، ومنها ما يُصَوِّرُ بلغتين، ومنها ما يجمع بين ست لغات أو أكثر. فملاحقة هذا التكاثر بلغة عربية أصلية يبدو مستحيلا لأسباب ليس أقلها شأنا أن العرب لم تكن تعرف هذه الموضوعات وأن هذه العلوم جديدة حتى على الغربيين وأن الكثير منها إنما رأى النور وعرفته الإنسانية فى مطالع هذا القرن، بل وبعد أن تنصف فمن أين تأتى الجذور العربية لهذه المستحدثات والمستعدنات والنظريات التى لم يكن للعرب بها علم.

إننا نكلف العربية شططًا، ونكلف أنفسنا جهدًا لا طائل تحته إن نحن صممنا على التنقيب فى بطون المعاجم عن أصول عربية للميكروسكوب والترمومتر والإلكترون والنيترون والميزون وما إليها مما يعد بعشرات الألوف، فما علينا إلا أن نبحث وندقق فإن أسعفتنا المراجع ببغيتنا، فبها ونعمت، وإلا ففى التعريب متسع لهذه الألوف المؤلفة من الصطلحات والتعبيرات العلمية فى كل علم وفن ويسعنا ما وسع الأقدمون من استعمال أريثماطيقا وميتافيزيقا وجومطريقا وأسطرونوفيا وغيرها.

وإذا نحن اتفقنا على الترجمة العربية لكلمة، فلعله من الواجب توحيدها وتعميم استعمالها فى الأقطار العربية، بل التزام هذا الاستعمال وإذا ترجمنا ميكروسكوب فهل نستعمل مجهر بصيغة اسم الفاعل أو مجهر بصيغة اسم الآلة أو نقول مجهار على وزن مفعال؟.

وإذا نحن ترجمنا كلمة ترمومتر فهل نقول ميزان الحرارة أو نستعمل اسم الآلة فنقول "محرار" على وزن مفعال أو نبقى على ترمومتر تقريبًا؟ فهذا كما نرى أمرًا محيرًا تختلف فيه الآراء وتتباين فيه الأذواق.

توحيد الترجمة العربية للمصطلحات

وهناك أوجه خلاف بين الدول العربية والمثقفين العرب بشأن هذه المصطلحات، فالعراق والأردن ومصر لوثتهم الثقافة الإنجليزية حينا فتأثروا بها. وسوريا ولبنان وتونس والجزائر ثقافتها فرنسية؛ فتأثرت مصطلحاتهم العلمية بالأصول الفرنسية لكلمات، فلا بد لنا إذن من الترجمة ثم توحيد هذه الترجمة.

ولنصرب بعض الأمثلة لهذ التباين فى التعبير العلمى فى بعض البلاد فعلم الطبيعة كما نعرفه فى مصر يسمى فى سوريا والعراق والأردن ولبنان "فيزياء"، والأولى ترجمة والثانية تعريب على أن التعريب ليس كاملا أو صحيحًا فالتعريب الصحيح هو "فيزيقا" كذلك استعمله العلماء الأقدمون كما استعملوا "أوثماطقيا" للحساب، و "ماثيماطيقا" للرياضيات و "جومطريقا" للهندسة، وهكذا فكلمة فيزياء لم تلتزم فيها العربية الفصحى ولا التعريب السليم ولا عيب فى كلمة طبيعة إلا احتمال الشبهة مع (Naure) التى تترجم بنفس الكلمة "طبيعة".

ونحن نقول فى مصر كما يقول أهل العراق بؤرة العدسة ولكن الأقطار الأخرى تقول "المحرقة". ونحن فى مصر نقول بندول الساعة تقريبًا لكلمة Pendulum وفى العراق يقولون "رقاص" وفى سوريا "نواس" وفى الأردن "خطار" فينبغى أن تختار الدول العربية ترجمة واحدة للمصطلح الواحد.

وفى مصر والعراق تطلق كلمة "طحلب" على Alga على حين إنهم فى سوريا ولبنان يقولون "أشنة" أما أشنة فنستعملها فى مصر لكلمة Lichen على حين تقول الأقطار الأخرى "طحلب".

وكلمة Endosperm عربت فى مصر إلى "اندروسبرم" وترجمت فى بعض البلاد العربية الأخرى إلى سويداء.

وكلمة Ecology ترجمت فى مصر إلى علم البيئة وفى أقطار أخرى إلى علم المحيط، وفصيلة Rutaceae ترجمت فى مصر إلى سدبية نسبة إلى اسم النبات الذى اشتق منه اسم الفصيلة واستعملت الأقطار الأخرى ليمونية نسبة إلى أشهر نباتها.

وكلمة Nucellus ترجمت إلى "جويزة" فى البلاد العربية وعربت فى مصر إلى "نويسلة".

وكلمة Micropyle ترجمت إلى نقير فى مصر وفى البلاد العربية إلى "بويب".

ونحن فى مصر نقول "جرام" تعريبًا لكلمة Gram الإفرنجية، وغيرنا يقول "غرام".

ونقول مغنطيسية تعريبًا لكلمة Magnetism فعربنا الجاف بالجيم حينًا والبغين حينًا آخر. ونحن نقول "إيجروسكوبى" وآخرون يقول "إيغروسكوبى"... وهكذا.

وليست الترجمة العربية للمصطلح جامدة أبدًا فما أيسر أن نتبين أن هناك ترجمة أو تعبيرًا أفضل حتى نعدل عن الأول إليه، فلم تكن الترجمة جامدة أبدًا، فقد كانت الترجمة تعرض فى المقالات والبحوث وللدراسات فيصقلها ويصححها الذوق العام والاستعمال.

ومن أمثلة ترجمة المصطلح الذى يدل على درجة تركيز "أيون الأيدروجين" ويرمز له بالإفرنجية بالرمز PH فقد سمى أولا "الجهد الأيدروجينى" ثم "الأس الأيدروجينى" ثم عدل أخيرًا إلى "الرقم الأيدروجينى".

وكذلك تلك الظاهرة التى سميت حينا "ادمصاص"، ثم عدل عنها إلى "التجميع السطحى" وها هى ذى يقرها المجمع اللغوى والذوق العام بين المشتغلين

بالعلم إلى "امتزاج" ترجمة لكلمة Adsorption.

ومصطلح "غروى" اتخذ ترجمة لكلمة Golloid، ثم عدل عنها إلى "شبه غروى" ثم إلى "غروانى".

وكذلك كلمة Klkaloid عربت حينًا إلى "قلويد"، ثم ترجمت إلى "شبه قلوى" ثم إلى "قلوانى" وهكذا.

مصطلحات فى علم الطبيعة:

وهناك مصطلحات متقاربة المعنى المدلول لابد من تعريفها تعريفًا دقيقًا، ولابد من وضع الترجمة الصحيحة لكل مصطلح يتميز بها عن المصطلح الآخر فالممانعة والمعارقة والمقاومة قريبة فى معناها ولكن مدلولاتها متفاوتة فوضعت:

الممانعة	ترجمة الـ	Reluctance
والمقاومة	ترجمة الـ	Resistance
والمعاوقة	ترجمة الـ	Impedance

ثم المجاورة والمهاودة والمسايرة قريبة فى معناها، ولكن مدلولاتها متفاوتة فوضعت:

المجاورة	ترجمة الـ	Permittance
والمهاودة	ترجمة الـ	Susceptance
والمسايرة	ترجمة الـ	Admittance

ثم المفاعلة، والمنافذة، والمواصلة، والمحانة قريبة فى معناها، ولكن مدلولاتها متباينة فوضعت:

المفاعلة ترجمة	ترجمة الـ	Reactance

والمنافذة	ترجمة الـ	Permeance
والمواصلة	ترجمة الـ	Conductance
والمحانة	ترجمة الـ	Inductance

ثم ابتكرت صيغ جديدة لم تكن تستعمل كثيرًا كالمصدر الصناعى فنقول:

الممانعية	ترجمة الـ	Reguctivity

- وهى مقدار قابلية المادة المغنطيسية لتوصيل الفيض المغنطيسى وهى مقلوب المنفذية.

والمنفذية	ترجمة الـ	Permeabillity

- وهى النسبة بين كثافة الفيض المغنطيسى المنتج فى وسط ما إلى القوة الممغنطة المنتجة له.

والمجاوزية	ترجمة الـ	Permittvity

- وتعنى المقاومة الحجمية للمادة، ويقصد بذلك مقاومة جرام من تلك المادة طوله الوحدة ومساحة مقدمة الوحدة تسمى أيضًا المقاومة النوعية.

والمتأثرية	ترجمة الـ	Susceptitility

- وهى النسبة بين شدة التمغنط إلى شدة المجال المغنطيسى فى الدائرة المغنطيسية.

المفاعلية	ترجمة الـ	Reactivity
المعاوقية	ترجمة الـ	Impedivity
الموصلية	ترجمة الـ	Conductivity

- وهى خاصية للمادة بفضها تسمح للتيار الكهربائى بالمرور خلالها إذا كان هناك

فرق جهد وهى مقلوب المقاومية.

وكذلك تتقارب معانى الانحلال والتدهور والفساد والتفتت والتحلـل وقـد ترجمت عل هذا النحو:

انحلال	Degeneration
تدهور	Deterioration
هدم	Destruction
تفتت	Disintegration
تحلل	Analysis
فساد	Decay

مصطلحات طبية:

وابتكرت صيغ قياسية كثيرة المصطلحات الطبية:

كأن نقول عصاب ترجمة للمصطلح Neurosis وهو مرض عصبى وظيفـى لا تصحبه علامات عضوية، ومن أنواعه:

(أ) عصاب القلق	Anxiety neurosis
(ب) عصاب إصابى	Teaumatic
(جـ) عصاب قلبى	Cardiac
(د) عصاب كلالى	Fatigue
(هـ) عصاب متأخر	Neruosis trada
(و) عصاب انحصارى قسرى	Obsessive compulsive

(ز) عصاب مهنى	Occupational neursosis
* وكذلك نقول عن المرض الجلدى "جلاد"	Dermatosis
* وعن مرض الصدفية "صداف"	Psoriasis
* ونقول بواغ الشعر	Sporotrichosis
* الورام الزهمى	Stratomatosis
* فطار الشعر	Trichomycosis
* وعقاد الشعر	Trichonodosis
* والعراق المصن	Asmidrosis
* والعراق الفسفورى	**Phosphoridosis**
* الصحام	**Ochronosis**

وترجم إلى العمه الحسى مصطلح Agnosis وهو: القصور عن تمييز الأشياء وأنواعه:

(أ) عمه سمعى	Auditory agnosis
(ب) عمه بصرى	Optic Agnosis
(جـ) عمه لمسى	Tactile agnosis

وترجم إلى العمه الحركى المصطلح Apraxia Agnosis وهو: عدم القدرة على الإتيان بحركة ذات قصد.

وهناك عشرات من الأمثلة لهذه المجاميع من الكلمات أو المصطلحات التى تتقارب فى معانيها وتتفاوت فى دلالتها ومن أسف أن المراجع الأجنبية كثيرًا ما

تستعمل الكلمة الواحدة لأكثر من معنى ومدلول. فكان على المترجم أن يحتاط كذلك.

ومن حسن حظ العربية أنها غنية جدًا بالمترادفات وأن فقهها من أغنى لغات الأرض بالمدلولات والألفاظ والأقيسة، وكانت الطريقة الوحيدة هى جمع هذه الأشياء وتسليط الأضواء عليها واستنباط المدلولات الحقيقة لها والغوص فى المعاجم لاستخراج الكلمة الملائمة وتعميم الاستعمال والتزامه.

الوحدات والرموز والثوابت:

وهناك صعوبة الوحدات والمواصفات والمقاييس واستعمال الرموز المناسبة لكل وحدة، وتميزت اللغات الأجنبية بالخطوط المتغايرة، فالرومانى والإغريقى والإيطالى والخفيف والثقيل والكبير والصغير لكل صورة مما جعلنا نحصل على مئات الصور للحروف الأبجدية ومن حسن الحظ أن الخطّ العربى هو أيضًا متعدد فهناك النسخ والرقعة والثلث وما إلى ذلك فنجد هذه الصور:

الكاف

الميم

النون

الجيم

السين

القاف

الياء

الراء

فكان علينا أن نؤلف بين هذه الحروف لنجد الرموز الكافية لمئات

الوحدات والمقاييس والعناصر، فهناك رموز للثوابت مثل ثابت سرعة الضوء، ثابت فوجادور، ثابت فراداى، ثابت شحنة الإلكترونات، ثابت الجاذبية، وثابت الإلكترونى.

وهناك وحدات المقاييس من طول وعرض وارتفاع ونصف القطر والقطر والزاوية والمساحة والحجم.

ووحدات الوقت والزمن والتردد والسرعة وطول الموجة والاتساع والكثافة والعزم والشغل والقوة والوزن والضغط والطاقة والقدرة والكفاءة والشدّ والانحراف والالتواء والاحتكاك واللزوجة والولاء والتوتر والتيار والمقاومة والحد والسعة والفيضض والجهد والمقاومة والممائعة والمجاورة والمواصلة والإضاءة.

ثم معاملات الانكسار والانحراف ودرجات الحرارة والتمدد والموصلية والعدد الذرى والوزن الذرى والتكافؤ والتحلل والتأين.

ثم المتر والميليمتر والسنتيمتر والميكرون والملليلتر والثانية والدقيقة والساعة والسيكل والكيلو سيكل والجرام الميلجرام والكيلو جرام. والسعر والكيلو سعر والواط والفولط والأمبير والجول والقنديلة والكولومب والفولط كولومب والفولط أمبير والهنرى والفاراد والكورى والميكروكورى، والبوصة والقدم والباردة والجالون والحبة والأوقية والباوند والباوندال والحصان ...إلخ.

هذه أمثلة لوحدات لا تجاوز المائة وهناك مئات غيرها لا يتسع المقام لذكرها عدا أكثر من مائة من العناصر الكيميائية ينبغى أن يتفق على رموز من حروف عربية لها وقد قال قوم بالبقاء على الوحدات والرموز الأجنبية إلا أن هذا الرأى قد رفض ورؤى الالتزام بالعربية. والمعدلات الكيميائية رؤى تعريبها هى الأخرى ما دامت الرموز قد عربت جميعها.

ونتبين الصعوبة إذا عرفنا أن القدرة والقوة والقطر، وقوة المجال المغنطيسى

والقوة الدافعة الكهربائية والطاقة الدقيقة كل هذا وغيره كثير يرمز إليه بالحرف "ق" ولابد من التمييز بينها فقد وقع اثنان أو أكثر فى معادلة واحدة كذلك المساحة والسعة وستوكس وغيرها يرمز لها بالحرف "س" والشدة والشغل والشحنة ومعامل الانتشار وغيرها يرمز لها بالحرف "ش" والتردد والتيار والتورك (عزم الدوران) والوقت ومعامل الانتقال وثابت التفاعل ويرمز لها بالحرف "ت".

وعدد أفوجا دور والزمن وثابت الدوران وعدد اللفات وعدد الجزئيات والسعة الحرارية للجزىء وعدد الانتقال ووحدة نيوتن كل ذلك يرمز له بالحرف "ن".

وهكذا من عشرات الأمثلة التى يرمز فيها بالحرف الواحد لعدد كبير من الأحداث والثوابت والمعاملات وما إليها من وحدات ومقاييس عالمية معيرة ينبغى أن توجد لها مقابلات بالأحرف العربية فضلا عن أن الحرف الواحد قد يرمز إلى أكثر من عنصر كيميائى واحد فالزئبق والأزوت والزرنيخ قد يكون رمزها جميعًا "ز" فضلا عن أن حرف "ز" نفسه يرمز به لعدد آخر من الوحدات مثل وحدة إزاحة التيار ومعامل الاسموز وما أشبه.

لذلك كان لابد من اختيار صور مختلفة للحرف الواحد فضلا عن ضرورة الجمع بين حرفين أو أكثر منعًا للبس وكذلك الإبقاء على بعض الحروف الإغريقية كرموز بعض الوحدات العالمية المعيرة أو الرموز الرياضية حيث بدا صعبًا أحيانًا إيجاد رموز من حروف عربية موحدة ولابد أن يمضى بعض الوقت حتى تتكامل طريقة مبرأة من المآخذ بعد أن يصقلها ويصححها ويسبغها الرأى العلمى العام والذوق العام وبعد أن تعيننا المطابع والمسابك على إيجاد الصور المطلوبة للحرف وقد جربت صور مختلفة لخطوط النسخ والرقعة والثلث والفارسى والكوفى وحروف التاج التى ابتدعت حينًا ثم عدل عنها.

وعلى الذين يقولـون بالإبقـاء علـى الرمـوز والمعـادلات الحـروف الإفرنجيـة ويضربون أمثلة على ذلك باللغات الأوربية المختلفة التى اتفقت على الرمـوز نفسـها فى هذ اللغات فاتهم أن الحروف فى هذه اللغات جميعا متشابهة إلى حد كبير فضلا عن أنها تكتب جميعا من اليسار إلى اليمين فإذ فرضناها فى كتاباتنـا وبـين سـطورنا العربية جاءت نشازًا.

وفى علوم الحياة أقر مجمع اللغة العربية قـاعدة موحـدة للتصنيـف مـا وضـع قواعد لترجمة وتعريـب أسمـاء المواليـد والأعيـان ومـن نبـات وحيـوان فـأقر حلقـات التصنيف الآتية:

عالم	Kingdom
عويلم	Sub Kingdom
شعبة	Phylum
شعيبة	Sub Phylum
طائفة	Class
طويئفة	Sub Class
رتبة	Order
رتيبة	Sub Order
فصيلة	Family
فصيلة	Sub Family
قبيلة	Tribe
قبيلة	Sub Tribe

Genus

جنس

Sub Genus

جنيس

Species

نوع

Sub Species

نويع

Variety

ضرب

Race

سلالة

Strain

عترة

Indivilual

فرد

وقد زالت هذه الأسماء التى اتفق عليها وأقرهـا بجمعنـا الموقـر أزالـت حـيرة كانت شائعة لدى مولفى كتب المواليد وأصبح اليوم كل اسم عربى يدل اصطلاحيًا على حلقة واحدة من حلقـات التصنيـف علـى غـرار الأسمـاء الأعجميـة المقابلـة لها وواضح أن أسماء حلقات التصنيـف هـذه تعـد مـن أسمـاء المعـانى وأنهـا ترجمـت إلى العربية ولم تكن الصعوبة فى الترجمة ولكن فى تخصيص كل حلقة باسم عربى واحد راجح وهذا ما أقره المجمع.

وهو قرار خليـق بـأن يتبـع مهمـا يكـن للبعـض مـن آراء أخـرى فـى هـذه المسـميات وذلك لأن فيه خلاصًا من فوضى تعـدد الأسمـاء لكـل حلقـة واحـدة مـن حلقات تصنيف المواليد.

وقد أقر المجمع القواعد الآتية فى ترجمة وتعريب أسماء المواليد والأعيان:

الأولى: ترجمـة الألفـاظ العلميـة بمعانيهـا هـو المجـال الأوسـع فـى حلقـات التصنيف العليا وهى الشعب والطوائف الرتب.

الثانية: أسماء القبائل الفصائل النباتية أو الحيوانية تكون عربية أو معربة على حسب اسم النبات أو الحيوان الذى تنسب إليه.

الثالثة: أجناس المواليد التى ليس لها أسماء عربية تعرب أسماؤها العلمية إذا كانت منسوبة إل الأعلام وتترجم بمعانيها إذا أمكن ترجمتها فى كلمة عربية واحدة سائغة وإن لم يكن ذلك ممكنًا رجح تعريبها.

الرابعة: لا مجال للتعريب فى الألفاظ العلمية الدالة على أنواع النبات لأن جميع ألفاظها أو معظمها نعوت أو صفات تترجم ترجمة فى جميع اللغات الحية.

الخامسة: يوجد مجال للترجمة أو التعريب جميعًا فى الألفاظ الدالة على السلالات والأصناف أو الضروب.

السادسة: لا مجال للبحث ولا للتركيب المزجى فى تصنيف المواليد ولا حاجة إليهما وفى اللجوء إليهما للغة العربية.

ومع ذلك فقد رأى المجمع ضرورة الازدواج أى ذكر الأسماء العلمية اللاتينية فى الدراسات العليا فى حالة احتمال أى لبس.

فمثلا لا مجال للتعريب فى الفقاريات والأسماك والبرمائيات والزواحف والطيور والثدييات فى رتب الحيوان، كذلك لا مجا للتعريب فى غشائية الأجنحة وحرشفيات الأجنحة وذوات الجناحين ونصفيات الأجنحة وما إليها من رتب الحشرات وكذلك للنباتات الزهرية واللازهرية وذوات الفلقتين وذوات الفلقة الواحدة وكاسيات البذور وعاريات البذور وما إليها.

فهذه جميعًا ترجمات معقولة مقبولة مستساغة فلا معنى للتعريب هنا مطلقًا وكذلك نقول فى الفصائل النباتية النخلية والنجيلية والزنبقية والنرجسية والسحلبية والخبازية وكذلك أسماء الأجناس كالقمح والشعير والخردل والقطن والورد وما إليها.

أما النوع فينبغي إن دل على صفة بعينها أن نردف الاسم المتفق عليه باللغة العربية بالاسم العلمى كاملا ويتعين ذلك خاصة فى الحالات التى تختلف فيها المسميات فالبطاطس فى مصر هى البطاطا فى سوريا، والخوخ هو الدراق والكمثرى هى الأجاص.

بل إن الديس والوط والبردى أسماء لنبات واحد ولكنه يعرف بأسماء مختلفة فى الجهات المختلفة ففى كل هذه الحالات وفى مجال البحث العلمى والكتابات العلمية يتعين الازدواج وذكر الاسم العلمى باللغة اللاتينية.

فى الجيولوجيـــــا:

وفى المصطلحات الجيولوجية تسعفنا العربية بألفاظ تحدد الفروق الدقيقة بين درجات متفاوتة من النور والمظلمة والعمق والضحالة والملوحة والعزوبة والبرى والتفتت والتشقق والانفصال والانفصام وما إلى ذلك فإذا بها معطاء كأجزل ما يكون.

فنجد النور والغسق والغبق والإظلام كما نجد الضحل والغائر والعميق والسحيق. وفى مدى استجابة الصخرور ورد الفعل فيها بالنسبة للحركات الأرضية.

Joint, Jointing	فاصل وتفصيل
Fault, Faulting	صدع وتصديع
Fracture, Fracturing	شق، تشقق
Thrust, Thrusting	دسرة ودسر
Cleavage	تفلق
Slipping	انزلاق

تزحلق	Sliding
زحف	Creeping

وفي باب الطي:

طية وطي	Fold, Folding
ثنية وثني	Plicate, Plicating
تعرج	Corrugation
قبة، تقبب	Deme, Deming

وفي درجات ملوحة الماء نقول:

ماء عذب	Fresh Water
ماء مسوس	Brackish water
ماء ملح	Saline water
ماء وعاق	Hypersaline water
ماء أجاج	Brine water

وفي باب ما يشبه:

غراواني	Colloid
بلوراني	Crystalloid
فلزاني	Metalloid
سكراني	Saccharoid

Spherpid

كروانى

Deltoid

دلتانى

وفى موضع البرى والسحج والتآكل، نقول:

Abrasion

البرى أو السحج

Erosion

التحات

Corrosion

التآكل

ونقول:

Stalagmites

صواعد

وهى أعمدة من كربونا الكالسيوم ترسبت فى أرضية الكهف بسبب بخر الماء متجهة إلى أعلى.

Stalactiles

وهوابط

وهى أعمدة من كربونات الكالسيوم مدلاة من سقف الكهف بسبب بخر الماء متجهة إلى أسفل. وهى صيغ عربية سليمة ما أظن أن الأقدمين قد استعملوها.

وفى مراتب ومرحل الزمن الجيولوجى نقول: الدهر والحين والحقب والعصر البرهة واللحظة.

١. الدهر Eon:

أطول مرحلة من مراحل الزمن الجيولوجى لا يقل مداها عن مئات قد تصل إلى آلاف أو آكثر من ملايين السنين. مثل دهر الحياة الظاهرة.

٢. الحين Era:

أطول مراحل العصر فى الزمن الجيولوجى ويقاس مداها ببضعة ملايين من

السنين (لا يتجاوزوا العشرة عادة) ويتميز كل حين من الأحيان الجيولوجية بفصائل أجناس حيوانية ونباتية متميزة يبيد معظمها مع نهايته. مثل حين الحياة القديمة.

٣. الحقب Period:

المدة من الزمن ترسبت أثناءها صخور المجموعة. وتقدر بمئات الملايين من السنين مثل الحقب الكربوني.

٤. العصر Age:

أطول مرحلة من مراحل الحقب ويقاس مداها بعدد قليل من عشرات الملايين من السنين. ويتميز كل حقب برتب وفصائل حيوانية ونباتية وتنقرض أغلبها أو تقل أهميتها الجيولوجية مع نهاية الحقب.

ولم تسمح وسائل تقسيم الأحقاب إلى عصور إلا فى الأحقاب الثلاثة الأخيرة فقط التى تتبع دهر الحياة الظاهرة.

٥. البرهة Hemero:

مرحلة من الزمن الجيولوجى يقاس مداها بمئات الآلاف من السنين ويندر أن يبلغ مداها أكثر من مليون سنة. وهى أطول مرحلة ينقسم إليها حين من الأحيان الجيولوجية أو تقل فى الأهمية الجيولوجية كثيرًا مع نهايتها.

٦. اللحظة Moment:

أقصر مراحل الزمن الجيولوجى، وأصغر وحداته لا يتجاوز مداها بضع عشرات من آلاف السنين ويتميز بسيادة نوع معين من الكائنات خلالها أو بمرحلة معينة من تاريخ هذا النوع.

جهود مجمع اللغة العربية:

وإذا نحن عرضنا للهيئات التى كان لها الفضل فى هذه الحركة المباركة من تطويع للغة العربية للاستعمال فى التعبيرات والمصطلحات العلمية فإننا لنضع على رأسها مجمع اللغة العربية. فهو الذى يسر الأمر بجهود أعضائه وخبراته من أساتذة الجامعات المتخصصين فهم جميعًا قوم عاكفون على صون اللغة وسلامتها وهى الضمان الوحيد للتفاهم الصحيح بين أقطار الوطن العربى إذ أن العامية واللّهجات المختلفة لا يستقيم بها تخاطب ولا تفاهم وإنما يكون ذلك باللغة العربية السليمة التى يحافظ عليها وينميها مجمع اللغة العربية بأعضاءه ولجانه وخبراته وكانت حصيلة جهوده فى هذا المجال خمس عشرة مجموعة تضم عشرات الألوف من المصطلحات فى العلوم المختلفة.

المجمع المصرى للثقافة العلمية:

وأذكر بالتقدير المجمع المصرى للثقافة العلمية وقد عاصرته منذ إنشائه منذ نيف وأربعين عامًا لا أذكر أنى تخلفت عن محاضرة من محاضراته أو مؤتمر من مؤتمراته إلا لعذر قاهر طارئ لقد جعل من أهم أغراضه تعريب العلم ونشر الثقافة العلمية باللغة العربية.

وقد حقق هذا الغرض كاملا بما نشر وأذاع من كتب ومحاضرات وبما ترجم وعرب وناقش من موضوعات هى من صميم الموضوعات العلمية نشرها على الناس بلغة عربية سليمة لقد استحق أعضاءه ومؤسسوه كل تقدير أن أسهموا بأوفى نصيب فى خدمة اللغة العربية وتطويعها للتعبير العلمى.

ولا ننسى المؤتمرات العلمية العربية التى نظمها الاتحاد العلمى العربى والمؤتمرات العلمية العربية والمؤتمرات الطبية العربية التى عقدت فى العواصم العربية

منذ عشرين عامًا. فقد عقد المؤتمر الأول في الإسكندرية سنة ١٩٥٣م، وكان الثاني في القاهرة سنة ١٩٥٥م، والثالث في بيروت سنة ١٩٥٧م، والرابع في القاهرة سنة ١٩٦١م، والخامس في بغداد سنة ١٩٦٦م، والسادس في دمشق سنة ١٩٦٩م، والسابع في القاهرة سنة ١٩٧٣م، لقد عرضت من بين ما عرضت لموضوعات المصطلحات وأوصت من بين ما أوصت بضرورة الإسراع في وضع معجم علمي عربي موحد أعد له نحو مائة ألف مصطلح روجعت وأنجز نحو ثلثها ومن أسف أن توقف العمل فيه وكان ذلك في كنف وزارة البحث العلمي ثم أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا.

وكذلك عقدت مؤتمرات طبية عربية كثيرة كونت هيئة لترجمة المصطلحات كانت نواة لتأليف لجنة المصطلحات الطبية بمجمع اللغة العربية.

وينبغي أن نذكر بالشكر جهودًا أخرى بذلتها جامعة الدول العربية حين جمعت الإدارة الثقافية بها - المصطلحات العلمية التي تستعمل في المدارس الثانوية وعملت على توحيد ترجمتها في الأقطار العربية فجمعت مئات المصطلحات مما يستعمل في الرياضيات والكيمياء والطبيعة النبات والحيوان وعرضتها على المختصين في البلاد العربية وقد أقرت الترجمة العربية الموحدة في المؤتمرات العلمية.

خبير أجنبي:

ولعلنا أن نذكر في هذا الصدد جهود خبير أجنبي هو السيد "جمبلت" الذي استقدم بمعرفة اليونسكو إبان انعقاد المؤتمر العلمي العربي الثاني سنة ١٩٥٥م، وأمضى بمصر ستة أشهر عكف فيها على جمع نحو ألف وأربعمائة مصطلح في علم الطبيعة جميعها وتعريفها من المعاجم المعيرة وفرقها في جذاذات وزعت على المختصين لترجمتها، ثم جمعت في كتاب يقع في جزأين عرضت بعد ذلك في المؤتمر العلمي العربي الثالث في بيروت. وقد أشار الخبير بمعالجة المصطلحات جملة حسب

الموضوعات لا فرادى حسب الترتيب الأبجدى كما أشار بإنشاء مكتب خاص للمصطلحات وباستعمال النظام العشرى العالمى فى تنسيقها وترتيبها.

مكتب التعريب:

وها هو ذا مكتب التعريب يقوم بدوره فى هذا المجال، وقد أخرج حتى الآن عددًا من المجموعات التى تضم ألوف المصطلحات.

معاجم مختلفة:

ولعلنا نذكر كذلك عددًا من المعاجم كان لها أثرها فى تذليل الصعاب مثل معجم شرف للمصطلحات الطبية والعلمية ومعجم المعلوف للحيوان ومعجم عيسى للنبات ومعجم الألفاظ الزراعية للأمير مصطفى الشهاوى، ثم معجم المصطلحات العلمية والفنية الذى يضم نحوًا من خمسة وثلاثين ألف مصطلح فى العلوم الميكانيكية والهندسة والرياضة والطيران والبحرية وما إليها.

وهناك المعجم العسكرى الموحد الذى أشرفت على إصداره جامعة الدول العربية ويضم نحو ثمانين ألف مصطلح.

ولعله قد آن الأوان لتنسيق هذه الجهود جميعًا والعمل على إصدار معجم علمى عربى موحد وهو ما أوصت به المؤتمرات العلمية العربية المختلفة وكذلك العمل على إصدار دورية علمية عربية تكون مدرسة لكبار المتخصصين لنشر الثقافة العلمية الرفيعة والموضوعات العلمية المتخصصة الدقيقة.

****

خاتمة

وخلاصة القول أن اللغة العربية قد أثبتت قدرتها على التعبير العلمي وعلى نقل المصطلحات الدقيقة عليها وأنها قادرة على ملاحقة التقدم العلمي في مختلف مجالاته لولا هذا التعويق الذي يأتي عن طريق نفر من أبنائها لا يصبرون على أدائها يستسهلون استعمال اللغات الأجنبية فيظن شبابنا أن هذه العلوم مستوردة من الخارج مع أنها بضاعتنا ترد إلينا ومع أننا نحن العرب أهل أصالة وأثالة فيها.

ومن الحقّ أن نقول أن التعليم في كل بلاد العالم باللغات القومية لتلك البلاد، فيما عدا قلة ضئيلة تلك التي تعددت فيها اللغات الإقليمية أو التي خضعت للاستعمار الأجنبي ردحًا طويلا، فاضطرت لاتخاذ لغة المستعمر لغة رسمية وتعليمية لها.

ونحن في وطننا العربي لا نستطيع أن نحقق ديمقراطية التعليم ما لم تكن باللغة القومية ولست أدري لماذا لم تكن العربية هي لغة التدريس في الجامعات العربية؟ فلماذا يتعين أن تكون الإنجليزية أو الفرنسية؟

إن استعمال اللغة العربية في التعليم الجامعي إنما هو وسيلة أكيدة للإبداع العلمي وربط الجامعة بالمجتمع ورفع المستوى الثقافي العلمي للأمة العربية. ومنع الانفصال بين التفكير والتعمير ولا مراء في أن الدعوة إلى بناء المجتمع العربي تبقى ناقصة إذ أغفلت التركيز على اللغة العربية باعتبارها المقوم الرئيس للوجود العربي وليس معنى اتخاذ العربية لغة للتدريس في الجامعات والمعاهد عدم العناية باللغات الأجنبية بل على النقيض إن ذلك أدعى بمضاعفة الجهد في سبيل تقوية الطالب في اللغات الأجنبية وذلك لمتابعة الاطلاع على النجزات العلمية بلغاتها الأصلية.

وإذا كان قد غدا من العسير ملاحقة التقدم العلمي الهائل حيث ينشر أكثر من مليون من البحوث العلمية المبتكرة سنويًا في أربعين لغة فلا أقل من ملاحقة ما ينشر باللغات الأجنبية الأكثر شيوعًا كالإنجليزية والفرنسية والروسية والألمانية إلى

جانب ألوف الكتب العلمية التى تنتشر بهذه اللغات، وإنما يكون ذلك بتقليد ما فعله الرشيد والمأمون من إنشاء ديوان للترجمة فى بيت الحكمة فى العصر الذهبى للحركة العلمية فى العصر الإسلامى.

والآن وقد ثبتت قدرة اللغة العربية على التعبير العلمى فحبذا أن يوصى مؤتمرنا بالآتى:

١. أنْ تكون العربية لغة التدريس فى جميع الجامعات والمعاهد العربية.

٢. الإسراع فى إصدار معجم علمى عربى موحد.

٣. إنشاء ديوان للترجمة تحشد له أرقى الكفايات العلمية لنقل البحوث والكتب العلمية إلى اللغة العربية.

وبعد فإنه مما يشرف جيلنا أن ننفى عن العربية تهمة الجمود والقصور وأن نجعلها لغة العلم كما أسلافنا فى الزمن الماضى، حين جعلوا منها لغة للنشر العلمى العالمى وعنها نقل أهل أوربا علوم العرب وفنونهم.. ولولا هذه الإغفاءة التى طالت بضعة قرون لكان الحال غير الحال، ولا ستمر قصب السبق فى أيدينا، ندل به على من نشاء، وما نحن ننضو ثوب الخمول ونركض نحو المجد وثبًا نريد أن نستعيد مجد السلف وأن نلحق بالركب ونشارك فى بناء صرح المدنية والحضارة ونحن الآن أسسنا بناءه وأقمنا دعائمه فى سالف الأزمان، ونمد نهر المعرفة برافد من أعذب روافده وأغزرها مادة وأسلسها أسلوبًا وأفصحها بيانًا. إنها معرفة علمية صيغت بلغة الضاد يقرؤها مائة مليون من الأنفس هم قطان الوطن العربى نريد لهم وحدة قوية عزيزة، محاطة بسياج من العلم، سداها العلم ولحمتها العلم ولغتها العربية الفصحى.

والله ولى التوفيق والسلام ،،

مراجع

١.بحوث فى اللغة والأدب للأستاذ عباس محمود العقاد.

٢.بحوث مؤتمر تطوير العربية (الخرطوم ١٩٧٦).

٣.بحوث مؤتمر التعريب الثانى فى الجزائر.

أ. اللغة العربية والتعبير العلمى د. عبد الحليم منتصر.

ب. نحو تنسيق أفضل لجهود تطوير اللغة العربيّة د.تمام حسان.

٤.تاريخ أداب العرب للأستاذ مصطفى صادق الرافعى.

٥.تاريخ الخط العربى د.صلاح الدين المنجد.

٦.تاريخ الدعوة إلى العامية د.نفوسة زكريا.

٧.تاريخ العرب قبل الإسلام د.جواد على.

٨.التعليم باللغة الأجنبية فى المدارس الرسمية العربية. حسان محمد حسان.

٩.حياة اللغة العربية. حفنى ناصف.

١٠.درسات فى تطور الكتابة الكوفية. إبراهيم جمعة.

١١.دراسات فى العربية وتاريخها. الشيخ الإمام محمد الخضر حسين.

١٢.رسائل الجاحظ. تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون.

١٣.شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف لأبى أحمد العسكرى.

١٤.صبح الأعشى للقلقشندى.

١٥.العربية ـ يوهان فك.

١٦.فتوح البلدان للبلاذرى.

١٧.فقه اللغة وخصائص العربية د.محمد المبارك.

١٨.فن التدريس للغة العربية للأستاذ محمد صالح سمك.

١٩.فى سبيل اللغة . محمود أحمد خليل.

٢٠.القياس فى اللغة العربية د.محمد حسن عبد العزيز.

٢١.كتاب النقط للدانى.

٢٢.اللغة بين الفرد والمجتمع. أوتوجسبرسن، ترجمة د.عبد الرحمن أيوب.

٢٣.اللغة بين الفرد والمجتمع . د.محمود السعران.

٢٤.المدارس النحوية. د. شوقى ضيف.

٢٥.من قضايا اللغة والنحو للأستاذ على النحدى ناصف.

****

المحتوى

الموضوع | **الصفحة**

المقدمات .... أ – س

– مقدمة الطبعة الخامسة .... ب

– مقدمة الطبعة الرابعة .... ك

– مقدمة الطبعة الأولى .... م

الفصل الأول: الجبهات الثلاث .... ١ – ١٠٤

تمهيد ٢

أ. اللغة الباسلة ٢

ب. الجبهات الثلاث ٥

– الجبهة الأولى: الجبهة العربية ٧

أولاً: تحليل الموقف العربى وبيان خطورته ٧

العربية فى حياة العرب ٩

ثانيًا: أمثلة الخصومة العربية للعربية ١٥

١. ضعف الأداء والمفهوم المغلوط للغة والثقافة ١٥

– اللغة والثقافة ١٨

٢. الاستعجام ٢٢

– استعجام أمة ٢٣

– عجم فى العربية عرب فى الأعجمية ٢٤

٣. المسخ اللغوى فى الحياة الاجتماعية ٢٦

– المظهر الأول ٢٦

– المظهر الثانى ٣٦

الموضوع	الصفحة

٤. التعليم باللغات الأعجمية ٤٤

أ- القسم الإنجليزى فى كلية التجارة........................ ٤٨

ب- الجامعات الإنجليزية والفرنسية والألمانية ٥٣

جـ- جامعة الأزهر........................ ٥٥

د- مدارس اللغات........................ ٥٧

التدريس باللغات الأعجمية وتخطيط قوى الاحتلال ٥٩

تعليم اللغات لا التعليم باللغات ٦٦

٥. مناهج تعليم اللغة العربية ٦٩

- المسألة الأولى: مناهج دراسة اللغة وغاياتها ٦٩

- المسألة الثانية: حجم العربية فى مناهج التعليم........................ ٧٠

الشعور ٧٥

حب اللغة........................ ٧٧

- الجبهة الثانية: المسلمون ٨٤

العربية لغة الإسلام........................ ٨٤

رجعة الشعوبية ٨٧

السيطرة اللغوية والاحتلال العقلى........................ ٨٩

من آثار السيطرة اللغوية على الأمة........................ ٩٠

- الجبهة الثالثة: العداوة الخارجية ٩٩

الاتجاه الأول: النظرى ١٠٠

الاتجاه الثانى: العملى ١٠١

الفصل الثانى: اللغة العربية والعلوم التجريبية ١٠٥-١٢٨

الموضوع	الصفحة
التمهيد	١٠٦
قضية الأمة	١٠٨
العربية والعلم أمس واليوم	١٠٩
الصلة بين اللغة والفكر	١٠٩
التقدم والتخلف بين الأمم واللغات	١١١
خصائص العربية	١١٢
- الجهة الأولى: الخصائص التعبيرية	١١٣
١. الأصوات	١١٣
٢. المفردات	١١٣
٣. التراكيب	١١٤
- الجهة الثانية: القدرة الواقعية للعربية	١١٦
١. التراث	١١٦
٢. تجارب العصر الحديث عرض وتحليل	١١٨
أ- التجربة السورية	١٢٠
ب- مدرسة الطب المصرية	١٢١
رأى فى مشكلة المصطلح	١٢٣
الفصل الثالث: الفصحى والعامية	١٢٩-١٥٨
تمهيد	١٣٠
أولاً: اللغة العامية أصلها وظروف نشأتها	١٣١
١. متى ظهرت العامية وأين	١٣١
٢. اختفاء علامات الإعراب وعلاقته بظهور العامية	١٣٢
ثانيًا: اللغة العربية ولهجاتها قديمًا وحديثًا	١٣٣

الموضوع	الصفحة
ثالثًا: الفصحى والعامية فى اللغات المختلفة	١٣٥
رابعًا: المشكلة فى العربية ولماذا	١٣٨
- تحليل المشكلة	١٤٠
١. التباعد بين الفصحى ولهجاتها فى اللغة العربية	١٤٠
٢. الفروق الموضوعية بين العربية وغيرها من اللغات الحضارية	١٤١
خامسًا: الدعوة إلى العامية وحجج أنصارها	١٤٤
- رأى فى الحل	١٥٤
سادسًا: ضرورة الفصحى	١٥٥
١. ضرورة الفصحى للعالم العربى	١٥٥
٢. الصلة بالمجتمع الإسلامى	١٥٦
٣. الصلة بالتراث	١٥٧
الفصل الرابع: التعليم	١٥٩-١٨٠
تمهيد	١٦٠
أولاً: الوسيلة والغاية فى المناهج المعاصرة للغة العربية	١٦٦
- تدريس القواعد	١٦٧
- الأدب	١٧٠
ثانيًا: المعلمون	١٧٣
١. معلمو العربية	١٧٣
٢. معلمو المواد الأخرى	١٧٦
ثالثًا: الحل	١٧٩

الموضوع	الصفحة
الفصل الخامس: الكتاب العربية	١٨١-٢٠٥
أولاً: الكتابة العربية أصلها وتطورها	١٨٢
ثانيًا: الإعجام والشكل	١٩٠
أ- الإعجام	١٩٠
ب- الشكل أو نقط الإعراب	١٩٣
١. أبو الأسود الدؤلى	١٩٣
٢. الخليل بن أحمد	١٩٥
٣. العلامات بعد الخليل	١٩٨
ثالثًا: انتقال الكتابة العربية إلى لغات غير عربية	١٩٩
رابعًا: مكانة الكتابة العربية بين الكتابات الإنسانية	٢٠١
ملحق: خصائص اللغة العربية فى التعبير العلمى	٢٠٦
مراجع	٢٣٧